سلسلة جمعية دار البر للرسائل الجامعية -٣-



الحمد

في القرآن الكريم والسنة النبوية

دراسة موضوعية

إعداد
عبد الرحمن بن حابد الغريبي

جمعية دار البر
الإمارات العربية المتحدة - دبي




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة جمعية دار البر للرسائل الجامعية «٣»

الحمد

في القرآن الكريم والسنة النبوية

دراسة موضوعية

إعداد
عبد الرحمن بن عابد بن صويلح الغريبي

جمعية دار البر
الإمارات العربية المتحدة - دبي

الطبعة الأولىٰ

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة

إشراف: فضيلة الشيخ الدكتور سليمان الصادق البيرة



الإمارات العربية المتحدة ـ دبي ص ب ٥٧٣٢

هاتف : ٠٠٩٧١٤٣٥٢٣٣٣٣

فاكس : ٠٠٩٧١٤٣٥٢٨٢٨٦

daralber@emirates.net.ae

www.daralber.net



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فإنه قد استقر في العقول أن نعمة العلم من أجل النعم التي ينعم الله بها على عباده ، وأن من أوتيه فقد أوتي خيراً كثيراً .

ومعلوم أيضاً أن شرف العلم تابع لشرف معلومه فما من ريب أن أجل معلوم وأعظمه هو العلم بدين الله وشرعه ؛ لأنه طريق السعادة في الدارين فأهله عند الله بمنزلة عالية ، قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ .

ومن اتخذ العلم طريقاً أدى به إلى الجنة كما قال الرسول ﷺ : « **من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة** » .

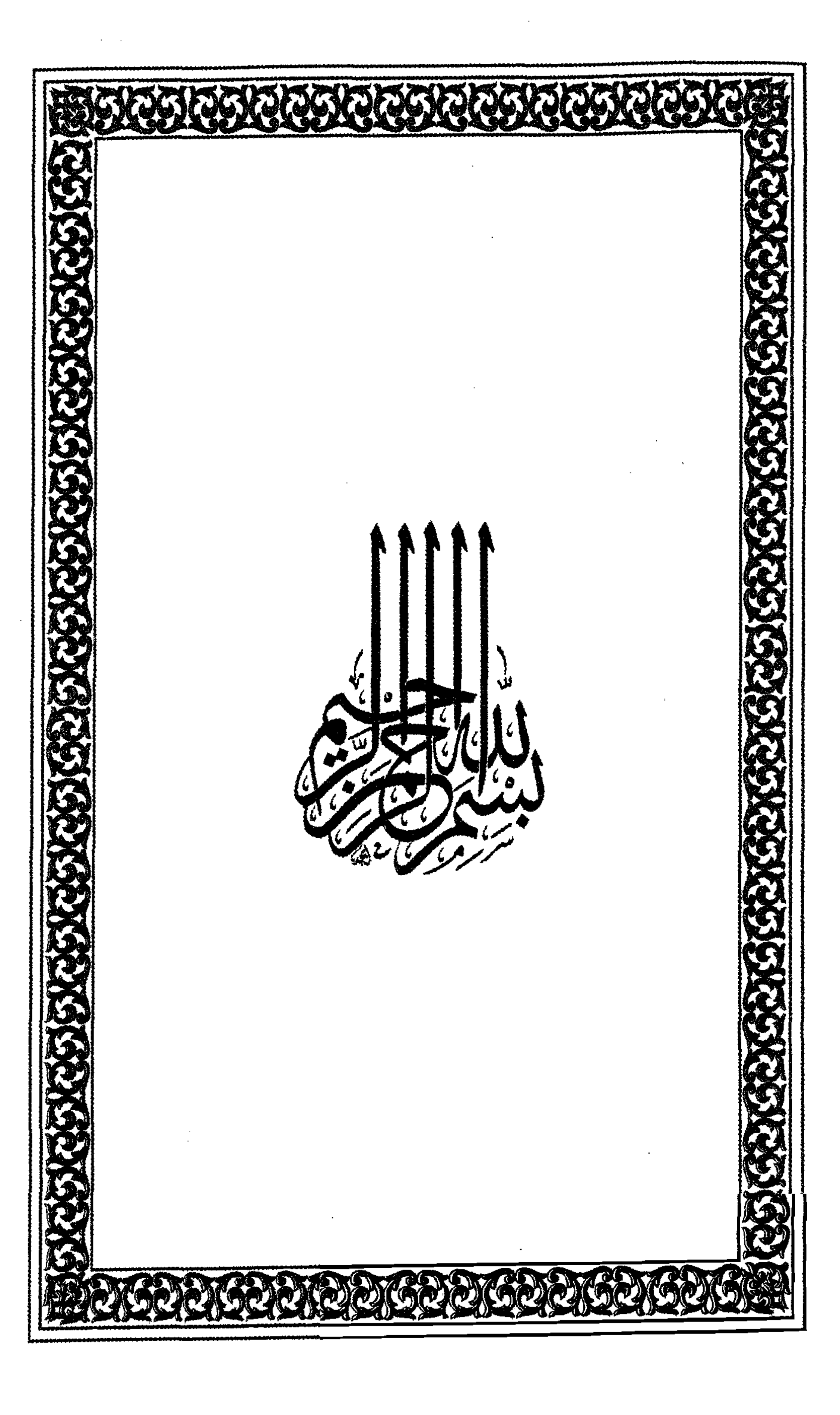
ولأجل ذلك ؛ فقد حرصت جمعية دار البر بدولة الإمارات منذ نشأتها قبل (٣٠) عاماً على الاهتمام بالعلم الشرعي ، المستمد من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ، القائم على الوسطية والاعتدال ، وذلك عبر إصداراتها المختلفة من الكتب الشرعية والبحوث العلمية .

وتتويجاً للجهود السابقة ؛ فقد ارتأت الجمعية **نشر الرسائل الجامعية والبحوث المحكمة في مشروع يعد الأول من نوعه ، وذلك ضمن إصدار سلسلة متصلة بإذن الله تعالى تغطي كافة الجوانب العلمية الشرعية والثقافية .**

وتعلن الجمعية إفساح المجال للباحثين المختصين بالعلوم الشرعية ، والرسائل الجامعية ، والبحوث المحكمة للمشاركة في هذا الصرح العظيم .

وندعو أهل الخير لدعم هذا المشروع ، والإسهام في نشر التراث الإسلامي والثقافي ، والمحافظة على هذا الإرث العظيم .

جمعية دار البر
دبي
دولة الإمارات العربية المتحدة


بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلىٰ كل مسلم ومسلمة في مشارق الأرض ومغاربها ؛ شغفه حب كتاب ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قراءةً ، ودراسةً لمواضيعه العظيمة .

أُهديه هٰذه الرسالة .





كلمة شكر

الحمد لله كما يحب ربنا أن يحمد ويشكر ، ثم الصلاة والسلام علىٰ خير من حمد ربه وشكر ، نبينا وحبيبنا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين . ثم أما بعد . . . . .

فليس لي في هـٰذا المقام من شكر أبدأُ به إلا شكر ربي ـ عز وجل ـ أن منَّ عليَّ بهـٰذه النعمة العظيمة ، وهي أن شرفني بدراسة موضوع من مواضيع القرآن الكريم .

ثم أثني بالشكر لجامعة أم القرىٰ ، وعلىٰ رأسها مديرها الفاضل ، والشكر موصول لعميد كلية الدعوة وأصول الدين ، ورئيس وأساتذة قسم الكتاب والسنة بالكلية علىٰ مواقفهم الداعمة ، وحسن تشجيعهم لطلاب الدراسات العليا .

ثم أخص بالشكر فضيلة الشيخ الدكتور/ سليمان الصادق البيرة ؛ الذي جاد عليَّ بوقته في الإشراف علىٰ هـٰذه الرسالة ، فوجه ونقد وصحح ، وبذل الجهد لنجاح هـٰذا العمل ، جعل ٱلله ذٰلك في موازين حسناته يوم يلقاه .

كما أشكر كل من ساهم ووجه ، من أساتذة وإخوة وزملاء في تصحيح وتنقيح هـٰذا العمل ، فلهم مني الدعاء والشكر والتقدير والعرفان .

✍ ✍ ✍





الحمد لله حمداً يبلغ رضاه ، وغاية منتهاه ، وصلىٰ ٱلله علىٰ أشرف من ارتضاه ، واجتباه ، وعلىٰ من صحبه ووالاه ، وسلم تسليماً ، وبعد . . .

فمما لا شك فيه أن كتاب ربنا تبارك وتعالىٰ أجل وأعظم الكتب ؛ التي يجب علينا ـ معاشر المسلمين ـ الاعتناء بها أشد عناية ، فهو كتاب قد عجز عن وصفه العظام ، وساحت في فنونه الأقلام ، فما انقضت عجائبه علىٰ مر السنين ، وما زال يتجدد بتجدد الجديدين ؛ الذي ألجم الشعراء ، وأذهل البلغاء ، واستجلب أعداءه لسماعه بالخفاء ، فما من مُؤَلِّفٍ إلا ويستعطف ، وما من مُؤلَّفٍ إلا ومستهدف ، إلا هـٰذا الكتاب ، فلا شكٍ فيه ولا ارتياب ، فقد قال منزله : ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ١ ـ ٢] .

ولما كان حمد ربنا من أجل ما مدح به نفسه ، ومن أعظم ما أثني به عليها ، وأول ما بدأ به كتابه ؛ ليعرفنا بغاية ما ينبغي أن يبتدأ به في كل حين ، لذا كان عليَّ أن أعتني بهـٰذا الذكر العظيم ، وأن أستخلص هـٰذه اللفظة من كتاب ربنا ، وأطالع ما عناه في كل موضع منها ، ومن سنة نبينا محمد ﷺ ، ثم أدرسها دراسة موضوعية ، باستقراء ما كتبه سلفنا الصالح حولها ، لأخرج بمبحث حول الحمد ليكون ضمن المواضيع التي تخدم كتاب ربنا ـ عز وجل ـ ، وسنة نبينا محمد ﷺ ، وهـٰذا البحث ما هو إلا محاولة متواضعة للإسهام في هـٰذا الميدان ، أسأل ٱلله تعالىٰ أن ييسر قبولها ، وحسن الثواب

عليها ، وهو وحده المستعان .

وإن المقام يقتضي أن أتحدث في هـٰذه المقدمة عن :

١ ـ أهمية هـٰذا الموضوع .

٢ ـ الأسباب الداعية لاختياره .

٣ ـ الدراسات السابقة عليه .

٤ ـ مصادره .

٥ ـ منهج البحث فيه .

فأقول وبٱلله التوفيق :

١ ـ أهمية هـٰذا الموضوع :

لا يخفىٰ علىٰ كل ذي لب ما للحمد من أهمية ، حيث إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ بدأ به كتابه من أول لفظة ، حيث قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وافتتح به كذٰلك بعض سور القرآن الكريم ، ثم تكررت هـٰذه اللفظة ومشتقاتها علىٰ ما يربو عن الستين آية في طيات سور القرآن الكريم دليلاً علىٰ أهميتها ، وما حثنا عليه نبينا ﷺ فيما ورد عنه من أحاديث تبين فضل الحمد والمداومة عليه ، فمن ذٰلك وغيره رأيت أن أدرس هـٰذا الذكر دراسة موضوعية لأُبين للقارئ ما يروي عطشه ، ويبل صداه ، نحو حمده لربه عز وجل ، وليعلم أن حمده لله هو شعور يفيض به قلبه بمجرد ذكره ، فإن وجوده ابتداء ليس إلا من فيض نعم ربه التي يستحق عليها الحمد ، ثم إن نعمه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ تتوالىٰ عليه في كل لحظة من لحظات حياته ، وأن هـٰذه النعم قد غمرت جميع خلق ٱلله ، وبخاصة الإنسان الذي هو موطن العمارة في الأرض ، لذٰلك كان الحمد له سبحانه ابتداءً ، وكان الحمد له ختاماً ، لتصبح قاعدة من قواعد الحياة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] .

ثم ليُعلم أن ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ ليس في حاجة لحمد المخلوقين ، وأدل دليل علىٰ ذٰلك هو أنه بدأ كتابه بحمد نفسه سبحانه بصيغة الاستغراق الدالة علىٰ أن جميع المحامد له ، ثم لم يكلف أحداً بالأمر المباشر بحمده ، مما يعطي هـٰذا الذكر أهمية تفوق غيره من الأذكار التي أمر بها .

ومما يدل علىٰ أهمية الحمد كذٰلك أن ٱلله ـ عز وجل ـ قد بدأ به الخلق في الدنيا ، ثم ختم به الأمر يوم القيامة ، وهو الذكر الذي لا ينقطع أبداً ما دامت السمٰوات والأرض ، ففي الدنيا حمد ، وعند البعث والنشور حمد ، ولدخول الجنة حمد ، والاستقرار فيها حمد ، ثم حياتهم فيها أبد الآبدين بالحمد ، وسيأتي ذكر الأدلة علىٰ ذٰلك في طيات البحث .

فمن ذٰلك كله نجد أن لدراسة الحمد في القرآن والسنة أهمية كبرىٰ ؛ كي يتاح للمسلمين أن يعرفوا حقيقته ، فيحمدوا ربهم ، ويثنوا عليه بما هو أهله ، وهو أهل التقوىٰ وأهل المغفرة .

٢ ـ الأسباب الداعية لاختيار هـٰذا الموضوع :

لقد كان لاختيار هـٰذا الموضوع عدة أسباب ـ ليكون عنواناً لهـٰذه الدرجة العلمية ـ وهي :

١ ـ خدمة كتاب ٱلله ـ عز وجل ـ وسنة نبيه ﷺ في دراسة هـٰذا الموضوع دراسةً موضوعيةً .

٢ ـ لفت نظر القارئ لما لهـٰذا الذكر من الخير الجزيل عند ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ، خاصة لمن قرن الحمد بالشكر ، وتواطأ مع ذٰلك قلبه .

٣ ـ دراسة آيات الحمد في القرآن ، وسبر غور كل آية ، وما ذكر في السنة حولها ، واستعراض ما جاء في مصادر التفسير متصلاً بموضوع التفسير الموضوعي .

٤ ـ إشادة كثير من أهل العلم ، وفي مقدمتهم أساتذتي الفضلاء بقسم الكتاب والسنة بالكلية ، وعلىٰ رأسهم فضيلة الشيخ الدكتور/ سليمان البيرة ـ حفظه ٱلله ـ بالبحث في هٰذا الموضوع المهم .

٣ ـ الدراسات السابقة لهٰذا الموضوع :

قمت ببحث حثيث عمن كتب في هٰذا الموضوع ، وذٰلك بعدة طرق منها : البحث في المكتبات ، وفي مركز الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وعن طريق ما يسمىٰ بالشبكة العنكبوتية (الإنترنت) ، وسؤال أهل العلم عن ذٰلك ، وتبين لي خلو الساحة من بحث متخصص مجاز من جهة علمية ، وكل ما وجدته :

١ ـ كتاب أحد الباحثين وهو : محمد محمد خليفة ، بحثاً أسماه (الحمد في القرآن) ، وهو دون العمق الأكاديمي ، ولا صلة له بالبحث الموضوعي ، وهٰذا الكتاب يقع (١٠٨) صفحة ، وطبع في دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، مصر العربية ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م .

٢ ـ ما كتبه العلماء قديماً وحديثاً في طيات كتبهم حول هٰذا الموضع في مباحث مصغرة ، أو فصول لا تتجاوز الورقات ، ومن بينهم : الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الشهير : (مدارج السالكين) ، وبعض كتبه الأخرىٰ ، والإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه : (رياض الصالحين) ، وما كتبه ابن أبي الدنيا في طيات كتبه ككتاب (الشكر) وغيره من كتبه ، والإمام الغزالي في (الإحياء) ، وسواه من مؤلفاته . وغيرهم كثير ممن ذكروا في ثنايا هٰذا البحث ؛ الذي أرجو من ربي ـ عز وجل ـ أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

٤ ـ مصادر البحث :

من المعلوم بداهة أن هٰذا الموضوع من موضوعات القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، والتي استفاضت بها كتب التفسير ، وكتب السنة ، وسوف أبحث فيه بالطريقة الموضوعية التي تعتمد علىٰ أسس تسهل عليَّ عملية الإلمام

بجوانبه ، والحصول علىٰ مصادره بأيسر طريقة من كتب التفسير والحديث وغيرها من المصادر ذات الصلة بموضوعات التفسير الموضوعي .

٥ ـ منهجي في البحث والكتابة في هـٰذا الموضوع :

كانت طريقتي في البحث والكتابة مرتكزة علىٰ عدة محاور أساسية ، تفرع منها بعد ذٰلك أمور جانبية ، وهـٰذه المحاور هي :

١ ـ جمع الآيات والأحاديث التي تتحدث عن كلمة الحمد ، وتقسيمها إلىٰ محاور بحيث اندرج كل محور تحت ما يناسبه من الآيات والأحاديث .

٢ ـ تصنيف ، وترتيب الآيات ، والأحاديث وفق ما يتطلبه كل باب وفصل من مفردات البحث .

٣ ـ دراسة هـٰذه الآيات ، والأحاديث ، دراسة مستفيضة ، وذٰلك بالرجوع لكتب التفسير وقراءة ما كتبه المفسرون ، وكتب السنة ومصادر الأحاديث ، ومعرفة أحوال الآيات من حيث أسباب نزولها ، وتدرج التشريع فيها ، وعامها وخاصها ، وأحوال الأحاديث من حيث صحتها وضعفها ، وغير ذٰلك مما يتطلبه البحث وفق منهج التفسير الموضوعي .

٤ ـ بيان أزمنة الحمد ، وأمكنته ، وأعداده ، وربط ذٰلك كله بمقاصده في التربية والبناء لشخصية الإنسان المسلم .

٥ ـ تقسيم الموضوع إلىٰ عناصر مترابطة ، حسبما يقتضيه سياق الآيات والأحاديث ، وموضوعات البحث .

٦ ـ عزو الآيات لسورها في القرآن الكريم ، والأحاديث لرواتها ، والمادة العلمية لمصدرها ، وفي هـٰذا الصدد فقد قمت بذكر اسم المصدر واسم مؤلفه في بداية البحث ، ثم اكتفيت بعد ذٰلك بذكر المصدر دون مؤلفه عند تكرره ، أما إذا كان ذٰلك المصدر مشهوراً فأذكره دون مؤلفه .

٧ ـ بيان معاني الكلمات الغامضة ، وترجمة الأعلام غير المشهورين فقط .





وفيه يتصل الحديث عن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم من خلال النقاط التالية :

أولاً : معنىٰ التفسير لغة :

يطلق التفسير في اللغة علىٰ الكشف والبيان والإيضاح والتفصيل ، ومن ذٰلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٣] .

كما يطلق ويراد به التأويل ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ [يوسف : ٣٦] .

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : معنىٰ قوله : « ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أي : ولا يقولون قولا يعارضون به الحق ، إلا جئناك بما هو الحق في نفس الأمر ، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم »(١) .

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « « فسر » الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل علىٰ بيان شيء وإيضاحه . من ذٰلك فسر ، يقال : فسرت الشيء وفسرته »(٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٣١٨) .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤ / ٥٠٤) .

وجاء في القاموس ، الفسر : الإبانة وكشف المغطىٰ كالتفسير[١] .

ثانياً : معنىٰ التفسير في الاصطلاح :

تنوعت عبارة المفسرين ، وأقوالهم في بيان حدّه وتعريفه ، والذي يظهر منها « أن التفسير علم جليل يفهم به كتاب ٱلله سبحانه المنزل علىٰ نبيه محمد ﷺ » .

وهٰذا التعريف ذكره الزركشي[٢] ، ويندرج تحته التعاريف المتعددة في حدّ التفسير .

ثالثاً : معنىٰ (موضوعي) :

هٰذه نسبة إلىٰ موضوع : الذي هو المادة التِي يؤخذ أو يتركب أو يبنىٰ منها جزئيات البحث ، ويضم بعضها إلىٰ بعض ليصير موضوعاً .

يقول الدكتور محمد أحمد القاسم : « « وموضوعي » نسبة إلىٰ موضوع وإضافة « تفسير » إلىٰ « موضوعي » لما صارت علماً علىٰ هٰذا الفن بعد أن ركبت معها ، وصارت كلمة واحدة كتركيب « معد يكرب » ، فتنوسيت تلك الإضافة »[٣] .

رابعاً : تعريف التفسير الموضوعي :

هو إفراد الآيات القرآنية التي تعالج موضوعاً واحداً ، وهدفاً واحداً ، بالدراسة والتفصيل ، بعد ضم بعضها إلىٰ بعض ، مهما تنوعت ألفاظها ، وتعددت مواطنها ـ دراسة متكاملة مع مراعاة المتقدم والمتأخر منها ،

---

(١) القاموس المحيط (٣ / ١١٠) .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١ / ١٣) .

(٣) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم للقاسم ص : ٧ .

والاستعانة بأسباب النزول ، والسنة النبوية ، وأقوال السلف الصالح المتعلقة بالموضوع[١] .

خامساً : نشأة التفسير الموضوعي :

ينبغي أن يكون واضحاً أن مصطلح (التفسير الموضوعي) مصطلح متأخر جداً ، فهو لم يظهر إلا في هٰذا القرن ، أي : منذ سبعين سنة تقريباً في المدرسة الحديثة بمصر ، ثم بكلية الدعوة بجامعة الأزهر .

وهو لم يستوِ بعد حتىٰ يطلق عليه (علم) ، ويمكن أن يطلق عليه (لون) فهو لون من ألوان التفسير ، والذين ألفوا قديماً لم يكن يدور بخلدهم مصطلح (التفسير الموضوعي) مثل : قتادة وغيره ممن جاء بعد ، ولٰكننا نحن المتأخرين يصح لنا أن نعتبر ذٰلك بداية هٰذا اللون في التفسير ، فكل ما مال إلىٰ الخصوصية بالبحث في موضوعات القرآن نعتبره تفسيراً موضوعياً .

إن هٰذا اللون من التفسير اعتنىٰ به العلماء الأقدمون جمعاً وترتيباً ودراسة واستنباطاً ، وجالوا فيه وصالوا . وكان من فرسان ميدانه العَلَم العالم مقاتل بن سليمان الأزدي الذي توفي سنة (١٥٠ هـ) ، حيث ألف فيه كتاباً قيماً سماه « تفسير الخمسمئة آية في الأمر والنهي والحلال والحرام » جعل ترتيبه علىٰ طريقة الفقهاء ـ رحمهم ٱلله ـ في تأليفهم ، بدأه بتفسير الإيمان ، ثم ذكر أبواب الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصيام ، ثم الحج ، ثم المظالم ، ثم المواريث ، ثم الربا ، ثم الخمر ، ثم النكاح ، ثم الطلاق ، ثم الزنىٰ ، ثم ذكر بعض الآداب والمعاملات في دخول البيوت ، ثم ذكر أبواب الجهاد .

ومقاتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإن لم يستقص ذكر الآيات ذات الموضوع الواحد في مكان واحد ، فهو بحق من أوائل العلماء الذين كتبوا فيما نحن بصدده مما

---

(١) انظر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم للقاسم ٧ ؛ والبداية في التفسير الموضوعي لعبد الحي الفرماوي ٥٢ .

نسميه في العصر الحاضر بـ : (التفسير الموضوعي) ، وإن لم يكن معروفاً عند الأقدمين بنفس المصطلح .

والمتتبع لجهود علمائنا الأقدمين في هٰذا اللون من التفسير التخصصي يجد لهم جهوداً قيمة ، وأيادي علمية مشرقة ، وقد تعددت المواضيع القرآنية التي ألفوا فيها ، فمنها ما وصل إلينا ، ومنها الذي لازال حبيساً بين جدران المكتبات ، ومنها الذي فقد ولم نعلم عنه إلا من خلال الكتب العلمية أو الثبت العلمي لصاحبها ، ومن المواضيع ذات الصلة بالتفسير الموضوعي : موضوع (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم) ، والتي منها :

كتاب الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، للحافظ مقاتل بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

وهٰذا العلم الجليل علاقته بالتفسير الموضوعي واضحة ، وقد اعتنىٰ به علماؤنا الأقدمون والمتأخرون ، وألفوا فيه كتباً قيمة .

يقول الحافظ ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« وقد نسب كتاب في الوجوه والنظائر إلىٰ عكرمة ، وكتاب آخر إلىٰ علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وممن ألف في الوجوه والنظائر الكلبي ، ومقاتل بن سليمان ، وأبو الفضل العباسي بن الفضل الأنصاري ، وروىٰ مطروح بن محمد بن شاكر عن عبد ٱلله بن هارون الحجازي عن أبيه كتاباً في الوجوه والنظائر ، وأبو بكر محمد بن الحسن النقاش ، وأبو عبد ٱلله الحسن بن محمد الدامغاني ، وأبو علي بن البناء من أصحابنا ، وشيخنا أبو الحسن علي بن عبيد ٱلله ابن الزاغوني ، ولا أعلم أحداً جمع الوجوه والنظائر سوىٰ هٰؤلاء »[١] .

زاد الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وأبو الحسن بن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسمىٰ كتابه

---

(١) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (١ / ٢) .

« الأفراد » وزاد السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومحمد بن عبد الصمد المصري ، ثم قال : وقد أفردت في هٰذا الفن كتاباً سميته : « معترك الأقران في إعجاز القرآن »[١] .

وقد سبق السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التأليف ابن العماد بن الحنبلي المتوفىٰ سنة (٨٨٧ هـ) وعنوان كتابه « كشف السرائر في معنىٰ الوجوه والأشباه والنظائر » مطبوع ، وقد بين أهل العلم المعنىٰ المقصود بالوجوه والنظائر .

فقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « واعلم أن معنىٰ الوجوه والنظائر أن تكون الكلمة الواحدة ذكرت في مواضع من القرآن علىٰ لفظ واحد ، وحركة واحدة ، وأريد بكل مكان معنىٰ غير الآخر ، فلفظ كل كلمة ذكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضوع الآخر . وتفسير كل كلمة بمعنىٰ غير معنىٰ الآخر هو الوجوه .

فإذاً النظائر اسم للألفاظ ، والوجوه اسم للمعاني ، فهٰذا الأصل في وضع كتب الوجوه والنظائر .

والذي أراده العلماء بوضع كتب الوجوه والنظائر أن يعرفوا السامع لهٰذه النظائر أن معانيها تختلف ، وأنه ليس المراد بهٰذه اللفظة ما أريد بالأخرىٰ »[٢] .

وعلىٰ هٰذا المنوال سار الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البرهان ، فقال : « فالوجوه : اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان كلفظ « الأمة » . والنظائر كالألفاظ المتواطئة » وذكر غير هٰذا ، وتبعه السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإتقان[٣] .

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ، مطبوع ، وحقق بالدراسة لدرجة الدكتوراه بجامعة أم القرى .

(٢) نزهة الأعين النواظر (١ / ٣٠٢) .

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١ / ١٠٢) .

سادساً : طريقة البحث في التفسير الموضوعي :

والبحث في التفسير الموضوعي له طريقان :

أما الطريق الأول لكيفية البحث فيه فهو : أن ينظر الباحث إلىٰ السورة القرآنية من أولها إلىٰ آخرها علىٰ أنها وحدة متكاملة الفكرة والمنهج والموضوع ، وقد عالجت ذٰلك الموضوع العام من خلاله موضوعاتها المتعددة ، مثال ذٰلك : سورة المنافقين : موضوعها : فضح المنافقين والتحذير منهم[(١)] ، ومن أصحاب هٰذه الطريقة سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (في ظلال القرآن) .

وأما الطريق الثاني : فهو أن ينظر الباحث إلىٰ الآيات القرآنية المتنوعة في القرآن كله ، بحيث يجمع تلك الآيات ذات الموضوع الواحد والهدف المشترك في موضوع واحد ، ويقوم بدراستها دراسة متكاملة مراعياً ترتيبها حسب أسباب النزول ، لكي يعرف المتقدم منها من المتأخر ، مستعيناً في ذٰلك بالسنة الصحيحة ، وفهم السلف لذٰلك . ومحاولاً قدر جهده وطاقته الإحاطة بجوانب الموضوع كله[(٢)] .

وهٰذه « الطريقة الثانية » هي المعمول بها في مجال البحوث العلمية الموضوعية ، وإذا ما أطلقت كلمة « تفسير موضوعي » فلا يفهم منها إلا بحث موضوع من موضوعات القرآن الكريم علىٰ مستوىٰ القرآن جميعه ، أو جله ، أو بعضه .

سابعاً : أهمية منهج الدراسة في التفسير الموضوعي :

وبناء علىٰ هٰذه الطريقة فلا بد من تحديد منهج لدراسة الموضوع المختار ، من أجل الإلمام بأطراف الموضوع ، والربط بين أجزائه وإظهاره في

---

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ٤٠ .

(٢) انظر مباحث في التفسير الموضوعي ص : ٣٧ .

صورة متكاملة تكشف للقارئ عظمة القرآن الكريم ، وأهدافه السامية . وتقضي على الدراسات المبتورة ، والدعاوى المضللة من المستشرقين وأتباعهم .

ثامناً : تحديد المنهج :

أولاً : اختيار الموضوع المراد دراسته .

ثانياً : جمع الآيات القرآنية المتعلقة به .

ثالثاً : ترتيبها وفق أسباب النزول لمعرفة المتقدم من المتأخر منها .

رابعاً : شرحها شرحاً وافياً ، يجلي مضمونها ، ويكشف عن مكنونها ، ويربط بين أجزائها . وإزالة ما يتوهم أنه اختلاف وتناقض بينها ، أو ناسخ ومنسوخ ، أو خاص وعام ، أو مطلق ومقيد ، أو مجمل ومفسر ، وذلك يتم من خلال دراسة الآيات في كتب التفسير التحليلي ، فالتفسير الموضوعي يمر أولاً عبر بوابة التفسير التحليلي بدراسة أقوال المفسرين ، واختيار المناسب منها للموضوع .

خامساً : جمع ما صح في الموضوع عن النبي ﷺ من السنة الصحيحة المبينة لما أجمل ، والمفسرة لما أشكل ، والمقيدة لما أطلق ، والمخصصة لما جاء عاماً .

سادساً : الاستعانة في هذا كله بفهم السلف الصالح لنصوص الوحيين ، وعدم الاتكال على العقل أو الاجتهاد الشخصي إلا بعد استكمال أسباب الأهلية[١] ، ثم الاستعانة بما كتب قديماً وحديثاً حول الموضوع المراد دراسته .

---

(١) انظر ما كتبه كل من : الدكتور مصطفى مسلم في كتابه « مباحث في التفسير الموضوعي » ؛ والدكتور عبد الستار فتح الله في كتابه « المدخل إلى التفسير الموضوعي » ؛ والدكتور صلاح الخالدي في كتابه « التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق » .

تاسعاً : فوائد التفسير الموضوعي :

١ ـ أنه تفسير للقرآن بالقرآن ، فما أطلق في مكان منه قيد في مكان آخر وما ذكر موجزاً في موطن منه ذكر مفصلاً في آخر .

٢ ـ الوقوف علىٰ عظمة القرآن الكريم من خلال مواضيعه المتنوعة ، والتعرف علىٰ تشريعاته النيرة والمتعددة .

٣ ـ بيان ما تضمنه القرآن الكريم من أنواع الهداية الربانية من خلال تلك المواضيع المتنوعة .

٤ ـ التخلق بأخلاق القرآن ، والانتفاع به من حيث زيادة الإيمان .

٥ ـ التمكن من فهم القرآن الكريم فهماً جيداً .

٦ ـ الاطلاع علىٰ أساليب القرآن الكريم المتنوعة .

٧ ـ جمع الآيات المتناثرة في القرآن ذات الموضوع ، والهدف الواحد في مكان واحد ، ثم دراستها دراسة متكاملة .

٨ ـ الرد علىٰ أهل الأهواء والشُّبه قديماً وحديثاً لكون دراسة مثل هٰذا النوع من التفسير يجمع شتات الموضوع الواحد ، ويحيط بجميع أطرافه ، فيمكن دراسته والرد علىٰ الآخرين .

٩ ـ إزالة ما يوهم التعارض بين آيات القرآن الكريم ، وتوجيه ذٰلك توجيهاً سليماً .



الباب الأول

الحمد معناه وأقسامه ومرادفاته والعلاقة بينه وبين الشكر

الفصل الأول : تعريف الحمد .

الفصل الثاني : أقسام الحمد .

الفصل الثالث : مرادفات الحمد ومقابلاته في القرآن والسنة .

الفصل الرابع : العلاقة بين الحمد والشكر .





سيكون الحديث في هٰذا الباب حول الحمد من الناحية اللغوية والاصطلاحية ، وذٰلك من تعريفه ، ثم ذكر أقسامه ، ثم ما يقابله ويرادفه من كلمات ، وعلاقته بأهم مرادف له وهو الشكر ، وقد جاءت فصول هٰذا الباب علىٰ النحو التالي :

أولاً : تعريف الحمد :

وقد قمت بعرض عدة تعاريف للحمد ممن عرف الحمد قديماً وحديثاً ، ثم انتقيت منها ما رأيت أنه مناسب له ، وقد كان ذٰلك خلاصة كلام السابقين واللاحقين ليظهر التعريف كافياً شافياً ، إن شاء ٱلله تعالىٰ .

ثانياً : أقسام الحمد :

وفيه ذكرت أن للحمد أقساماً كثيرة بحسب حال الحامد أو الحالة ؛ التي يكون عليها الحمد ، وذكرت لكل قسم تعريفاً مختصراً .

ثالثاً : مرادفات الحمد ومقابلاته في القرآن والسنة :

وأعني بالمرادفات كل كلمة تعطي معنىٰ الحمد أو قريباً منه ، أما المقابلات فهي ما يضاد الحمد من كلمات في المعنىٰ ، ثم قمت بذكر تعريف مختصر لكل كلمة .

رابعاً : العلاقة بين الحمد والشكر :

وقد انتقيت من مرادفات الحمد أقرب الكلمات له في المعنىٰ ، وهي الشكر ، ثم قمت بدراسة للعلاقة بينهما من ناحية هل هما بنفس المعنىٰ أم أن كلاً له دلالة يعنيها ويخصها ، فذكرت الخلاف الذي دار بين العلماء في ذٰلك ، ثم توصلت إلىٰ أن بينهما عموماً وخصوصاً ـ كما ذكر ذٰلك بعض العلماء ـ[1] والله أعلم .

✍ ✍ ✍

---

(١) انظر : « العقود الدرية » لابن قدامة المقدسي (١/ ١٢٣) .





الفصل الأول
تعريف الحمد

الحمد لغة : « ضد الذم ، وبابه فهِم ، ومَحْمَدةٌ بوزن مترِبة فهو حَمِيدٌ ومَحْمودٌ ، والتَّحْمِيدُ أبلغ من الحمد »[١] .

والتحميد : حمدك ٱلله مرة بعد مرة . وهو كثرة حمد ٱلله بالمحامد الحسنة .

وقد وجدت أن تعريفات السابقين واللاحقين يكاد يجمعها معنىً واحد ، نستخلص التعريف التالي : الحمد في الاصطلاح : هو الثناء علىٰ المنعم بجميل صفاته مع حبه ، وتعظيمه ، وإجلاله .

وقد كان لبعضهم زيادات في التعريف يجدر بنا أن نذكر بعضها ، فمن ذٰلك :

ما جاء عن ابن عباس ـ رضي ٱلله عنه ـ في تعريفه للحمد ، حيث قال هو : « الشكر والاستخذاء لله ، ومعنىٰ الاستخذاء هو الخضوع والانقياد لله »[٢] .

وما ذكره الإمام الطبري ، والذي يكاد يكون تعريفاً شاملاً ، حيث قال : « الحمد لله : الشكر خالصاً لله جل ثناؤه دون سائر ما يعبد من دونه ودون كل

---

(١) « مختار الصحاح » لمحمد بن أبي بكر الرازي (١ / ٦٤) .

(٢) انظر : « تفسير الطبري » (١/ ٦٠) .

ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم ؛ التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره »[١] .

وزاد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قوله : « ذكر صفات المحمود مع حبه ، وتعظيمه ، وإجلاله »[٢] .

وقيل الألف واللام في الحمد استغراق لجميع أجناس الحمد وصنوفه لله ـ تبارك وتعالى ـ .

وثنوا بالحمد بعد البسملة : لحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ فيما رواه ابن حبان في صحيحه : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله ، فهو أقطع »[٣] و« أقطع » : ناقص البركة .

---

(١) المرجع السابق (١ / ٥٩) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٥) .

(٣) صحيح ابن حبان ، باب : ما جاء في الابتداء بحمد الله تعالى (١ / ١٧٤) ؛ والنسائي في الكبرى باب : ما يستحب من الكلام عند الحاجة (٦ / ١٢٧) ؛ وابن ماجه باب : خطبة النكاح (١ / ٦١٠) ؛ والبيهقي في الكبرى باب : ما يستدل به على وجوب التحميد في خطبة الجمعة (٣ / ٢٠٨) ؛ والدارقطني كتاب الصلاة (١ / ٢٢٩) ، جميعهم عن أبي هريرة .





الفصل الثاني
أقسام الحمد

قسم الإمام ابن تيمية رحمه الله الحمد إلىٰ قسمين ، هما [1] :

الأول : حمدٌ علىٰ إحسانه إلىٰ عباده ، وهو الشكر .

الثاني : حمدٌ لما يستحقه هو بنفسه من نعوت الشكر .

وقسم الجرجاني رحمه الله وتبعه في ذٰلك المناوي رحمه الله الحمد إلىٰ الأقسام التالية [2] :

١ ـ **الحمد الحالي :** هو الذي يكون بحسب الروح والقلب كالاتصاف بالكمالات العلمية والعملية ، والتخلق بالأخلاق الإلٰهية .

٢ ـ **الحمد العرفي :** فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعماً أعم من أن يكون فعل اللسان أو الأركان .

وقيل : **الحمد العرفي** : فعل يشعر بتعظيم المنعم بكونه منعماً ، هبه فعل اللسان أو الأركان .

٣ ـ **الحمد الفعلي :** هو الإتيان بالأعمال البدنية ابتغاء لوجه ٱلله تعالىٰ .

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٥ / ٤٩) .

(٢) انظر : كتاب « التعريفات للجرجاني » (١ / ١٢٥) ، وكتاب « التعاريف » لمحمد عبد الرؤوف المناوي (١ / ٢٩٥) .

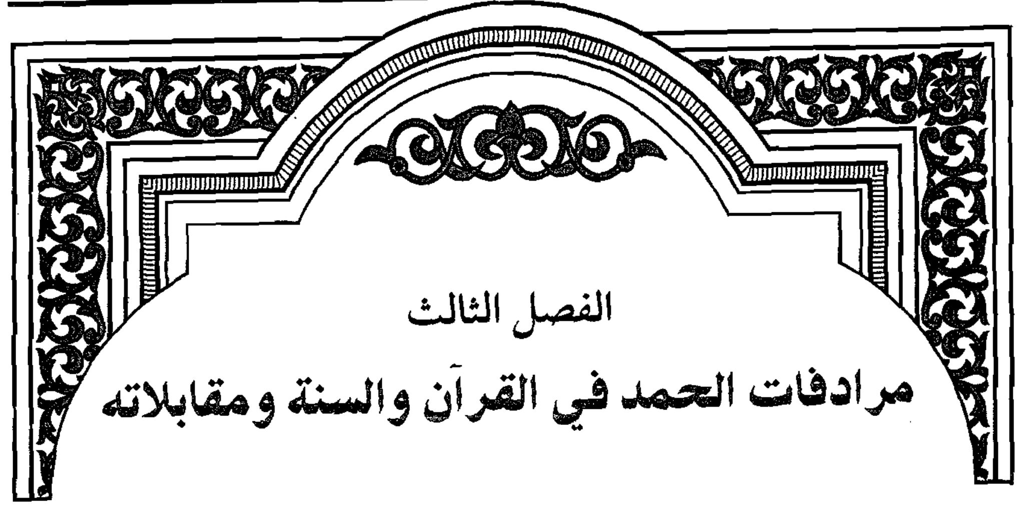
٤ ـ **الحمد القولي** : حمد اللسان وثناؤه على الحق بما أثنى به على نفسه على لسان أنبيائه .

٥ ـ **الحمد اللغوي** : هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل باللسان وحده .

وقيل : **الحمد اللغوي** : الوصف بفضيلة على فضيلة على جهة التعظيم باللسان فقط .

✍ ✍ ✍





الفصل الثالث
مرادفات الحمد في القرآن والسنة ومقابلاته

أولاً : مرادفات الحمد : للحمد مرادفات تعني بالكلية معنىٰ الحمد أو بعض دلالاته ، وهي علىٰ النحو التالي :

١ - الشكر : هو الثناء علىٰ المحسن بذكر إحسانه ، فالعبد يشكر ٱلله ، أي : يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو نعمته ، وٱلله يشكر العبد ، أي : يثني عليه بقبوله إحسانه الذي هو طاعته[١] .

وللشكر أقسام :

الأول : الشكر بالجوارح ، وهو العمل بطاعة ٱلله وترك معاصيه .

الثاني : الشكر بالقلب هو معرفة مقدار النعمة والعلم بأنها من ٱلله وحده والعلم بأنها تفضل لا باستحقاق العبد . وأقسام النعم كثيرة لا يحصيها إلا ٱلله ، فمنها الظاهرة والباطنة والعاجلة والآجلة ، وحسبنا أن نشير إلىٰ ثلاث أنواع منها [٢] :

الأولىٰ : نعم دنيوية ، كالعافية والمال .

الثانية : نعم دينية ، كالعلم والتقوىٰ والعمل الصالح .

---

(١) التعريفات للجرجاني (١ / ١٦٨) .

(٢) انظر : تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١ / ٣٢ - ٣٣) .

الثالثة : نعم أخروية ، كالجزاء بالثواب الكثير علىٰ العمل القليل في العمر القصير .

والناس في الشكر علىٰ ثلاث درجات[(١)] :

الدرجة الأولىٰ : من يشكر علىٰ النعم الواصلة إليه فقط ، وهٰذه درجة العوام ، وكثير ما هم .

الدرجة الثانية : من يشكر علىٰ النعم والنقم وعلىٰ كل حال ، وهٰذه درجة الخاصة .

الدرجة الثالثة : من يعترف بوجود المنعم عليه كأنه يراه دون النظر إلىٰ النعمة ، وكأنه قد نسي النعم من تفكره في مسديها ، وهٰذه درجة خاصة الخاصة ، وقليل ما هم .

ونستنتج من ذٰلك أن الناس عامة في الشكر علىٰ مقامين :

المقام الأول : من يشكر علىٰ النعم الواصلة إليه فقط دون غيره .

المقام الثاني : من يشكر علىٰ النعم الواصلة إليه ، وإلىٰ جميع الخلق ، مع فرحه بوصول النعمة إليه وإلىٰ غيره من الخلق .

٢ ـ **الثناء** : الثناء للشيء : فعل ما يشعر بتعظيمه[(٢)] ، والحامد يثني علىٰ ٱلله ـ عز وجل ـ ليدل علىٰ حبه ، وتعظيمه له .

٣ ـ **الحب** : هو انجذاب النفس إلىٰ الشيء الذي ترغب فيه[(٣)] ، ومن أحب ٱلله اعترف له بالفضل والجود ؛ لأنه صاحب ذٰلك .

---

(١) انظر : « إحياء علوم الدين » للغزالي (٤ / ٨٢) ؛ « مدارج السالكين » لابن القيم (١ / ١٣٧) .

(٢) « التعريفات » للجرجاني (١ / ٩٩) .

(٣) المرجع السابق (١ / ١٣٨) .

٤ ـ **الاعتراف بالنعمة** : هو الإقرار ، وهو الإخبار علىٰ طريق الإيجاب (بنعم)[١] ، والمعترف مقر بنعم ٱلله عليه ، وذٰلك بالإخبار عنها بالحمد .

٥ ـ **الذكر** : بالكسر : الحفظ للشيء كالتذكار ، والشيء يجري علىٰ اللسان والصيت كالذُّكرة بالضم والثناء والشرف والصلاة لله تعالىٰ والدعاء[٢] . والذاكر دائم الثناء علىٰ ربه بالحمد .

٦ ـ **الرضا** : هي القناعة ، والقنوع بالضم التذلل والرضا بالقسم ، ورجل قانع راض[٣] .

٧ ـ **التسليم** : هو الانقياد لأمر ٱلله تعالىٰ وترك الاعتراض فيما لا يلائم ، واستقبال القضاء بالرضا ، وقيل : التسليم هو الثبوت عند نزول البلاء من تغير في الظاهر والباطن .

٨ ـ **المدح** : هو الثناء باللسان علىٰ الصفات الجميلة خلقية كانت أو اختيارية ، فهو أعم من الحمد[٤] ، وهناك فرق بين الحمد والمدح يستحسن ذكره ، وهو أن الحمد يكون مع المحبة والتعظيم ، بيد أن المدح قد لا يكون معه محبة أو تعظيم .

يقول ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الوصف بالكمال دون محبة ولا تعظيم لا يسمىٰ حمداً ، وإنما يسمىٰ مدحاً ، ولهٰذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح ، لـٰكنه يريد أن ينال منه شيئاً »[٥] .

---

(١) « التبيان في تفسير غريب القرآن » لشهاب الدين المصري (١ / ٩٧) .

(٢) « القاموس المحيط » للفيروزآبادي (١ / ٥٠٧) .

(٣) المرجع السابق (١ / ٩٧٧) .

(٤) « التعاريف » لمحمد عبد الرؤوف المناوي (١ / ٦٤٥) .

(٥) « تفسير القرآن الكريم » لابن عثيمين (١ / ٩) .

ثانياً : مقابلات الحمد :

وللحمد مقابلات من الألفاظ تضاده كلياً أو نسبياً ، وهي على النحو التالي :

١ ـ **الكفر** : وهو في اللغة بمعنى التغطية[١] ، ومن هذا المعنى يتبين لنا أن الكافر قد غطى النعم التي منَّ ٱلله بها عليه وجحدها دون أن يظهرها بالحمد ، ويعترف بالمنعم عليه . قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود : ٩] .

٢ ـ **الكنود** : وردت هذه اللفظة في سورة العاديات عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات : ٦] ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : لكنود : لكفور جحود لنعم ٱلله تعالى[٢] .

٣ ـ **الجحود** : الجُحُودُ : الإنكار مع العلم ، يقال : جَحَدَهُ حقه ، وجحده بحقه[٣] . قال تعالى : ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل : ٧١] .

٤ ـ **التنكر** : هو التغير من حال تسرك إلى حال تكرهها[٤] ، وهذا ما يلاحظ فيمن أنكر نعم ٱلله عليه ، حيث بدل حال الحمد والاعتراف للمنعم بالتنكر والجحود .

٥ ـ **الإهمال** : التخلية بين الشيء وبين نفسه ، وكذلك تارك الحمد خلى بينه وبين المنعم عليه .

٦ ـ **التمرد** : المارد من الرجال العاتي الشديد ، وأصله من مردة الجن

---

(١) انظر : مختار الصحاح (١ / ٢٣٩) .

(٢) تفسير البغوي (٤ / ٥١٨) .

(٣) « مختار الصحاح » (١ / ٤٠) .

(٤) « لسان العرب » لابن منظور (٥ / ٢٣٤) .

والشياطين[١] ، والمتمرد على ٱلله هو الجاحد لفضله وجوده .

٧ ـ **البطر** : هو الطغيان في النعمة ، وقيل : هو أن يتكبر عن الحق ولا يقبله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] .

٨ ـ **الاعتراض** : هو التسخط من قضاء ٱلله وقدره ، وعدم الثبوت عند نزول البلاء .

٩ ـ **الذم** : وهو نقيض المدح[٢] ، ومنه : ذممه ؛ إذا لم يرض منه الفعل .

---

(١) المرجع السابق (١٢ / ٢٢٠) .

(٢) « لسان العرب » (٢ / ٥٨٩) .



الفصل الرابع
العلاقة بين الحمد والشكر

من الأمور التي حصل الخلاف عليها بين العلماء ؛ مسألة العلاقة بين الحمد والشكر ، حيث كان كل منهم يناقض الآخر في ذٰلك ، ومن خلال ما تيسر لي من الاطلاع في كتب أهل العلم قديماً وحديثاً ؛ وجدت أن بعضهم يرىٰ أن الحمد والشكر بمعنىً واحد ، والبعض الآخر يرىٰ أن لكل منهما معنىً قائماً بذاته ، ولنستعرض بعض ما قاله العلماء في هٰذه المسألة :

أولاً : قول من يرىٰ أن الحمد بمعنىٰ الشكر :

ومن الأئمة الذين يرون أن الحمد بمعنىٰ الشكر الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال في تعريفه للحمد : « الحمد لله : الشكر خالصاً لله جل ثناؤه دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم علىٰ عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد في تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش من غير استحقاق منهم لذٰلك عليه ومع ما نبههم عليه ، ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلىٰ دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربنا الحمد علىٰ ذٰلك كله أولاً وآخراً »[١] .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١ / ٤٦) .

وقد استشهد علىٰ قوله بعدد من الأدلة ، وهي :

قول ابن عباس ـ رضي ٱلله عنه ـ : « الحمد لله هو الشكر والاستخذاء لله والإقرار بنعمته وهدايته وابتدائه ، وغير ذٰلك » .

وقال : لا تمانع بين أهل المعرفة بلغات العرب من الحكم لقول القائل : الحمد لله شكراً بالصحة .

وقال أيضاً : « إن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلاً من الحمد والشكر مكان الآخر »[١] .

وقد نقل هٰذا المذهب عن جعفر الصادق وابن عطاء وابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ حيث قال ابن عباس : الحمد لله كلمة كل شاكر[٢] .

واستدل القرطبي بقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ صحة قول القائل : الحمد لله شكراً[٣] .

وذكر التقارب بينهما ابن منظور في كتابه (لسان العرب) ، حيث قال : « الحمد والشكر متقاربان ، والحمد أَعمهما لأَنك تحمد الإنسان علىٰ صفاته الذاتية ، وعلىٰ عطائه ، ولا تشكره علىٰ صفاته ، كما أَن كلمة الإخلاص رأْس الإيمان ، وإنما كان الحمد رأْس الشكر ؛ لأَن فيه إظهار النعمة والإشادة بها ، ولأَنه أَعم منه ، فهو شكر وزيادة »[٤] .

ومن الأدلة علىٰ أن الحمد والشكر بمعنىً واحد ، ما ورد من أسماء لسورة الفاتحة ، حيث قال عنها أبو السعود في تفسيره هي : « الكافية

---

(١) المرجع السابق (١ / ٤٦) .

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٢٣) .

(٣) تفسير القرطبي (١ / ١٣٣) .

(٤) لسان العرب (٣ / ١٥٦) .

والوافية ، وتسمىٰ سورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسألة لاشتمالها عليها ، وسورة الصلاة لوجوب قراءتها فيها ، وسورة الشفاء والشافية لقوله ﷺ : « هي شفاء من كل داء والسبع المثاني »(١) .

وقال القاضي عياض : « الشكر والحمد بمعنىً واحد ، لٰكن الحمد أعم ، فكل حامد شاكر ، وليس كل شاكر حامداً »(٢) .

ثانياً : قول من يرىٰ أن لكل من الحمد والشكر معنىٰ مستقلاً عن الآخر :

ومن العلماء من يرىٰ أن الحمد يختلف عن الشكر ، وذٰلك بحسب حال الشخص نفسه ، وحال من يستحق ذٰلك ، فقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قوله : « إن الحمد يتضمن المدح والثناء علىٰ المحمود بذكر محاسنه ، سواء كان الإحسان إلىٰ الحامد أو لم يكن . وقال : إن الشكر لا يكون إلا علىٰ المحاسن والإحسان ، فإن ٱلله تعالىٰ يحمد علىٰ ما له من الأسماء الحسنىٰ ، والمثل الأعلىٰ ، وما خلقه في الآخرة والأولىٰ »(٣) .

ولهٰذا قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] ، وقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [سبأ : ١] ، وقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر : ١] . فالشكر لا يكون إلا علىٰ الإنعام ، فهو أخص من الحمد من هٰذا الوجه ؛ لٰكنه يكون بالقلب واليد واللسان ، كما قيل :

---

(١) تفسير أبي السعود (١ / ٨) .

(٢) مشارق الأنوار للقاضي عياض (٢ / ٢٥٢) .

(٣) تفسير آيات من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عبد الوهاب (١ / ١٠) .

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ، ولساني ، والضمير المحجبا [١]

ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ : ١٣] . والحمد إنما يكون بالقلب واللسان ، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه ، والحمد أعم من جهة أسبابه ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن ٱلله ليرضىٰ عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها » [٢] . وقال بعض العلماء : « إن الشكر أعم من الحمد ؛ لأنه باللسان وبالجوارح والقلب ، والحمد إنما يكون باللسان خاصة ، وقيل : الحمد أعم لأن فيه معنىٰ الشكر ومعنىٰ المدح ، وهو أعم من الشكر ؛ لأن الحمد يوضع موضع الشكر ، ولا يوضع الشكر موضع الحمد »[٣] .

ومن الأدلة[٤] كذلك : أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال حين عطس : الحمد لله ، وقال ٱلله لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٨] ، وقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] ، وقال في قصة داود وسليمان : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] ، وقال لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء : ١١١] ، وقال أهل الجنة : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٤] ، وقال ٱلله تعالىٰ عن أهل الجنَّة : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري (١ / ٥٢) .

(٢) صحيح مسلم ، باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب (٢٧٣٤) برقم (٢٧٣٤) .

(٣) تفسير الثعالبي (١ / ١٠٨) .

(٤) انظر تفسير القرطبي (١ / ١٣٤) ؛ والسمرقندي (١ / ٤٠) .

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الصحيح أن الحمد ثناء علىٰ الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء علىٰ المشكور بما أولىٰ من الإحسان ، وعلىٰ هٰذا الحد قيل : الحمد أعم من الشكر ؛ لأن الحمد يقع علىٰ الثناء وعلىٰ التحميد وعلىٰ الشكر ، والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفاً ، فصار الحمد أعم ؛ لأنه يزيد علىٰ الشكر »[(١)] .

ومن الذين فرقوا بين الحمد والشكر الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال : « الحمد يعم إذا ما وصل ذٰلك الإنعام إليك أو إلىٰ غيرك ، والشكر مختص بالإنعام الواصل إليك دون غيرك »[(٢)] .

لذٰلك كان الحمد لله أولىٰ من الشكر ، لأن الحمد لله ثناء عليه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بسبب كل إنعام صدر منه ، ووصل إلىٰ المنعَم عليه وعلىٰ غيره ، وأما الشكر فهو ثناء بسبب إنعام وصل إلىٰ المنعَم عليه دون غيره .

وقيل في الفرق بينهما : أن الحمد علىٰ ما دفع ٱلله من البلاء ، والشكر علىٰ ما أعطىٰ من النعم ، فيكون الحمد للنعماء والضراء ، والشكر لا يكون إلا علىٰ السراء والنعماء[(٣)] .

والذي يظهر لي ـ وٱلله أعلم ـ وجاهة القول بالفرق بينهما ، وذٰلك لما توصلت إليه من خلال استعراضي لجميع آيات الحمد وآيات الشكر في القرآن ، وهو أن ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ لم يأت بالحمد بصيغة الأمر مطلقاً كغيره من الأوامر في القرآن ، فلم يقل : (احمدوه أو احمدني) مباشرة ، وإنما يأتي مسبوقاً بالقولية كقوله : (فقل الحمد لله) أو مسبوقاً بالتسبيح كقوله :

---

(١) تفسير القرطبي (١ / ١٣٤) .

(٢) التفسير الكبير للرازي (١ / ٢١٩) .

(٣) انظر التفسير الكبير للرازي (١ / ١٧٩) .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، وجاء به مسبوقاً بالألف واللام الدالة على الاستغراق ، لكنه أتى بآيات عدة يأمر فيها بالشكر ، فلو كانا بمعنى واحد لما أمر بالشكر ، بل جعله كالحمد مسبوقاً بالألف واللام الدالة على الاستغراق ، والعلم عند ٱلله تعالى .

فمن الآيات التي ورد فيها الأمر بالشكر قوله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] وهٰذا أمر منه سبحانه وتعالى عام لجميع الناس بأن يذكروه ويشكروه .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : ١٢] على أن الأمر في هٰذه الآية خاص بلقمان الحكيم ، وهو أن يشكر ٱلله على ما تفضل به من نعمة الحكمة التي يتمناها كثير من الناس ، فقد ذكر ٱلله عنها أنها الخير الكثير لمن أُعطيها ، والذي يظهر للمتأمل في هٰذه الآية وغيرها أن الأمر بالشكر يأتي خاصاً لعبد من العباد ، بيد أن الحمد لا يأتي مخصوصاً لأحد ، ولٰكنه يأتي عاماً ودون أمر كما مر ذكره ، فعندما جاء بالشكر عاماً وخاصاً ، ومطلقاً في الذكر ، ومأموراً به دل على الفرق بينهما .

وفي مواضع أخر أمر ٱلله ـ تبارك وتعالى ـ بأن يشكر ويشكر معه غيره في قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : ١٤] فأمر بشكر الوالدين مع شكره ، غير أنه لم يأمر بحمده مباشرة ، أو حمد أحد من خلقه ؛ ليعلم من ذٰلك أن الحمد مغايرٌ للشكر .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٧] جاء الأمر بالشكر عقب الأمر بالعبادة ، والتي

من أجلها خلق الثقلان ، فدل علىٰ أن إيجادهما كان تفضلاً من ٱلله ، وجعلهما عبيداً له كذٰلك نعمة أخرىٰ ، وكما سبق في أن الشكر يكون بعد النعمة ويأمر به ، فقد جاء في هٰذه الآيات مأموراً به لأنه بعد تفضل منه ، لٰكن الحمد لم يأت بصيغة الأمر ؛ لأن ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ محمود قبل حمد الحامدين ، وسواء حمدوا أم لم يحمدوا فله الحمد كله ، وهٰذا مما يقوي القول بالفرق بين الحمد والشكر ، والآيات في ذٰلك كثيرة ، آثرت أن أذكر مثالاً واحداً لكل معنىً خشية الإطالة .

ومن هٰذه الآية نستخلص بعض النكات التي ذِكرها من الأهمية بمكان ، وهي :

أولاً : لم خص الرزق بالذكر دون غيره ؟ وأجاب عن ذٰلك أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله : « وخص الرزق لمكانته من الخلق ، ثم أمرهم بابتغاء الرزق ممن هو يملكه ويؤتيه . . . »[(١)] .

ثانياً : ما الحكمة من الإتيان بكلمة الرزق تارة نكرة وتارة معرفة ؟ وقد أجاب علىٰ ذٰلك ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره ، حيث قال : « الجواب أنه نكرة في قوله ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ لقصد العموم في النفي ، فإن النكرة في سياق النفي تقتضي العموم ، ثم عرفه بعد ذٰلك لقصد العموم في طلب الرزق كله من ٱلله ، لأنه لا يقتضي العموم في سياق الإثبات إلا مع التعريف ، فكأنه قال : ابتغوا الرزق كله عند ٱلله »[(٢)] .

ثالثاً : لماذا قال : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ ولا خالق إلا ٱلله ؟ وأجاب علىٰ ذٰلك السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره حيث قال : « والجواب عنه أن الخلق بمعنىٰ التقدير ، وتخلقون إفكاً ، أي : تنحتون الأصنام بأيديكم

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٧ / ١٤٦) .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٣ / ١١٤ ـ ١١٥) .

وتعبدونها . . . . »[١] ، والرأي الآخر هو أن الإفك بمعنىٰ الكذب ، فتخلقون إفكاً ، أي : تقولون كذباً ، قال تعالىٰ : ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [صٓ : ٧] .

ومن الأدلة علىٰ الفرق بينهما : ما يقوله كثير من الناس عامةً والعلماء خاصةً عندما يتفضل ٱلله عليهم بنعمة ، أو يزيل عنهم كربة ، (فلله الحمد والشكر . . . .) وهٰذه العبارة تقتضي أن بينهما فرقاً ، لأنهما لو كانا بمعنىٰ واحد لكان معنىٰ كلام أحدهم في ذٰلك هو : (فلله الحمد والحمد . .) وهٰذا لا يقبل أبداً ، فكيف يمكن أن تعطف كلمة بنفس المعنىٰ علىٰ مثلها ، وهٰذا غير لائق أبداً في لغة العرب .

وذهب فريق آخر من العلماء إلىٰ أن بين الحمد والشكر عموماً وخصوصاً ، قال الإمام ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الحمد أعم من جهة أسبابه التي يقع عليها ؛ فإنه يكون علىٰ جميع الصفات ، والشكر لا يكون إلا علىٰ الإحسان . والشكر أعم من جهة ما به يقع ، فإنه يكون بالاعتقاد والقول والفعل . والحمد يكون بالفعل أو بالقول أو بالاعتقاد »[٢] .

وقيل : إن الحمد والشكر متعلقان بالمحمود عليه والمشكور عليه كذٰلك ، فلا يتم ذكر حقيقتهما إلا بذكر متعلقهما ، لذٰلك من لم يفهم صفات المولىٰ ـ عز وجل ـ لم يفهم الحمد ، ومن لم يفهم الإحسان لم يفهم الشكر .

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه لأنه يكون علىٰ الصفات اللازمة والمتعدية ، تقول : حمدته لفروسيته ، وحمدته لكرمه ، وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول ، والشكر أعم من حيث

---

(١) تفسير السمعاني أبي مظفر منصور السمعاني (٤ / ١٧٣) .

(٢) العقود الدرية لابن قدامة المقدسي (١ / ١٢٣) .

ما يقعان عليه لأنه يكون بالقول والفعل والنية . . . »[١] .

والذي يظهر لي ومن خلال ما استعرضته من آيات القرآن الكريم ، ومن كلام أهل العلم حول علاقة الحمد بالشكر ، هو أنهما تنطبق عليهما قاعدة : إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا ، فحين يذكر الحمد مفرداً فإنه يعني في نفس الوقت معنىٰ الشكر ، والعكس صحيح ، لـٰكن إذا اجتمع الحمد والشكر أصبح لكل واحد منهما معنىً يخالف الآخر ، فيكون الحمد ـ حال اجتماعهما ـ هو الثناء علىٰ ٱلله دون سابق إحسان ، ويكون الشكر عند ذٰلك هو الثناء علىٰ ٱلله بما أولىٰ به من إحسان .

✍ ✍ ✍

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٢٤) .



الباب الثاني

حمد الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لذاته

الفصل الأول : حمده المطلق لذاته دون تخصيص .

الفصل الثاني : حمده لنفسه المتصفة بالربوبية الواهبة لجميع النعم .

الفصل الثالث : حمده لنفسه المتصفة بالألوهية المستحقة للعبادة دون سواه .

الفصل الرابع : وصف الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ نفسه بصفة الحميد .





سيكون الحديث في هٰذا الباب حول حمد الخالق ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لنفسه ، فقد وردت آيات كثيرة في كتاب ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ يحمد فيها نفسه ، وقد جاء الحمد في هٰذه الآيات ـ حسبما تبين للباحث ـ منقسماً إلىٰ أربعة أقسام ، وهي التي عليها مدار هٰذا الباب ، فجاءت فصوله حسب هٰذا التقسيم ، وهي :

أولاً : حمده المطلق لذاته دون تخصيص :

وفيه سأستعرض الآيات التي جاء فيها ذكر الحمد مطلقاً ، حيث وردت كلمة « الحمد » بلفظ الاستغراق لله دون أن يكون مخصصاً ، وسأستعرض في ذٰلك أقوال علماء التفسير والحديث المتصلة بالموضوع ، وما أتوصل إليه ـ بإذن ٱلله ـ من استنباطات وملاحظات ، وفي ذٰلك دليل علىٰ أن كتاب ربنا لا يفنىٰ ولا يخلق مع تجدد السنين ، فمهما كتب الكاتبون ، واستنبط العارفون ، فلن يصلوا إلىٰ الإلمام بمنتهاه ، ولو أمكن ذٰلك لكفانا السابقون من جهابذة العلماء ، لٰكننا نجد كل يوم جديداً ، ونسمع رأياً سديداً ، ونكتشف إعجازاً فريداً ، وكل ذٰلك فيه الدليل علىٰ أنه لا تنقضي عجائب كتاب ربنا ، ولو كان ذٰلك أيضاً لما ساغ لنا ترديد قراءته خاصةً « سورة الفاتحة » التي تقرأ في كل يوم علىٰ أقل تقدير سبع عشرة مرة ، ثم نلاحظ مع كثرة ذٰلك أنها تتجدد ، وأن بعض الآيات كأنما نسمعها لأول مرة .

ثانياً : حمده لنفسه المتصفة بالربوبية الواهبة لجميع النعم :

وسأستعرض في هٰذا الفصل الآيات التي تفضل ٱلله فيها علىٰ عباده بالنعم الجزيلة التي ليس لها عد ولا حصر ، ثم حمد نفسه علىٰ إنعامه هٰذا ، ولم ينتظر حمداً من أحد ، ثم لم يأمر أحداً من خلقه أن يحمده[1] ، وإن كان ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يحب الحمد والمدح ، فلا أحد أحب إليه المدح والثناء من ربنا سبحانه .

ثالثاً : حمده لنفسه المتصفة بالألوهية المستحقة للعبادة دون سواه :

وسأعرض في هٰذا الفصل بالحديث للآيات التي حمد ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ نفسه فيها علىٰ كونه الإلٰه المستحق للعبادة ، وأن ما سواه فهو باطل بما أبطله ٱلله من الأدلة والبراهين المثبتة ؛ بأن غيره لا يصلح أن يكون رباً يدعىٰ ويرجىٰ لجلب خير أو دفع ضر ، فٱلله وحده الذي بيده الضر والنفع ، فهو الإلٰه المستحق للعبادة ـ سبحانه وتعالىٰ ـ .

رابعاً : وصف ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ نفسه بصفة الحميد :

وفيه حصر جميع الآيات التي ختمت بصفة (الحميد) ، والتي تبلغ سبع عشرة آية ، وقد جاءت هٰذه الصفة مرتبطة بصفة أخرىٰ هي كالتالي :

أولاً : مع صفة « الغني » عشر آيات .

ثانياً : مع صفة « العزيز » ثلاث آيات .

ثالثاً : مع صفة « المجيد » آية واحدة ، وهٰذه الصفة هي الوحيدة التي

---

(١) أنه لم يأمر أحداً بفعل الحمد (احمده أو احمدني أو . . .) مثلما أمر بتسبيحه ، وتكبيره ، وشكره .

جاءت بعد صفة « الحميد » ، أما في كل الصفات الأخرىٰ فتأتي صفة « الحميد » خاتمة للآيات .

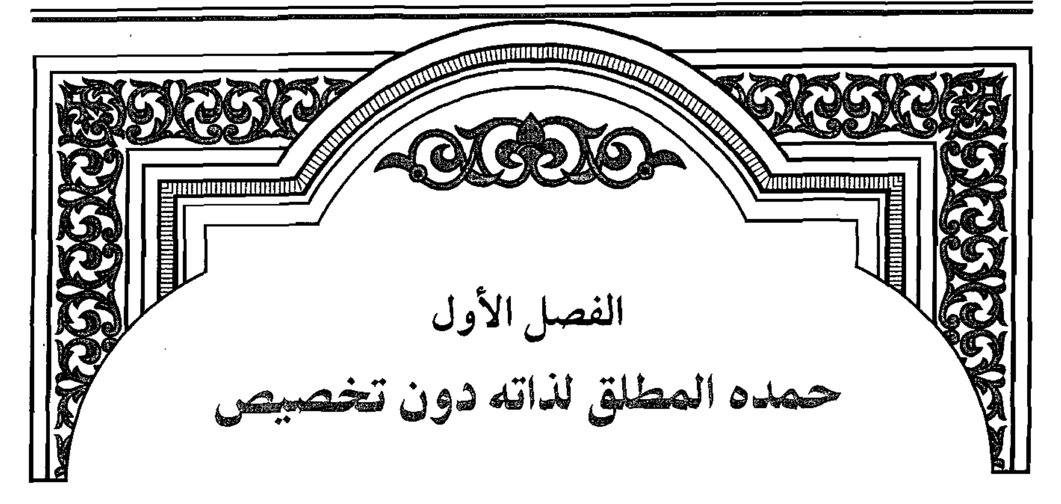
رابعاً : مع صفة « الحكيم » آية واحدة .

خامساً : مع صفة « الولي » آية واحدة .

سادساً : وجاءت مع ذكر (الصراط) في آية واحدة .

وسأقوم ـ بحول ٱلله وقوته ـ بدراسة كل آية علىٰ حدة ، وبيان الحكمة التي من أجلها جاءت هـٰذه الصفة ختاماً للآية ، ثم بيان السر في ارتباطها مع كل صفة مما ذكرته سابقاً ، ومرجعي في ذٰلك كلام العلماء الأجلاء في الموضوع ، وما يفتح ٱلله به من الفهم ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦] .





الفصل الأول
حمده المطلق لذاته دون تخصيص

حمد ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ نفسه حمداً مطلقاً دون تخصيص ، وذٰلك في مواطن متعددة من كتابه الكريم ، حيث افتتحه بالحمد ، وذٰلك عند قوله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] فعبارة « الحمد لله » مطلقة غير مقيدة بزمن معين ، ولا بفاعل معين ، فالحمد فيها مستمر غير منقطع ، جاء في تفسير الرازي : « أنه لو قال : « احمد ٱلله » أفاد ذٰلك كون القائل قادراً علىٰ حمده ، أما لما قال : « الحمد لله » فقد أفاد ذٰلك أنه كان محموداً قبل حمد الحامدين ، وقبل شكر الشاكرين ، فهٰؤلاء سواء حمدوا أم لم يحمدوا فهو تعالىٰ محمود من الأزل إلىٰ الأبد بحمده القديم وكلامه القديم ، ويعلم من ذٰلك أن ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ حي له الصفات الحسنىٰ ، والفعل الجميل ؛ لذٰلك حمد نفسه علىٰ صفاته وأفعاله وإنعامه علىٰ خلقه . . »[1] .

ويلحظ المتأمل : أن ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد بدأ الخلق بالحمد ، وختم القيامة بالحمد ـ حمداً مطلقاً دون تخصيص ـ حيث قال في أول سورة الأنعام : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] فهٰذا حمد منه سبحانه لنفسه عند بداية الخلق ، وقال : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١ / ١٧٩) .

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر : ٧٥] وهـٰذه عند نهاية الخلق ، فكان الحمد حقاً لربنا عند بداية الخلق وعند نهايته حمداً منه سبحانه .

قال قتادة : « فتح ٱلله أول الخلق بالحمد فقال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ، وختم القيامة بالحمد في هـٰذه الآية قال القاضي أبو محمد : « وجعل ٱلله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاتحة كتابه ، فبه يبدأ كل أمر وبه يختم ، وحمد ٱلله وتقديسه ينبغي أن يكون من المؤمن »[١] .

وعن هـٰذه الآية وهي قوله :﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال كعب الأحبار : « هـٰذه أول آية في التوراة ، وآخر آية في التوراة قوله تعالىٰ :

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء : ١١١] »[٢] .

ومن ذٰلك يعلم : أن بداية الخلق ونهايته قائم علىٰ حمد ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ وأن ٱلله قد حمد نفسه في الأزل ، وكان ذٰلك الحمد حقاً له واجباً علىٰ عباده ، قال الآلوسي رحمه الله : « وكون الحمد حقاً لله تعالىٰ واجباً علىٰ عباده مختصاً به ـ عز شأنه ـ مقصوراً عليه ـ سبحانه ـ حيث إن ترتيب الحكم كما قالوا علىٰ الوصف يشعر بمنطوقه بعلية الوصف للحكم ، وبمفهومه بانتفاء الحكم عمن ينتفي عنه الوصف . . . . »[٣] .

ثم إن عبارة « الحمد لله » قد افتتح ٱلله بها خمس سور من كتابه العزيز ، وبالتأمل في هـٰذه السور الخمس نجد أن مواضيعها تدور حول وحدانية ٱلله ـ عز وجل ـ ، وأن حمده فيها كان علىٰ كل ما خلق ودبر وملك في هـٰذه الحياة ، وهـٰذه السور هي :

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (٤ / ٥٤٤) .
(٢) انظر : تفسير البغوي (٢ / ٨٣) والآية من سورة الإسراء [١١١] .
(٣) روح المعاني للآلوسي (٧ / ٧٩) .

أولها : قوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة : ٢] وفي هٰذه الآية وصف ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ نفسه بالكمال المطلق ، فهو كامل في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، فقوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ استغراق لجميع أنواع المحامد له ـ تبارك وتعالىٰ ـ أي : أن كل حمد وثناء فٱلله موصوف به .

ونلاحظ أن ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قد بدأ كتابه بهٰذه اللفظة : وفي ذٰلك لفتة للناس أن الحمد هو بداية الأمر ، فكما أنه بدأ بذٰلك لنفسه ، فيجب علينا معشر الإنس : أن نبدأ كل أمر ذي بال بالحمد لله ، وكذٰلك ختم أمر العباد بالحمد ليرشدنا إلىٰ أن نختم جميع أمورنا ذات البال بالحمد ، فله الحمد والثناء والجلالة والعظمة أولاً وآخراً ، كذٰلك نلاحظ في هٰذه الآية الكريمة أن ٱلله أتىٰ بعد الحمد بقوله « رب العالمين » لبيان أن العالم هو كل ما سوىٰ ٱلله ـ عز وجل ـ يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدخل فيه كل موجود سوىٰ ٱلله تعالىٰ . . . . . . »[1] .

فمن ذٰلك يتبين لنا أن ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ قد حمد نفسه حمداً مطلقاً في عبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ المطلقة ، وما بعدها من قيود فهو خاص لذٰلك المقيد به وليس للحمد ، لأن الحمد لا يقيد ، بل الواجب فيه الإطلاق علىٰ كل حال كما أطلقه ٱلله لنفسه .

وثانيها : قوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام : ١] وهٰذه الآية هي مطلع ثاني السور القرآنية التي بدأها ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ بالحمد لنفسه ، وإن كانت قد قيدت بخلق السمٰوات والأرض والظلمات والنور ، لٰكنها في الأصل حمد مطلق لله حيث افتتح السورة بقوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ، وهٰذا يعني ـ كما أسلفنا ـ أن الحمد المطلق لله .

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١٢ / ١٤٥) .

والمتأمل في هٰذه الآية يظهر له أن ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ عندما أتىٰ بما بعد تحميده في هٰذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ كأنه جعل خلق هٰذه الأشياء منّةً منه يستحق أن يحمد نفسه علىٰ ذٰلك ، وجاءت في مطلع ثاني سورة بعد سورة الفاتحة ؛ لبيان أن هٰذه المخلوقات جزء من ذٰلك العالم الذي هو ربٌّ له .

جاء في تفسير الرازي قوله : « ﴿ ٱلْحَـمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ لا يدخل فيه إلا خلق السمـٰوات والأرض والظلمات والنور ، ولا يدخل فيه سائر الكائنات والمبدعات ، فكان التحميد المذكور في أول هٰذه السورة كأنه قسم من الأقسام الداخلة تحت التحميد المذكور في سورة الفاتحة ، وتفصيل لتلك الجملة . . . . . »[1] .

كما يظهر للمتأمل كمال قدرته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وذٰلك في خلق أكبر مخلوقين يراهما الإنسان وهما السمـٰوات والأرض ، فعندما يتفكر من وهبه ٱلله العقل الراجح والبصيرة النافذة في هٰذين المخلوقين العظيمين ، تتجلىٰ له عظمة خالقهما ، ثم بعد ذٰلك يتفكر في أمرين آخرين محسوسين ، وهما من أعظم الأمور المحسوسة ، بل أشملها فيما يراه الإنسان ، ألا وهما تقلب الليل والنهار ، أي : خلق الظلمات والنور ، أو الأمران المعنويان من الظلمات والنور ، وهما الإيمان والشرك .

ويتضح للمتأمل في هٰذه الآية سعة علم ٱلله وقدرته ، وانفراده بالخلق والتدبير ، وأنه المستحق للحمد المطلق الذي حمد به نفسه ، وأنه جعل ذٰلك دليلاً علىٰ أنه مصرف لهٰذا الكون بأكمله ، سواء في خلقه ، أو في تصرفه علىٰ مدىٰ الزمان .

وثالثها : قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ

---

(١) التفسير الكبير الرازي (١٢ / ١٤٥) .

عِوَجَاۜ﴾ [الكهف : ١] وهـٰذه هي السورة الثالثة التي بدأها ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بالحمد لنفسه حمداً عاماً دون تخصيص ، وكما أسلفنا أن كل تقييد بعد الحمد ليس مقيداً له ، بل هو خاص بالأمر المذكور ، فبداية هـٰذه السورة ، والتي تعتبر بداية النصف الثاني لمجمل القرآن الكريم ، كان الحمد لله ، وذٰلك تذكيراً للمتبصر بأن الحمد حق لله علىٰ كل حال وفي كل وقت ، وكي لا يغيب عن ذاكرته ذٰلك ، ثم بين لنا ربنا أنه لإنزاله هـٰذا الكتاب العزيز الذي ليس فيه عوج ، بل هو قيم ليهدي الناس ، ويبصرهم بأمور دينهم ودنياهم ، استحق عليه الحمد المطلق . قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره : « وقد رتب ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ استحقاق الحمد علىٰ إنزاله الكتاب تنبيهاً علىٰ أنه أعظم نعمائه ، وذٰلك لأنه الهادي إلىٰ ما فيه كمال العباد والداعي إلىٰ ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد . . . . »[١] .

وترشدنا هـٰذه الآية الكريمة إلىٰ عظم المستحق للحمد ، وهو ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وعظم الكتاب المنزل ، وهو القرآن الكريم ، وعظم المنزل عليه ، وهو النبي محمد ﷺ ؛ الذي وصفه ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بأعظم وصف وهو العبودية ، يقول الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره روح المعاني : « استحقاق الحمد في هـٰذه الآية الدال عليه اللام إيذان بعظم شأن التنزيل الجليل ، ألا وهو الهادي إلىٰ الكمال في جانبي العلم والعمل ، وفي التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد مضافاً إلىٰ ضميره تعالىٰ من الإشارة إلىٰ تعظيمه عليه الصلاة والسلام ، وكذا تعظيم المنزل عليه ما فيه ، وفيه أيضاً إشعار بأن شأن الرسول ﷺ أن يكون عبداً للمرسل ، لا كما زعمت النصارىٰ في حق عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ . . . . »[٢] .

والذي يتلخص من هـٰذه الآية الكريمة هي أن ٱلله ـ عز وجل ـ قد أثنىٰ

---

(١) تفسير البيضاوي (٣ / ٢٧٢) .

(٢) روح المعاني للآلوسي (١٥ / ٢٠٠) .

علىٰ نفسه بهـٰذا الحمد المتضمن معنىٰ كماله الداعي إلىٰ كل خير ، وإلىٰ طريق الاستقامة الذي لا عوج فيه ، فكان حقاً علىٰ من كانت هـٰذه صفاته أن يثني علىٰ نفسه بما هو أهل له .

ورابعها : قوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ : ١] وهـٰذا قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَـمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ، فكان حمد ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ لنفسه في هـٰذه الآية دليلاً علىٰ أنه مالك الملك ، فكل ما في السمـٰوات وما في الأرض ملك له وتحت حكمته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، والكل في هـٰذا العالم الفسيح علىٰ أرجاء السمـٰوات السبع أو فوق الأرض وداخلها عبيد له ، قد منَّ عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة ، وإيجادهم من العدم فيض من فيض نعمه الواصلة إليهم ، فهو ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ليس محتاجاً إليهم ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، ولذٰلك لم يأمرهم بحمده مباشرة حتىٰ لا يخطر ببال أحدهم أن حمده لله تفضل منه ، بل إنه قد حمد نفسه قبل أن يخلق الخلق ، وبين أن حمده لنفسه أنه المتفضل ، وليس حمد الحامدين ، أو ترك التاركين بنافعه أو ضاره شيئاً .

وهـٰذه الصفات التي اتصف ٱلله بها تستوجب الحمد له تعالىٰ لعلمه المحيط بكل شيء ، يقول ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قوله : « الألف واللام في الحمد لاستغراق الجنس ، أي : أن الحمد علىٰ تنوعه هو لله تعالىٰ من جميع جهات الفكرة ، ثم جاء بالصفات التي تستوجب المحامد وهي ملكه جميع ما في السمـٰوات والأرض وعلمه المحيط بكل شيء وخبرته بالأشياء ، إذ وجودها إنما هو به ـ جلت قدرته ـ ورحمته بأنواع خلقه وغفرانه لمن سبق في علمه أن يغفر له »[1] .

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤ / ٤٠٤) .

والحمد الأول في هـٰذه الآية يكون في الدنيا قبل يوم القيامة وذٰلك حمد علىٰ ملكه العام ، أما حمده الثاني الذي عند قوله : ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ فهو حمد أوليائه عند دخول الجنة ، ويصدق ذٰلك قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر : ٧٤] ، وقيل : هو قوله تعالىٰ : ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس : ١٠] .

يقول القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ : « ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ قيل : هو قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ وقيل : هو قوله : ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو المحمود في الآخرة ، كما أنه المحمود في الدنيا ، وهو المالك للآخرة ، كما أنه المالك للأولىٰ ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بأمر خلقه . . . . . . »[(١)] . وحمله الكلبي في تفسيره بأن الحمد في الأولىٰ والآخرة واحد ، لـٰكنه حمل الأول للعموم والاستغراق ، حيث يقول : « ويحتمل عندي أن يكون الحمد الأول للعموم والاستغراق ، فجَمَع الحمد في الدنيا والآخرة ، ثم جرد منه الحمد في الآخرة كقوله : ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ »[(٢)] . والذي يظهر هنا هو أن حمده في الدنيا هو الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة ، فهو محمود علىٰ جميع صفاته التي هي صفات كمال له ، وكذٰلك يحمد علىٰ أفعاله التي يتفضل بها . يقول السعدي : (فلله تعالىٰ الحمد ؛ لأن جميع صفاته يحمد عليها لكونها صفات كمال وأفعاله يحمد عليها ؛ لأنها دائرة بين الفضل الذي يحمد عليه ويشكر ، والحمد الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه ، وحمد نفسه هنا علىٰ أن ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً يتصرف فيهم بحمده . . . . .)[(٣)] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤ / ٢٥٩) .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٣ / ١٤٦) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (١ / ٨٠٨) .

وأما في الآخرة فيظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا ، فحكمه بين العباد ومجازاتهم علىٰ أعمالهم ، وعدله سبحانه وتعالىٰ لا يكون إلا في الآخرة ، فيحمد علىٰ ذٰلك ، حتىٰ إن أهل النار لا يدخلون النار إلا وقد اعترفوا بحمده ؛ لأنهم ما استحقوا دخول النار إلا بعدله ، فهو لا يظلم مثقال حبة ، ثم يحمده أهل الجنة بعد دخولهم الجنة ، فيكون بذٰلك ختاماً لحمده الذي بدأ نفسه به في الدنيا ، ثم انتهىٰ حمده كذٰلك في الآخرة .

فيتجلىٰ لنا من هٰذه الآية : أن ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ قد حمد نفسه الحمد المطلق قبل خلق الخلق ، وبعد خلقهم ، وعند مجازاتهم علىٰ أعمالهم ، حتىٰ إنه عرف أهل النار بحمده ، وإنه لم يظلم أحداً ، وملأ قلوب أهل الجنة بحمده حتىٰ صار ذٰلك كالنفس لهم ، وأحب إليهم من جميع ملذات الجنة ، فمشاهدة وجهه الكريم ، وسماع صوته لهو أجدر في استجلاب الحمد منهم .

وخامسها : قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر : ١] .

وهٰذا الحمد في هٰذه الآية الكريمة هو قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ هو الموجد لكل ما سواه ، وهو المربي لهم بنعمه المستحق للحمد من نفسه ومن غيره علىٰ أنَّه فطر هٰذه المخلوقات ، وجعل كلاً منها علىٰ هيئة معينة ، فهو الحكيم في فعله الخبير في خلقه .

وقد اختلف في معنىٰ ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يقول ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ : (كنت لا أدري ما ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ حتىٰ أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، قال : ابتدأتها)[1] ، وقيل : معناه مبدعهما من غير مثال يحتذيه ، ولا قانون

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٥٤٧) .

ينتحيه ، من الفطر ، وهو الشق ، وقيل : الشق طولاً ؛ كأنه شق العدم بإخراجهما منه .

وقيل : شقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ، وعلىٰ أي معنىً كان فٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ سابق علمه وحكمته في خلقه خاصةً ما ذكره في هـٰذه الآية ، وهي السمـٰوات والأرض ، والملائكة الذين جعلهم بهـٰذه الصورة العجيبة ـ مستوجب للحمد ، والثناء الجميل[1] .

يقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره : « ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للاستغراق ، أي : جميع المحامد ثابت لله ـ جل وعلا ـ ، وقد أثنىٰ ـ جل وعلا ـ علىٰ نفسه بهـٰذا الحمد العظيم معلماً خلقه في كتابه أن يثنوا عليه بذٰلك مقترناً بكونه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وذٰلك يدل علىٰ أن خلقه للسمـٰوات والأرض وما ذكر معه يدل علىٰ عظمته وكمال قدرته واستحقاقه للحمد لذاته لعظمته وجلاله وكمال قدرته ، مع ما في خلق السمـٰوات والأرض من النعم علىٰ بني آدم ، فهو بخلقهما مستحق للحمد لذاته ولإنعامه علىٰ الخلق بهما . . »[2] .

والذي يستخلص من هـٰذه الآية الكريمة هو أن ٱلله قد حمد نفسه حمداً يليق بعظمته وجلاله علىٰ ما أبدع في خلقه ، سواءً كان ذٰلك فيما يشاهد كالسمـٰوات والأرض ، أو فيما أخبر عنه ولم يشاهد كالملائكة الذين صورهم بهـٰذه الصورة العجيبة التي وصفها لنا .

وحمد ربنا لنفسه في مطالع هـٰذه السور ينقسم إلىٰ قسمين : حمد عاجل لما منَّ به علىٰ عباده في الدنيا ، وحمد آجل يكون في الآخرة علىٰ ما سيكون لهم من النعيم المقيم ، ومن عدله في قضائه بين العباد يوم الدين ، فحمده العاجل يتجلىٰ عند ذكره أنه رب العالمين ، أي : المربي لهم بنعمه ، ثم عند

---

(١) انظر البحر المحيط (٧ / ٢٤٨) .

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٦ / ٢٧٦) .

خلقه للسموات والأرض التي منها وفيها حياة الإنسان ، فإنزال الرزق ـ كما سماه في بعض الآيات ـ يكون من السماء ، وإخراجه يكون من الأرض التي هي مستقر حياتهم وفيها معاشهم ، ثم بعد هٰذا الفضل لم يتركهم هملاً يبطش بعضهم ببعض ويأكل القوي الضعيف ، وإنما أنزل إليهم كتاباً فيه ذكرهم وسعادتهم وتصريف أمورهم علىٰ أتم وجه ، حيث جعله كتاباً قيماً لا عوج فيه ، فمن قيوميته استقامة حياتهم ، وهٰذا القسم كان في مطلع سورة الفاتحة وسورة الأنعام وسورة الكهف والجزء الأول من آية سبأ وآية فاطر .

أما القسم الثاني ، والذي سيكون يوم القيامة ، فهو حمده في الآخرة ـ الذي جاء في الجزء الثاني من آية سورة « سبأ » ـ وتلقي الملائكة ـ الذين جاء وصفهم في الجزء الثاني من آية « فاطر » للناس يوم القيامة ، وما يظهر لهم من رحمته وعدله ؛ حتىٰ إنه ليقتص للشاة (الجلحاء) [1] من القرناء ، ويجازي كلاً بعمله ، فمن عمل خيراً فهو في خير ، ومن عمل غيراً فهو في غور ـ والعياذ بٱلله ـ .

وفي آية التغابن وهي قوله تعالىٰ : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن : ١] ، نجد أن ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قد حمد نفسه بعد أن بين أن كل من في السمٰوات والأرض يسبح له ، ثم بين أنه المتفرد بالملك ، والمتفرد بالحمد ، ويدل علىٰ ذٰلك هو أنه قدم الظرف علىٰ الملك وعلىٰ الحمد في قوله : ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ﴾ وتقديم الظرف يأتي للاختصاص ، يقول الزمخشري : (قدم الظرفان ليدل بتقديمهما علىٰ معنىٰ اختصاص الملك والحمد بٱلله عز وجل ، وذٰلك لأنّ الملك علىٰ الحقيقة له ؛ لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه ، وكذٰلك الحمد لأنَّ أصول النعم وفروعها منه ، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء ،

---

(١) الجلحاء من الشاء والبقر بمنزلة الجماء : التي لا قرن لها ، لسان العرب (٢ / ٤٢٤) .

وحمده اعتداد بأن نعمة ٱلله جرت علىٰ يده . . . .) [١] .

وربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ محمود بذاته ، ممجد من مخلوقاته ، والحمد كله له ، حمد علىٰ ما له من صفات الكمال ، وحمد علىٰ ما أوجده من الأشياء ، وحمد علىٰ ما شرعه من الأحكام ، وأسداه من النعم ، وقدرته شاملة لا يخرج عنها موجود فلا يعجزه شيء يريده ، فمن هنا نجد أن ثناء ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ نفسه ، وتمجيده لنفسه ، ومحبته لنفسه ، ورضاه عن نفسه ، فوق ما يخطر ببال أحد ، ولا يمكن كذٰلك أن تجري به ألسنتهم ، فقد جاء في صحيح مسلم : عن أبي هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ عن عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ قالت : فقدت رسول ٱلله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدي علىٰ بطن قدميه وهو في المسجد ، وهما منصوبتان ، وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك » [٢] .

يقول النووي : « قوله : (أنت كما أثنيت علىٰ نفسك) اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء ، وأنه لا يقدر علىٰ بلوغ حقيقته ، ورد للثناء إلىٰ الجملة دون التفصيل والإحصار والتعيين ، فوكل ذٰلك إلىٰ ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً ، وكما أنه لا نهاية لصفاته ، لا نهاية للثناء عليه ؛ لأن الثناء تابع للمثنىٰ عليه ، وكل ثناء أثنيَ به عليه ـ وإن كثر وطال وبولغ فيه ـ فقدر ٱلله أعظم ، وسلطانه أعز ، وصفاته أكبر وأكثر ، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ . . . . » [٣] .

ومن حمده المطلق قوله تعالىٰ : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩] وهنا

---

(١) الكشاف للزمخشري (٤ / ٥٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم عند باب ما يقال في الركوع والسجود (١ / ٣٥٢) برقم (٤٨٦) .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٤ / ٢٠٤) .

نجد أن ٱلله تعالىٰ قد حمد نفسه حمداً مطلقاً ، وذٰلك بعد أن شبه حال المشرك الذي تتنازعه الشياطين ، أو الذي له آلهة متعددة لا يدري لأيها يميل بحال المملوك لأكثر من واحد ، فلا يدري من يرضي منهم ، ثم شبه حال الموحد بالرجل السالم الذي لا ينازع فيه ، وإنما هو خاص لمملوك واحد ، ثم عقب علىٰ هٰذا الكلام بقوله : (الحمد لله) أي : حمداً خالصاً له علىٰ أن بين الحق وأوضحه .

يقول السلمي[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي : لا يعلمون أن أحداً من عباده لم يبلغ الواجب في حمده وما يستحق من الحمد علىٰ عباده بنعمه ، وأن أحداً لم يحمده حق حمده إلا حمده لنفسه . . . . . . »[2] .

ويقول البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد له لا يشاركه فيه علىٰ الحقيقة سواه ؛ لأنه المنعم بالذات والمالك علىٰ الإطلاق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره من فرط جهلهم . . . »[3] .

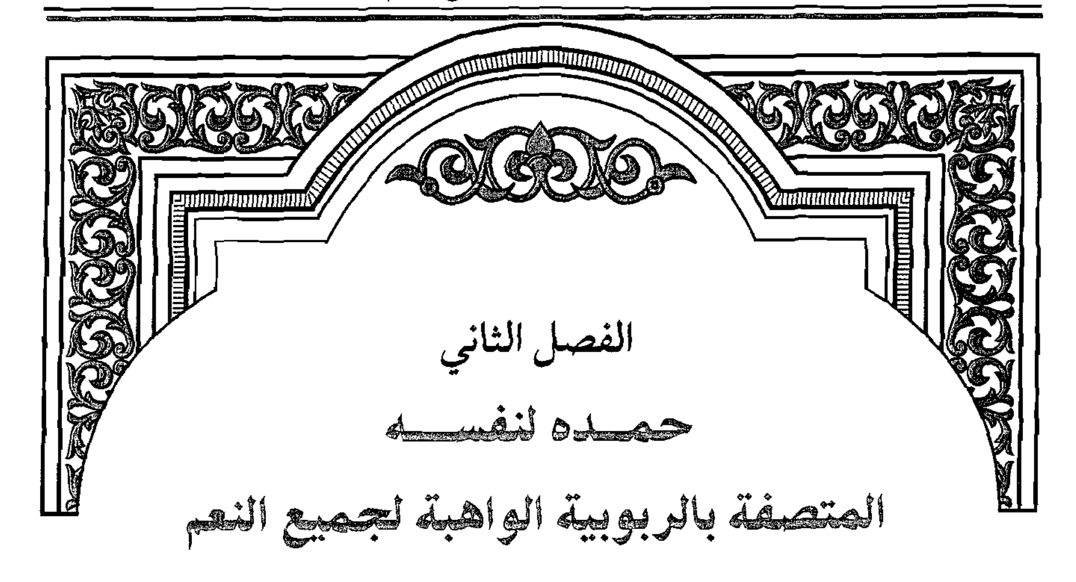
---

(١) محمد بن الحسين بن موسى أبو عبد الرحمن السلمي ، سبط الشيخ أبي عمرو إسماعيل نجيد السلمي ، وهو أزدي الأب ، سمع من جده لأمه ، وأبي العباس الأصم ، والحافظ أبي علي النيسابوري ، وأبي بكر الصبغي ، وأبي بكر القطيعي ، وحدث أكثر من أربعين سنة إملاء وقراءة ، ولد في رمضان سنة ثلاثين وثلاثمئة ، وقيل غير ذلك ، ومات في شعبان سنة اثنتي عشرة وأربعمئة . طبقات المفسرين للسيوطي (١ / ٩٧) .

(٢) تفسير السلمي (٢ / ١٨٩) .

(٣) تفسير البيضاوي (٥ / ٤٢) .





الفصل الثاني
حمده لنفسه
المتصفة بالربوبية الواهبة لجميع النعم

الرب في اللغة هو : المصلح للشيء ، والله جل ثناؤه الرب لأنه مصلح أحوال خلقه[١] ، وبما أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مصلح لأحوال الخلق جميعاً ، فهو بذلك مستحق للحمد من نفسه لنفسه ، ثم من خلقه ، فهم المنتفعون بذلك الإصلاح ، وسيكون بحثنا في هذا الفصل قائماً علىٰ حمد الله لنفسه المتصفة بالربوبية ، المصلحة لأحوال العباد ، وما وهبه لهم من جميع النعم التي بها قوام حياتهم ، فلو قطع الله إحدىٰ هذه النعم التي منّ بها عليهم لهلك الخلق جميعاً ، ولننظر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج : ٦٥] ، فهذا تفضل منه بأنه سخر للإنسان خاصة ولباقي الخلق عامة ما في الأرض جميعاً ، ولولا فضله لما كان ذلك ، وتنقلنا الآية الكريمة إلىٰ نعمة أخرىٰ ، وهي من المعجزات التي يراها الناس ، وتتجدد مع مرور الدهور ، والتي يظنها أكثر الناس أنها من قدرتهم ، وما توصلوا إليه من اختراعات وصناعات ، لكنها في الحقيقة من لطف الله بهم ، وهذه النعمة هي جريان السفن علىٰ ظهر البحر دون أن تغرق ، وما ذاك

---

(١) مقاييس اللغة لأحمد بن فارس (٢ / ٣٨٢) .

إلا بحفظ ٱلله وأمره ـ عز وجل ـ ، وهـٰذه من الأمور المحسوسة التي يراها الإنسان ، ثم يذكر ٱلله لنا أمراً من الأمور الغيبية ، وهي أن ٱلله يمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض ، ولو حصل ذٰلك لهلك الناس ، ولو نظرنا إلىٰ هـٰذه السماء الشاسعة الأرجاء وإلىٰ سماكتها وعددها ، ثم تفكرنا في خالقها وممسكها أن تقع علىٰ الأرض ، لعلمنا أنه كما أخبر عن نفسه في آخر الآية بقوله : ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : رؤوف بعباده من أن يحصل لهم مكروه ، وهو رحيم بهم بما تفضل به من النعم التي لا حصر لها ، وهـٰذه الآية تبين أنه الرب القادر علىٰ تصريف الكون حسبما شاء ، وأنه لربوبيته مستحق للحمد منه لنفسه ـ عز وجل ـ ، يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بمعنىٰ أنه بهم لذو رأفة ورحمة ، فمن رأفته بهم ورحمته لهم أمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه ، وسخر لكم ما وصف في هـٰذه الآية تفضلاً منه عليكم بذٰلك . . . . »[1] .

ومن الآيات المتحدثة عن النعم التي منَّ ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ الخلق بها ، ثم حمد نفسه علىٰ أنه المنعم : قوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر : ٦١] فالكل منّا محتاج إلىٰ الراحة والخلود ، ومحتاج كذٰلك إلىٰ مأوىٰ يخلد إليه بعد عناء النهار وشدة النصب فيه ، فكان الفضل من ٱلله ـ عز وجل ـ بأن جعل هـٰذا الليل سكناً يهدأ فيه ، ثم لننظر لقوله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ وكما أن السكن هو المأوىٰ لجميع الخلق من الأنس أو الجن أو الحيوانات ، كذٰلك الليل شبهته هـٰذه الآية بالسكن الذي هو المأوىٰ ، ثم شبهت النهار بالبصر ، وذٰلك لما خصه ٱلله بالشمس التي هي كالعين المبصرة ، ففيه المعاش للخلق يبتغون من فضل ٱلله ، وهـٰذه من منن ٱلله التي تفضل بها علىٰ الخلق ، فكان بذٰلك هو الرب المتفضل .

---

(١) تفسير الطبري (١٧ / ١٣٨) .

ثم تأتي الآية الأخرىٰ بعدها ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر : ٦٢ ـ ٦٣] جاءت لتبين أنه الرب المتفرد بالخلق وبالإنعام ، فوصف من جحد هٰذه النعم ، وهٰذه البراهين والحجج بأنه ضال كما ضل من كان قبلهم من الأمم الغابرة ؛ الذين شاهدوا المعجزات العظام عياناً كوضح النهار ، فجحدوا بها ، فعاقبهم ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بالضلال يتيهون فيه طيلة أعمارهم ، وبالعذاب يوم يلقونه ، فيكون مصيرهم إلىٰ جهنم ، وكل ذٰلك بعدم اعترافهم بربوبيته ـ سبحانه ـ التي دلل عليها بأشياء ملموسة يرونها ويسمعونها ، ولٰكنهم ساروا في الضلالة ، فمد لهم الرحمٰن في ضلالتهم مداً ، واستدرجهم بالنعم حتىٰ عند أخذه لهم كان أخذاً شديداً ، نسأل ٱلله الهداية للحق والبصيرة المعينة علىٰ معرفة آيات ٱلله في الكون .

ثم تأتي آيات أخر لتدل علىٰ ربوبيته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ الواهبة للنعم ، والتي فصل بعضها وأجمل البعض كما سبق ، ففصل في قوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر : ٦٤] .

فأخبر ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عن بعض صفات الربوبية في هٰذه الآية ، وذٰلك بأنه جعل الأرض قراراً ، ولو لم تكن كذٰلك لأصبحت غير صالحة لحياة الإنسان أو غيره من المخلوقات ، فجعل ٱلله فيها سكن الإنسان ومصدر قوته ، ولا يقدر علىٰ ذٰلك إلا القادر ـ عز وجل ـ ، ثم جعل السماء كالبناء للأرض . يقول ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ في قوله ﴿قَرَارًا﴾ : « أي : منزلاً في حال الحياة وبعد الموت ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ كالقبة المضروبة علىٰ الأرض »[1] . ثم يذكر لنا من صفات ربوبيته كذٰلك قوله : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٧ / ٧٣) .

وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ وهٰذا خاص بالجنس البشري ، حيث جعله في أجمل صورة كما قال : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] حيث فضله علىٰ كثير من المخلوقات ؛ فجعله يتناول طعامه بيده تشريفاً له ، ولم يجعله يأكل بفمه مباشرة ، وكذٰلك ما فضله به في منكحه ونومه ، فلم يجعله في ذٰلك كباقي الخلق ، وإنما جعلها بصفة تكرمه عنهم جميعاً ، ثم تفضل عليه بأن رزقه من الطيبات من المأكل والمشرب والنعيم الذي ليس ذٰلك لكثير من المخلوقات ، وما هٰذا إلا ليعترف له بكمال ربوبيته المتفضلة عليه بهٰذا النعيم ، كما دلت عليه آخر الآية بقوله : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ﴾ حيث جاء بصفة الربوبية بعد لفظ الجلالة مباشرة للفت النظر إلىٰ أنه الرب المستحق لأن يُعترف له بذٰلك ، ثم أثنىٰ علىٰ نفسه بقوله : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكرر لفظ الربوبية مرة أخرىٰ بعد الثناء ، أي : أنه رب للعالمين الواهب لكل نعمة عليهم[1] ، وكما هو معلوم أن التكرار في القرآن إنما هو لبيان أهمية الأمر ، وشدة التأكيد عليه .

ثم جاءت الآية التالية لهٰذا كله ، والتي هي مناط حديثنا ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر : ٦٥] وقد وصف ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ نفسه بصفة الحياة الدائمة التي لا ينبغي أن تكون لغيره ، فكل من في هٰذا الكون سيموت ، وسيأتي زمن لا يبقىٰ فيه إلا هو سبحانه ، كما أخبر بذٰلك في قوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن : ٢٦ ـ ٢٧] ، وعقب بعد صفة الحياة بكلمة التوحيد (لا إلٰه إلا ٱلله) أي : لا معبود بحق إلا ٱلله ، ورداً علىٰ كل من اتخذ إلٰهاً غير ٱلله بأنه في ضلال ، فلو هٰذا المزعوم ينفع أو يضر لرد عن نفسه الأمر الذي تكرهه الخلائق ، وهو الموت ؛ الذي هو نهاية كل حي إلا ٱلله ، فالواجب علىٰ كل ذي لب أن يعترف لله بالربوبية ، وأن لا يدعو

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤ / ٨٧) .

إلا ٱلله كما أمر في هـٰذه الآية بقوله : ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ثم بالإخلاص له في عبادته ، ولا يدخل في ذٰلك رياءً أو سمعةً ، وهـٰذا للاعتراف بكمال ربوبيته وكمال تفضله علىٰ عباده ، فكان بذٰلك مستحقاً لقوله عن نفسه : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فحمد نفسه باتصافه بالربوبية الواهبة لكل هـٰذه النعم ، وهنا لطيفة يجدر بنا ذكرها وهي تكراره لقوله ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ في ختام هاتين الآيتين ؛ ليدل علىٰ أنه الرب الذي يكون له الحمد من نفسه لنفسه ، والذي له الحمد ، وكفىٰ به أن يحمد نفسه ، ثم جاء بالحمد بلفظ الاستغراق المسبوق بالألف واللام دون أن يأمر به بالرغم من أمره بعبادته ، وبإخلاص الدين له بعد تفضله بالنعم الجزيلة ، ليبين أن الحمد له علىٰ ربوبيته الواهبة لكل هـٰذه النعم ، فاعبدوه مخلصين له الدين ، لـٰكن إن حمدتم أو لم تحمدوا ، فهو المحمود علىٰ ذٰلك من نفسه قبل أن يحمده أحد من خلقه .

كذٰلك نلاحظ في هـٰذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي ذكرها ٱلله بعد حمده بصفة الربوبية : أنه قال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ولم يقل : خالق العالمين ، أو رازق العالمين ، أو ما شابهها من الصفات ـ بالرغم من أن كل صفاته صفات كمال ـ لـٰكنه جاء بوصف الربوبية لعدة فوائد يستفيدها المتبصر في كلام ربه ـ عز وجل ـ وهي :

أولاً : لتعليم عباده كيفية حمده علىٰ ما وهبهم من النعيم المقيم ؛ الذي لا نهاية ولا حصر له .

ثانياً : لبيان أنه المستحق للعبادة دون سواه ، فكل ما سوىٰ ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فهو باطل .

ثالثاً : لبيان أن الخلق مفتقرون إليه ، وأنهم لا غنىٰ لهم عنه في أي وقت وفي أي زمان ، فهم قبل وجودهم وبعد وجودهم محتاجون له ، فليس كل مخلوق قائماً بذاته ، وإنما هو في أمسّ الحاجة لربه ، لذٰلك قال : ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ولم يقل : (خالق العالمين) فالموجد هو ٱلله ، وبعد وجوده الخلق أصبحوا يحتاجون لرعايةٍ وإصلاح حالٍ ، وهـٰذا لا يكون إلا من الرب

الذي يقوم بإصلاح أحوال الخلق ، فلو خلقهم وتركهم دون عناية لما استطاع أحد منهم أن يقوم بأمور حياته من الرزق والحفاظ علىٰ سلامته من الأخطار المحيطة وغير ذٰلك ، لـٰكن عناية ٱلله وحفظه ورحمته للخلق جعلته يستحق الحمد علىٰ أنه الخالق والرازق والمحيي والحافظ وغيرها من الصفات التي استحق أن يجمعها قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فكان هـٰذا أبلغ وصف لكي يعرفه من جهله وجهل فضله ، واستحقاقه للعبادة والحمد والشكر والثناء دون سواه .

يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « فقوله : ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تنبيه علىٰ أن جميع العالمين مفتقرة إليه في حال بقائها ، والمقصود أن افتقارها إلىٰ الموجد في حال حدوثها أمر متفق عليه ، أما افتقارها إلىٰ المبقي والمربي حال بقائها هو الذي وقع فيه الخلاف ، فخصه ـ سبحانه ـ بالذكر تنبيهاً علىٰ أن كل ما سوىٰ ٱلله فإنه لا يستغني عنه لا في حال حدوثه ، ولا في حال بقائه . . . . »(١) .

ومن الآيات التي حمد ٱلله فيها نفسه علىٰ ما أنعم به علىٰ عباده من النعم التي لا حصر لها قوله تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٤٤ ـ ٤٥] وهنا منّة من ٱلله تعالىٰ علىٰ عباده المؤمنين بأن قطع دابر القوم الذين ظلموا ، وذٰلك بعد أن استمهلهم أول الأمر ، فكان ذٰلك مثلما يتعامل الأب مع ابنه ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ يلاطفه تارة ، ويشاده تارة راجياً صلاحه . ثم لما لم ينفع معهم إرسال الرسل ، وأخذهم بالسراء ، عاد إلىٰ أخذهم بالضراء علّهم يعودون عن غيهم ، ويتضرعون إلىٰ ربهم ، فما كان منهم إلا أنهم قابلوا ذٰلك بالجحود والنسيان ، فأمهلهم ٱلله كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق : ١٧] ، وذٰلك بأن فتح

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١ / ١٨٠) .

لهم في الدنيا أنواع النعم التي يتمناها كل إنسان ، وذٰلك واضح فيمن كان مداوماً علىٰ المعاصي وهو يرىٰ أثر النعمة عليه ، فما ذٰلك إلا استدراج من ٱلله لهم ليصدق فيهم قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

ثم بعد ذٰلك أخذهم ٱلله أخذ عزيز مقتدر ؛ فقطع دابرهم وأهلكهم جميعاً ، فعقب علىٰ ذٰلك بقوله : ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فحمد نفسه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ قطع دابرهم ، وأنه يمهل ولا يهمل ، وإذا أخذ كان أخذه شديداً أخذ عزيز مقتدر .

قال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٤٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

وكما هو ملاحظ في أن ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد ذكر صفة الربوبية بعد الحمد لنفسه ؛ وذٰلك ليلفت أنظارنا إلىٰ أنه الرب الواهب لجميع النعم ، ومنها إهلاك الظلمة الذين في بقائهم ضرر علىٰ المؤمنين وإفساد للحياة ، ولا يكون من نسلهم إلا من هم علىٰ شاكلتهم ، فكان دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الأمر قوله : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦ ـ ٢٧] ، فبين عَلَيْهِ السَّلَامُ السبب من دعوته لإهلاك الظالمين ، وهو أنه ببقائهم ضلال المهتدين ، وولادة المماثلين لهم .

ونوح دعا بذٰلك ؛ لأن ٱلله تعالىٰ أعلمه بقوله ـ تبارك وتعالىٰ ـ : ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] ، وإلا فنوح يعلم : أن الدنيا فيها الكفار ، وفيها المؤمنون ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [التغابن : ٢] ، فكان دعاؤه علىٰ الكفار في زمنه .

ومن السور التي جاءت مقررةً لمعنىٰ الربوبية ، وأن ٱلله هو مسدي النعم علىٰ عباده ، (سورة الجاثية) حيث كان الجو العام للسورة هو التقرير والتقريع لمن أنكر ، ولنجمل الحديث عنها إجمالاً ، حيث إن السبب في أن خصصناها بالذكر دون غيرها من السور ؛ لما اشتملت عليه من التفصيل لكثير من النعم التي تفضل ٱلله بها علىٰ عباده ، وما أنكره علىٰ من جحد ذٰلك ، واتخذ آلهةً مزعومة من دون ٱلله ، أو أشركها مع ربه في العبادة ، بالرغم من أن المواضع في القرآن ليس لها حصر ، والسور التي جاءت لتقرير معنىٰ الربوبية كثيرة جداً ، لٰكن هٰذه السورة تميزت بميزة عن باقي السور ، وهي أن المولىٰ ـ عز وجل ـ قد ختمها بحمده والثناء علىٰ ذاته المستحقة لذٰلك .

وبإلقاء نظرة مجملة علىٰ السورة ومواضيعها يتضح لنا الآتي :

نلاحظ أن السورة بدأت بالحروف المقطعة الملفتة للنظر ، ثم أخذت في تفصيل النعم التي كانت سبباً في حياة الإنسان الحياة الحسية والمعنوية ، وأول هٰذه النعم ـ كما جاء في السورة ـ هو إنزال الكتاب الذي فيه عزة من تمسك به ، وشقاء من أعرض عنه ، وذٰلك في قوله : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الجاثية : ١ ـ ٢] ، ثم لفت النظر لخلق السمٰوات والأرض ، وخلق الإنسان وما أودع ٱلله فيه من العبر ، ثم ما بث في هٰذه الأرض من أنواع الدواب التي لا يحصيها إلا ٱلله ، وقد أجريت دراسات مكثفة لمعرفة عدد أنواع المخلوقات ، فظهرت بأعداد علىٰ سبيل التقريب وليس الحصر ، تقول : إن عدد الثدييات ـ مثلاً ـ أربعة آلاف نوع ، وعدد الطيور حوالي عشرة آلاف نوع ، والحشرات ـ وهي الأكثر كما نلاحظ ـ تصل إلىٰ عشرة ملايين نوع[١] ، وإن لم نسلم بما قالوا ، فمن الملاحظ أن ما أودعه ٱلله في هٰذا الكون من الأعداد الهائلة لهٰذه الدواب لهو شاهد علىٰ ربوبيته ـ سبحانه ـ ، ثم تنقلنا السورة إلىٰ شواهد ودلائل أخرىٰ علىٰ عظيم نعم ٱلله علينا ، وهو اختلاف الليل والنهار ،

---

(١) موسوعة الأمير سلطان العلمية (٨ / ١١ ـ ٩ / ٣٤٩ ـ ١٥ / ٣٤٥) .

ثم إلىٰ تصريف الرياح وما فيها من فوائد عندما تكون رياحاً ، فهي تسوق السحاب ، وتلطف الجو ، وتلقح الأشجار ، وتحرك السفن في البحر ، وغير ذٰلك من الفوائد العظيمة حال كونها رياحاً ، لٰكنها عندما تكون ريحاً فالأمر مختلف جداً ، فبهٰذه التسمية تكون عذاباً ـ أعاذنا ٱلله من ذٰلك ـ .

فقد جندها ٱلله عز وجل في كثير من الأزمان لإهلاك الظلمة ، في الأمم السابقة ، أو للنكال بمن حارب ٱلله ورسوله ﷺ كما حصل يوم الأحزاب ، وهٰذا كله في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٣ ـ ٥] .

ثم يأتي الوعيد الإلٰهي بالوعيد مهدداً من أعرض ، ولم يؤمن بهٰذا الحديث فأي شيءٍ ينفع معه ، فإن أصر علىٰ ذٰلك واستكبر ، تأتي البشارة التهكمية بهم بالعذاب الأليم ، والبشارة تأتي علىٰ حقيقتها بالخير ، وتأتي علىٰ المجاز من باب التهكم ، كما قال الشاعر :

يبشرني الغراب ببين أهلي   فقلت له ثكلتك من بشير[1]

ومن خلال استعراضي للسورة كاملة وجدت أنها مقسمة إلىٰ عدة مقاطع كان المقطع الأول هو الذي سبق ذكره ، وما فيه من التقرير لربوبية ٱلله ، والتهديد لمن أنكر وجحد ذٰلك ، وختم هٰذا المقطع بقوله تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية : ١١] ، أي : أن هٰذا القرآن هدىً لمن أراد الهداية ، والانتفاع به ، ومن أنكره وجحد الآيات الواضحات فله عذاب أليم كما في الآية ، وقد ختم ٱلله هٰذا المقطع بما ابتدأ به في أول السورة ، وهو تنزيل الكتاب ، فناسب أن يكون لفت النظر إلىٰ هداية القرآن ليكون ختام المقطع بما بدأ به ، وهٰذه من لفتات القرآن التي حري بنا أن نلاحظها ؛ لنعلم السر العظيم في إعجازه .

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٩٦) .

ثم يجيء التذكير في السورة ببعض ما سخره ٱلله للإنسان كالبحر والفلك وما في السمٰوات والأرض ـ والتي تحدثنا عنها ولله الحمد والمنة ـ وذٰلك عند قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٢ ـ ١٣] .

ثم جاءت الآيات التي تُذكِّر الناس عموماً بما تفضل ٱلله به علىٰ بني إسرائيل ، بإنزال الكتب عليهم ، وإرسال الرسل إليهم ، وما رزقهم به من الخيرات ، وتفضيلهم علىٰ العالمين ، وأراهم البراهين والحجج الواضحات ، وما أجراه ٱلله علىٰ أيدي أنبيائهم من المعجزات ؛ التي لم تكن لأمة من الأمم قبلهم ولا بعدهم ، فكان من عنادهم وجهلهم أن أنكروا وجحدوا ، وطلبوا طلبات لا يقبلها عقل ، وما كان ذٰلك منهم إلا بعد ما جاءهم العلم ، فالواجب أن يكون ذٰلك النكران من الجاهل ، أما من أوتي العلم فحري به أن يكون علىٰ بصيرة بأن المستحق للعبادة الحقيقية هو ٱلله ، وأنه الرب المتفضل بهٰذه النعم التي من الواجب أن يحمد عليها قولاً وفعلاً .

ثم جاء التحذير للنبي محمد ﷺ والمقصود أمته كما في قوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ... ﴾ من أن يزيغ كما زاغ الذين من قبله ، أو أنه يتبع أهواء الذين لا يعلمون ، فإن فعلت ذٰلك يا محمد ، فإنهم لن يمنعوك من ٱلله ، فاعتبر يا محمد ويا كل من تسمع هٰذا الكلام ، ولتكن صاحب بصيرة تبصرك بالإلٰه الحق ، الذي له الملك ، وله الحكم ، وله الحمد والثناء .

ويأتي الختام لهٰذا المقطع مناسباً لما قبله من الآيات ؛ التي فيها لفت للبصيرة بما حصل للأمم السابقة الذين لم يعتبروا ويتبصروا بما أراهم ٱلله به من البراهين الواضحات ، فيقول : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٠] ، والمقصود بالبصائر هو القرآن الكريم ، لٰكنه جعله في المقطع الأول هدىً لمناسبته لتلك الآيات ، أما في هٰذا المقطع فجعله مخاطباً لمن كان صاحب بصيرة ، وتفكر في أحوال الأمم السابقة ، وكل من

تفضل ٱلله عليه بالعلم النافع ، ثم مال إلىٰ طريق الغي والضلال ، فيكون عقابه كما عوقب من كان قبله من الهالكين .

ثم يأتي المقطع التالي وفيه المقارنة بين حال من جحد وارتكب السيئات ومن آمن وعمل الصالحات ، هل يكون محياهم ومماتهم سواء ؟ وهل مآلهم يوم القيامة كذٰلك ؟ هـٰذا الأمر بلا شك لن يكون ، وليس كما يظنه ، وما حكموا به فهو حكم سوء ؛ لأن من كمال ربوبيته أن يكون عادلاً في الحكم بين خلقه ، وأن لا تكون معاملة الجاحدين كالمؤمنين ، ويؤيد هـٰذا القول ما جاء في (سورة ص) وهو قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] وهـٰذا فيه استنكار علىٰ كل من اعتقد ذٰلك وظنه ، فمن عدله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن ميز بين المؤمنين والكافرين .

يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « والمعنىٰ إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً ، وأن يستووا مماتاً لافتراق أحوالهم أحياءً ، حيث عاش هـٰؤلاء علىٰ القيام بالطاعات ، وأولـٰئك علىٰ ركوب المعاصي ، ومماتاً حيث مات هـٰؤلاء علىٰ البشرىٰ بالرحمة والوصول إلىٰ ثواب ٱلله ورضوانه ، وأولـٰئك علىٰ اليأس من رحمة ٱلله والوصول إلىٰ هول ما أعدَّ لهم . . . »[١] .

وكما هو حال السورة في تكرار وتعميق معنىٰ الربوبية لله ـ عز وجل ـ حتىٰ تبقىٰ هـٰذه الصورة عالقة في الذهن ، ولا يغفل عنها أحد ، وذٰلك عند قوله تعالىٰ : ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٢] ، فتكرر خلق السمـٰوات والأرض ، وشدد بعدها علىٰ موضوع العدل الذي هو من كمال ربوبيته ، فإن كل نفس ستحاسب علىٰ ما قدمت من عمل .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (٤ / ٢٩٣) .

ومن كمال الاعتراف بربوبيته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ: أن الإنسان لابد أن يوقن تمام الإيقان بأن الهادي هداية التوفيق إنما هو ٱلله ، وليس الأمر كما زعمت بعض الفرق الضالة بأن المتحكم في ذٰلك هو الإنسان نفسه ، فقد بين ٱلله في هـٰذه الآية ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ٢٣] أن الضلال قد يكون لمن علم أنه ضال ولا نفع معه الهدىٰ، وقيل: علىٰ علم من ٱلله بأنه ليس أهلاً للهداية فيكون فيها [١] ، وعلىٰ أي معنىً كان فلابد أن نعلم تمام العلم بأن ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ هو المقلب لقلوب العباد ، وأنها بين أصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء ، فلا ينخدع الإنسان بالدنيا وشهواتها ، أو ينساق وراء هواه ، فما اشتهاه عمل به ، وما كرهه تركه ، وإنما يكون المتحكم في ذٰلك ما أمر ٱلله به ، وما نهىٰ ٱلله عنه ، وليحذر أشد الحذر مما وقع فيه كثير من الناس قديماً وحديثاً في الانسياق خلف الملذات والشهوات ، والبحث عن الرخص في الدين ليبرروا بها أعمالهم الفاسدة ، حتىٰ إن بعضهم ليظن أن ما هو عليه إنما هو من صميم ما جاء عن النبي ﷺ .

ولا يدري المسكين : أنه تابع لهواه ورغبات نفسه ، جعلنا ٱلله وإياكم ممن بصره ٱلله بالحق ، فكان علىٰ بصيرة تريه الحق حقاً فيتبعه ، والباطل باطلاً فيجتنبه ، وأن لا ننخدع كما انخدع أضل البشر وهم الدهريون الذين قالوا : ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية : ٢٤] ، ولنتفكر في أحوال هـٰؤلاء ـ والذين جاء ذكرهم في هـٰذه السورة العظيمة ـ وأنهم ظنوا ظناً فاسداً بأنهم وجدوا صدفة علىٰ هـٰذه الدنيا ، وأن المتحكم فيهم إنما هو الدهر ، وغفلوا : أن لهـٰذا الكون رباً متصرفاً فيه كيف شاء ، وهل يعقل أن تسير هـٰذه الأمور وهـٰذه التقلبات من خلق للسمـٰوات والأرض ، ومن تعاقب لليل والنهار ، ومن جريان لهـٰذه الكواكب

---

(١) انظر : تفسير السعدي (١ / ٧٧٧) .

والنجوم ، ومما دب على الأرض من جميع المخلوقات ، وغير ذٰلك من الدلائل والشواهد ، هل يعقل أن تكون بدون خالق ومدبر لها ؟ ! وعندما يحاورون في ذٰلك يأتون بأدلة يعتقدون أنها مفحمة ، وهو قولهم : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجاثية : ٢٥] .

فلو أمعن أحدهم النظر في ذٰلك كما أمعنه ذٰلك الأعرابي الذي قال : « البعرة تدل على البعير ، وأثر الأقدام تدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، أفلا تدل على اللطيف الخبير »[١] ، ومن قول ذٰلك الشاعر :

قد يستدل بظاهر عن باطن حيث الدخان يكون موقد نار[٢]

لعلموا : أن ٱلله هو رب الأرباب ، ومسبب الأسباب ، ومجري السحاب ، الذي لم ولن يحتاج لأحد من خلقه حتى في حمده على ما أولى به من هٰذه النعم ، فقد تكفل لذٰلك بنفسه لنفسه ، لأنه لا أحد يستطيع أن يبلغ ذٰلك فيحمد ربه ، ويثني عليه حق الثناء حتى صفيه ﷺ عندما قال : « لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[٣] .

ثم يتكرر إثبات الملك والربوبية لله ـ تبارك وتعالى ـ بقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٧] يتكرر عندما يريد ٱلله أن يؤكد بعض الأمور العظام ، ومنها إثبات يوم القيامة ، الذي لا ريب فيه ، ولا مناص لأحد عنه ، وبيان أحوال الأمم في ذٰلك اليوم الذي من شدة هوله يشيب فيه الوليد ، وتذهل الأمهات عن أولادهن ، وترى الطغاة منكسرين مما كذبوا به في الدنيا حتى رأوه رأي العين ، يقولون : ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن

(١) روح المعاني (٢٦ / ٦٢) .
(٢) نفح الطيب للتلمساني (٥ / ٢٨٩) .
(٣) أخرجه مسلم عند باب ما يقال في الركوع والسجود (١ / ٣٥٢) برقم : (٤٨٦) .

سَبِيلٍ ﴾ [غافر : ١١] ولـٰكن هيهات ، لا ملجأ ولا منجىٰ من ذٰلك إلا إلىٰ ٱلله الملك الديان .

ثم يأتي ختام هـٰذا المقطع بقوله : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٩] ، وفيه بيان أن كل ما عمله الإنسان محصي عليه قل أو كثر ، وهنا لفتة ، وهي نسبة الكتاب إلىٰ ٱلله في قوله : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا ﴾ رغم أنه في مواطن أخرىٰ نسبه إلىٰ الشخص نفسه كما قال في (سورة الإسراء) : ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء : ١٤] ، والجواب هو : أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتة فيه ، وأضافه إليه لأنه مالكه ، وهو الذي أمر الملائكة بكتبه ، وقد ناسب أن يختم المقطع بهـٰذه الآية لبيان أن من اعتقد المساواة بين المؤمنين والكافرين فإن اعتقاده باطل ، فسيكون لكل إنسان يوم القيامة كتاب محصي عليه عمله[1] .

ثم يأتي المقطع الأخير في السورة ، وفيه بيان مصير كلا الفريقين في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٠ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٠ ـ ٣١] وهناك بدا للكافرين سوء أعمالهم ، وأنهم كما نسوا ٱلله في الدنيا ، سوف ينسون في الآخرة ، وسيكون مصيرهم إلىٰ النار ، التي لن يخرجوا منها ، ولا يستعتبون ، أي : لن يرضوا بما هم فيه ، وقيل : لا يرجعون إلىٰ الدنيا كما طلبوا عندما تحقق لهم ما كانوا يجحدون .

وجاء ختام هـٰذه السورة بمناط حديثي وغاية بحثي هـٰذا ، وهو حمده ـ عز وجل ـ لنفسه المتصفة بالربوبية الواهبة لجميع النعم التي منَّ ٱلله بها علىٰ خلقه ، وهـٰذه الخاتمة كذٰلك هي التي حدت بي كي أختار هـٰذه السورة للحديث عنها ، وإلا فالقرآن فيه الكثير من الآيات والسور التي تتحدث عن ربوبية ربنا ، وعن آلائه الجسيمة ، لـٰكن جو هـٰذه السورة من أولها إلىٰ

---

(١) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٤ / ٤٠) .

اخرها ، ومقاطعها وخاتمتها ، كان له أكبر الأثر في ذلك ، فيقول ربنا ـ عز وجل ـ : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية : ٣٦ ـ ٣٧] ، ولو أمعنا النظر في هٰذه الآية ، والتي حمد ٱلله نفسه فيها لوجدنا أنها تختلف عن غيرها من الآيات ، بل ليس لها شبيه في القرآن ، وذٰلك أن لفظ الجلالة سبق الحمد ، وفي هٰذا أكبر دليل علىٰ أن جميع المحامد لله ، فقوله : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ﴾ أكدت ذٰلك ، وكانت آكد للملكية والاختصاص ، مثاله قوله تعالىٰ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، فتقديم المعمول كما يقول العلماء يفيد الحصر[1] ، فعندما قدم قوله : ﴿ إِيَّاكَ ﴾ أفاد بذٰلك حصر العبادة لله والاستعانة عليه ، كذٰلك عندما قدم لفظ الجلالة في هٰذه الآية أفاد حصر جميع المحامد له ـ سبحانه ـ .

كما نلحظ من مجيء لفظ الجلالة سابقاً للحمد ملحظاً دقيقاً ، وهو أن السياق العام للسورة ، وما جاءت مقررةً له هو تأكيد معنىٰ الربوبية لله ـ عز وجل ـ وإقامة الحجج والبراهين علىٰ الكافرين وتسفيه عقائدهم ، والملحدين ودحض حججهم ، أما باقي آيات الحمد في القرآن ، فكان الغالب عليها الخطاب للمؤمنين الذين قد اعترفوا بوحدانية ٱلله ، فجاء الخطاب إليهم معلماً لهم كيفية الحمد والثناء لربهم المستحق لذٰلك .

يقول الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تفريع علىٰ ما احتوت عليه السورة الكريمة ، وقد احتوت علىٰ آلاء ٱلله تعالىٰ وأفضاله ـ عز وجل ـ ، واشتملت علىٰ الدلائل الآفاقية والأنفسية ، وانطوت علىٰ البراهين الساطعة والنصوص اللامعة في المبدأ والمعاد ، واللام للاختصاص ، وتقديم الخبر لتأكيده ، وتعريف الحمد للاستغراق أو الجنس ،

(١) انظر : تفسير السعدي (١ / ٣٩) .

والجملة إخبار عن استحقاقه تعالىٰ لما تدل عليه . . . »[١] .

أما في قوله : ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ فبيان أن العظمة والجبروت والكبرياء حق لله ، وكما أن الحمد لا ينبغي لأحد غير ٱلله ، فكذٰلك الكبرياء لا ينبغي لغير ٱلله ، روىٰ أبو هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ قال رسول ٱلله ﷺ : « الْعِزُّ إِزَارُهُ ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ ، فَمَنْ ينازعني عَذَّبْتُهُ »[٢] . (فالضمير في إزاره ورداؤه يعود إلىٰ ٱلله تعالىٰ للعلم به ، وفيه محذوف تقديره : قال ٱلله تعالىٰ ومن ينازعني ذٰلك أعذبه ، ومعنىٰ ينازعني : يتخلق بذٰلك فيصير في معنىٰ المشارك ، وهـٰذا وعيد شديد في الكبر مصرح بتحريمه ، وأما تسميته إزاراً ورداء فمجاز ، واستعارة حسنة)[٣] .

وللكبرياء عدة معانٍ كما يقول ابن الجوزي في قوله تعالىٰ : « ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ فيه ثلاثة أقوال أحدها : السلطان . قاله مجاهد ، والثاني : الشرف . قاله ابن زيد ، والثالث : العظمة . قاله يحيىٰ بن سلام ، والزجاج . . . . »[٤] .

✍ ✍ ✍

---

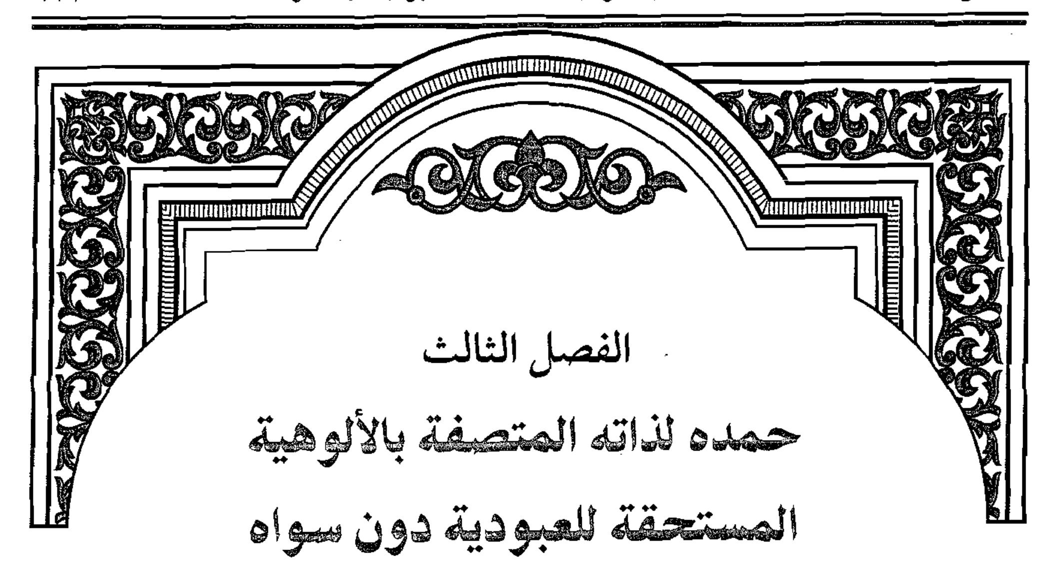
(١) روح المعاني الآلوسي (٢٦ / ٢ ـ ٣) .

(٢) أخرجه مسلم باب تحريم الكبر (٤ / ٢٠٢٣) برقم : (٢٦٢٠) .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦ / ١٧٣) .

(٤) زاد المسير لابن الجوزي (٧ / ٣٦٦) .





الفصل الثالث
حمده لذاته المتصفة بالألوهية المستحقة للعبودية دون سواه

وفي هٰذا الفصل سأركز الحديث علىٰ مسألة استحقاق ربنا للعبودية دون سواه ، وما أثنىٰ به علىٰ نفسه وحمدها باتصافها بذٰلك ، فقد نفىٰ ربنا ـ عز وجل ـ في كثير من الآيات وجود آلهة غيره ، ولو كان الأمر كذٰلك لفسدت السمٰوات والأرض ، فقال تعالىٰ : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٢] يقول ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « إنه لو كان فيهما آلهة إلا ٱلله لفسدتا لما يحدث بينهما من الاختلاف والتنازع في التدبير وقصد المغالبة ، ألا ترىٰ أنه لا يوجد ملكان اثنان لمدينة واحدة . ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأنه مالك كل شيء ، والمالك يفعل في ملكه ما يشاء ، ولأنه حكيم فأفعاله كلها جارية علىٰ الحكمة ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ . . . »(١) ، وكذٰلك ينتج من وجود إلٰهين ما يسمىٰ بدليل التمانع ، وهو : أنه لو أراد أحد الآلهة شيئاً ، وأراد الآخر ضده لاستحال أن ينفذ أمراهما معاً أو يرفضا معاً ، وهٰذا هو التمانع ، ولو نفذ أمر أحدهما لما صلح الآخر أن يكون إلٰهاً ، وقد يحدث الفساد والهلاك للناس بسبب تنازعهما ، فلا إلٰه لهٰذا الكون إلا ٱلله ، فبعد أن ضرب ٱلله لنا المثل بنفي وجود إلٰهين وما فيه من الفساد نزه نفسه من أن يكون معه إلٰه بقوله :

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي (٣ / ٢٤) .

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : تعالىٰ وتقدس عن ذٰلك .

وكذٰلك من الآيات الدالة علىٰ وحدانيته واستحقاقه للحمد والثناء علىٰ ألوهيته قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٥] وهٰذه الآية سيكون الحديث عنها مفصلاً فيما بعد ، لٰكن لأهميتها وشدة علاقتها بموضوعنا عامة ، وبفصلنا هٰذا خاصة ، آثرنا أن تكون في بداية هٰذا الفصل ، وكما هي عادة القرآن في الآيات التي فيها تأكيد معنىٰ الألوهية ، بدأها ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بإثبات وتأكيد صفة من صفاته ، وهي الحياة التي لا تكون لغيره من مخلوقاته ، فكان فيها أبلغ الرد علىٰ كل من زعم إلـٰها غير ٱلله ، فهو باطل ، إن كان من الأحياء فإنه سيموت ، وإن كان من الجمادات فإنه من باب أولىٰ لا يصلح أن يكون إلـٰهاً ، لأنه مسلوب من أهم صفة في الإلـٰه الحق ، وهي صفة الحياة .

وحَمْدُ ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مستمر علىٰ الدوام ؛ لأنه الإلـٰه في الدنيا والآخرة ، ومهما زعم الزاعمون ، وادعىٰ المدعون من وجود آلهة مع ربنا ، فذٰلك باطل ، لأنه لو سلمنا جدلاً أن ذٰلك ممكن ، فهل لآلهتكم البقاء ؟ وهل تستحق الحمد في الدارين ؟ بالتأكيد أن ذٰلك لن يكون إلا لله ، فقد حمد نفسه بعد أن بين وحدانيته في الدنيا والآخرة ، حيث قال : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي : في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أي : الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته . . . . »[١] .

وكما يحمد علىٰ وحدانيته يحمد علىٰ أن له الحكمُ والتصرف في أحوال الخلق جميعاً ، فهٰذا حمد منه سبحانه . يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أنه المنفرد

(١) تفسر القرآن العظيم لابن كثير (٣ / ٤٠٨ ـ ٤٠٩) .

بالوحدانية ، وأن جميع المحامد إنما تجب له ، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير . . . . [(١)] .

ومن الأدلة المثبتة لألوهيته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ والتي أقام بها الحجة الدامغة للناس كافة هو ما جاء في سؤاله للمشركين بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٣] .

وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٧] .

وهي من الآيات التي فيها إقرار من المشركين علىٰ ربوبية ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ حيث إنهم لو سئلوا : من خلق السمٰوات والأرض ؟ لقالوا : هو ٱلله ، ومن الذي سخر الشمس والقمر ؟ لقالوا : هو ٱلله ، ومن الذي ينزل الماء من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها ؟ لقالوا : هو ٱلله ، ثم من الذي خلقكم وأوجدكم من العدم ؟ لقالوا : هو ٱلله ، فأي اعتراف وأي إقرار بعد هٰذا ؟ ، وبما أنكم قد اعترفتم بذٰلك فما الذي صرفكم عن الحق ؟!

ثم تأتي آية أخرىٰ فيها سؤال تبكيت ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٨] هٰذا السؤال ـ كسابقه من الأسئلة ـ عمن خلق السمٰوات والأرض ، والجواب هو نفس الجواب : أنه ٱلله الخالق لذٰلك ، فعند جوابهم يأتي سؤال التبكيت ، وهو : هل آلهتكم التي تدعون من دون ٱلله تستطيع الخلق ؟ ثم هل تستطيع لكم الضر أو النفع إن لم يكتب ٱلله ذٰلك ؟ بل هل تستطيع رد الضر عن أنفسها ، أو جلب النفع لها ؟ فإن كان هٰذا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣ / ٣٠٧) .

كله لا تستطيعه آلهتكم المزعومة ، وقد اعترفتم بقدرة ٱلله علىٰ ذٰلك ، فأي عقل يقبل أن يعبد ويشرك مع ٱلله من لا يخلق ، ولا يرد ضراً ، أو يجلب نفعاً لغيره أو حتىٰ لنفسه ؟ !

ثم بين هوان هٰذه الآلهة المزعومة بقوله : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] فالإلٰه الحقيقي هو الذي يخلق ويقدر الأقدار ويقلب الليل والنهار ويسخر الشمس والقمر وهو المالك ، أما ما تدعون من دونه فلا يملكون أتفه الأشياء التي لا اعتبار لها في الحياة وهو (القطمير) ، ومعناه القشر الرقيق الأبيض الذي علىٰ نوىٰ التمر(١) ، والمعنىٰ : أن الأصنام لا يملكون أقل الأشياء فكيف بأكثرها ، وهنا لطيفة يجدر بنا ذكرها لبيان الإعجاز في اللفظ القرآني ، وأن ٱلله لم يذكر كلمة في القرآن إلا ولها مدلولها التي وضعت من أجله ، فكلامه تعالىٰ هو المعجز والمتجدد علىٰ مر العصور ، وهٰذه اللطيفة هي : أن ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قد ذكر في تقريره وسؤاله للمشركين صفتين من صفاته ، وهي الخلق والملك ، وعند إقامة الحجة عليهم ، لم ينكر علىٰ آلهتهم المزعومة إلا صفة الملك فقال : ﴿ مَا يَمْلِكُونَ ﴾ ولم يقل عنهم أنهم ما يخلقون ، والسبب في ذٰلك هو أن المشركين قد اعترفوا بأن الخالق هو ٱلله ، لٰكنهم اعتقدوا أن لآلهتهم الباطلة شيئاً من الملك والتصرف مع ٱلله تعالىٰ عن ذٰلك ، فنفىٰ ٱلله عنهم هٰذه الصفة بأنهم لا يملكون أتفه الأشياء وأقلها ، فضلاً عن أن يكونوا مالكين ومتصرفين مع المالك الحقيقي(٢) .

فكان ذٰلك بياناً منه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وبرهاناً لكل الخلق بأنه هو الإلٰه المستحق للعبادة دون سواه ، وأنه بذٰلك يكون المحمود علىٰ ألوهيته المستحقة

---

(١) انظر : لسان العرب (٥ / ١٠٨) ؛ ومختار الصحاح (١ / ٢٢٧) .

(٢) انظر التفسير الكبير (٢٦ / ١١ ـ ١٢) .

للعبادة دون سواه ، حمداً منه كما ينبغي له ، وأن الخلق لن يستطيعوا أن يحمدوه حق الحمد الذي يليق به ؛ لذلك لم يكلفهم أو يأمرهم بحمده مباشرة ، وإنما جعله من ذاته لذاته لنتعلم لم يحمد ؟ وبم يحمد ؟ وكيف يحمد ؟ .

ومن السور القرآنية التي جاءت مقررةً لوحدانية ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ « سورة الصافات » والتي هي من السور المكية المقررة لأهم القضايا ، وهي قضية التوحيد ، وقد بدأها ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ بقسم عظيم وهو قوله : ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ [الصافات : ١ ـ ٣] فقد أقسم ٱلله بملائكته ، واستحقت الملائكة أن يقسم ٱلله بهم لإثبات أكبر حقيقة في هٰذا الوجود ، وهي أنه الإلـٰه الواحد لا شريك له ، وكان القسم بهم لأنهم أقرب الخلق منه وأعرفهم به ، ثم عقب بعد ذٰلك بقوله : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ [الصافات : ٥] وفي ذٰلك دليل علىٰ أنه لو كان فيهما إلـٰه غيره سبحانه لفسدتا ، ثم أخذت السورة في ذكر أحوال المنحرفين عن طريق الهدىٰ ، وإثبات حقيقة يوم القيامة ، وحال الناس في ذٰلك اليوم وما يكون بينهم من الخصام علىٰ ما كان في الدنيا [1] ، ثم يقرر ٱلله معنىٰ الألوهية الحق له ـ سبحانه ـ بعد ذٰلك بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : ٣٥] فبسبب إعراضهم وجدالهم الباطل سيكون مصيرهم إلىٰ عذاب أليم ، وأما من أقر بذٰلك واعترف بالإلـٰه الحق ، وهو ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فسيكون مصيره إلىٰ النعيم المقيم ، ثم تصور لنا السورة الحوار الذي دار بين أهل الجنة وبين من كان يزعم أنه علىٰ الهدىٰ ، وأنكم أيها المتبعون لما جاء به الأنبياء علىٰ غير ذٰلك ، بقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ

(١) انظر أضواء البيان (٦ / ٣٠٢) .

لَتُرۡدِينِ ۝٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [الصافات : ٥٠ ـ ٦٠] فقد جاء هٰذا الخطاب بعد أن وصفت لنا السورة ما فيه أهل الجنة من النعيم الدائم ، ثم عند تذكرهم لبعض أحوال الدنيا ، وتساؤلهم عن قرناء السوء وما يشكلونه من خطر علىٰ الشخص في تشكيك لما هو عليه من الاستقامة والحقائق ؛ التي جاء الدين بتأكيدها كالبعث بعد الموت ، فعندها يفتح الحوار بينهم وبين أهل النار ، ويكون ذٰلك لزيادة تحسر أهل النار وزيادة نعيم أهل الجنة بما هم فيه ، وحمدهم لربهم أن ثبتهم علىٰ الهدىٰ .

ثم تستعرض السورة بعض قصص الأنبياء مع قومهم ، وما حصل بينهم من الحوار علىٰ تأكيد الألوهية الحقة لله من قبل الأنبياء ، وما قوبلوا به من جانب قومهم من الجحود والنكران .

والجو العام للسورة قائم علىٰ مبدأ الحوار بين الرسل وقومهم ، وأصحاب الجنة والنار ، والخطاب العام لكل من جحد ألوهية الباري ـ عز وجل ـ وهٰذا من عادة السور المكية القصيرة الآيات ، المقررة لمعنىٰ الوحدانية لله الحق .

وفي ختام السورة يقول ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ : ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠ ـ ١٨٢] فنجد أن ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ بعد أن أوضح أكبر الأدلة علىٰ وحدانيته ، ينزه نفسه عما قاله وما فعله المعاندون والمشركون له في عبادته ولم يعترفوا له بالألوهية فيقول : ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ ﴾ وفي تكرير صفة (الرب) في الآية تعظيم لله وتأكيد علىٰ أنه الواحد[1] ، لذٰلك ينبغي لكل ذي لب أن يعلم أنه لا يصلح لهٰذا الكون إلا إلٰه واحد ، فيجب عليه أن ينزهه عما لا يليق به ، وأن يعلم أن كل ما في هٰذا الكون هو ملك له لا شريك له فيه . يقول

---

(١) انظر التسهيل لعلوم التنزيل (٣ / ١٧٨) .

الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ينبغي للعاقل معرفة أحوال ، وهي : تنزيه وتقديس ٱلله عن كل ما لا يليق بصفات الإلـٰهية ، وهو لفظة (سبحان) ، ثم وصفه بكل ما يليق بصفات الإلـٰهية وهو قوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ وتفيد الاستغراق ، إذ كل الكل ملكاً له ولم يبق لغيره شيء ، فثبت أن قوله ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ كلمة محتوية علىٰ أقصىٰ الدرجات ، وأكمل النهايات في معرفة إلـٰه العالم »(١) .

ومعرفة ٱلله لا تكون إلا بأهدىٰ وأوضح طريق ، وعلىٰ يد أنصح الناس للبشرية وهم الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فكان بالسلام عليهم في قوله : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ تعريض بدورهم ، وبما قاموا به من نصح وهداية للناس ، وما تحملوه من المشاق في سبيل تبليغ دين ٱلله وتعريفهم بالإلـٰه الحق ، والذي لا ينبغي أن يكون معه شريك ، والذي استحق علىٰ ذٰلك من نفسه الحمد بقوله : ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فاستحقت هـٰذه السورة العظيمة أن تختم بهـٰذه الخاتمة ، والتي حمد ٱلله فيها نفسه علىٰ أكمل وأتم الصفات وهي صفة الألوهية ، ويلحظ المتأمل في هـٰذه الآية : أن ٱلله تعالىٰ حمد نفسه علىٰ صفاته الأخرىٰ والتي كلها صفات كمال ، فكان الحمد عليها ، وأيضاً حمد نفسه علىٰ عدم اتصافه بصفات النقص ، والتي نزه نفسه عنها بقوله : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ﴾ ، فكان الحمد علىٰ الإطلاق ، يقول ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وأما الحمد لله فيحتمل أن يريد به الحمد لله علىٰ ما ذكر في هـٰذه السورة من تنزيه ٱلله ونصرة الأنبياء وغير ذٰلك ، ويحتمل أن يريد الحمد لله علىٰ الإطلاق . . . . »(٢) .

ومن الآيات الدالة علىٰ وحدانية الخالق ـ عز وجل ـ وعلىٰ استحقاقه للحمد قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٦ / ١٧٣) .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي (٣ / ١٧٨) .

يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر : ٦٠ ـ ٦٤] وفي هٰذه الآيات الكريمات يبين ٱلله وحدانيته بعدة أمور ، منها : أنه أمر العباد بدعائه ووعدهم بالاستجابة ، لٰكن هناك شروط للاستجابة ، منها : أن يدعو المسلم وهو موقن بالإجابة وقيدها بالمشيئة ، أي : لمن شاء أن يستجيب له ، ويخرج من ذٰلك من تعدىٰ في الدعاء فهل يستجاب له ؟ ثم توعد من استكبر عن ذٰلك بأنه سيكون من الذين سيدخلون النار ، وفي الآية ربط بين الدعاء والعبادة ، ليبين لنا : أن الدعاء هو العبادة . عن النعمان بن بشير ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر : ٦٠][1] .

وبعد ذٰلك أخذت الآيات في إثبات ألوهية وربوبية الخالق ـ عز وجل ـ بذكر بعض مخلوقاته وفضائله علىٰ خلقه ؛ بأن جعل لهم الليل للراحة والهدوء والنهار لكسب العيش ، ثم عممت بأنه خالق كل شيء ، وعقبت بعده بكلمة التوحيد (لا إلـٰه إلا ٱلله) ليعلم من ذٰلك أنه الإلـٰه الواحد ـ سبحانه ـ ثم قال : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي : كيف تصرفون ، وتعدلون عن هٰذه الدلائل ، وتكذبون بها ، وأن من لم يتفكر في ذٰلك سوف يصرف عن الحق كما صرف غيرهم ، وهٰذه الدلائل في الآيات تنقسم إلىٰ قسمين ـ كما قال العلماء ـ[2] وهي إما

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤ / ٢٧١) ؛ وابن حبان باب : ذكر البيان بأن دعاء المرء ربه في الأحوال من العبادة التي يتقرب بها إلى الله (٣ / ١٧٢) ؛ والنسائي في الكبرى (٦ / ٤٥٠) ؛ وأبو داود باب : الدعاء (٢ / ٧٦) ؛ وابن ماجه باب : فضل الدعاء (٢ / ١٢٥٨) ؛ والترمذي باب : ومن سورة البقرة (٢ / ٢١١) وقال عنه : حسن صحيح ؛ وصححه الألباني : صحيح سنن أبي داود للألباني (١ / ٢٧٧) .

(٢) انظر البحر المحيط (٧/ ١٥٨) ؛ التفسير الكبير (٩/ ١١٢) .

دلائل الآفاق ، أو دلائل الأنفس ، فدلائل الآفاق كثيرة ، وهي كل ما عدا الإنسان ، كالسمٰوات والأرض والليل والنهار وغير ذٰلك ، ودلائل الأنفس كأحوال بدن الإنسان وأحوال نفسه ؛ التي لو تبصر فيها الإنسان دون غيرها من الدلائل ؛ لأيقن بقدرة ٱلله ، وعظيم خلقه ، ولنأخذ علىٰ سبيل المثال يد الإنسان ، وما أودعه ٱلله فيها من عجائب ، فلو نظرنا إلىٰ حركات اليد ، والتي تكون في اتجاهات متعددة ، ثم بجعلها بهٰذا الرونق الجميل المتناسق مع جسم الإنسان ، وبهٰذا الحجم الذي به تستطيع الوصول إلىٰ كل جزء في الجسم لغسله أو إزالة الضرر عنه ، وهٰذا مثال واحد ولو استطردنا في ذكر الأمثلة لطال بنا الكلام لأن نعم ٱلله في بدن الإنسان لا تحصىٰ فكيف بغيره ، ثم لننظر لأحوال الإنسان النفسية وما ينتابها من الغضب والفرح وغيرهما ، وفي ذٰلك دليل علىٰ أن الخالق والمدبر واحد ، وأنه ﴿ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فلا معبود بحق غيره سبحانه ، ولا حي قائم بكل هٰذه الدلائل التي يراها الإنسان في نفسه وفي الآفاق إلا هو ، فاستحق بذٰلك أن يكون الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ؛ الذي لا تنبغي العبادة لغيره ، ولا يصلح أن يكون هنالك رب غيره ، فكان حقاً أن يعقب علىٰ هٰذا كله بقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فكان حمداً منه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ ما وهب من النعم ، وعلىٰ ما أودعه من عجيب الخلقة في الإنسان وفيما حوله من مخلوقات ، وحمداً كذٰلك علىٰ أنه الإلٰه المستحق للعبادة ، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وأن ٱلله سبحانه محبوب مستحق للعبادة لذاته ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، ولا يجوز أن يكون غيره محبوباً معبوداً لذاته ، ويقول أيضاً : ولأنه مستحق للعبادة ، فهي نسبة شريفة إلىٰ العبد ، بل كون تعبده له فقط لأنه محمود ، ولأنه مستحق للعبادة ، وإنما ينبغي للعبد أن يفعلها لأنها نسبة شريفة ، وإلا فلو فعل العبد ما لا خير فيه كان مذموماً ، لٰكن يفرق بين من يكون قد عرف ٱلله معرفة أحبه لأجلها ، وبين من سمع مدح أهل المعرفة ، فاشتاق إلىٰ كونه منهم لما في ذٰلك من الشرف ، فإن هٰذا في الحقيقة

إنما مراده تعظيم نفسه ، وجعل المعرفة طريقاً إليها . . . . »[١] .

فالعبد يعبد ٱلله لحبه له ، ولأنه أحق أن يعظم ويجل ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « فالنفوس العلية الزكية تعبده ؛ لأنه أهل أن يعبد ويجل ويحب ويعظم ، فهو لذاته مستحق للعبادة ، قالوا : ولا يكون العبد كأجير السوء إن أعطي أجره عمل وإن لم يعط لم يعمل ، فهٰذا عبد الأجرة لا عبد المحبة والإرادة . . . . . »[٢] . ومن بلغ هٰذه المرتبة زكت نفسه ، وأصبح يتلذذ بعبادة ربه ، فتكون العبادة عنده كالنَّفَسِ الذي يتنفسه ، وكالماء البارد عند شدة العطش ، فعندها لو انكشف له الغيب ما زاده إيماناً ، لأنه قد بلغ المرتبة التي بلغها كبار الصحابة ، يقول علي بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ « لو انكشف الغطاء ما ازددت يقيناً »[٣] ، وما ذاك إلا لمعرفته بربه المستحق لمجامع الحمد والثناء ، والذي لو اجتمع أهل السماء والأرض ليحمدوه وليثنوا عليه ، ما بلغوا حق حمده الواجب له ، وحق الثناء عليه ، لٰكنه لكرمه علينا ، ولعلمه بعجزنا كفانا المؤونة عن ذٰلك ، وقبل منا القليل وتجاوز عن التقصير ، فله علىٰ ذٰلك الحمد والشكر ، فمن وفق لحمد ربه وشكره فليحمد ٱلله علىٰ ذٰلك ويشكره ، « لما أنزل علىٰ داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] قال : يا رب كيف أطيق شكراً وأنت الذي تنعم علي ، ثم ترزقني علىٰ النعمة الشكر ، ثم تزيدني نعمة بعد نعمة ، فالنعمة منك يا رب والشكر منك ، فكيف أطيق شكرك ؟ ! قال : (الآن عرفتني يا داود) ، فمن ذا الذي يقوم بشكر ربه الذي يستحقه سبحانه فضلاً عن أن يكافيه »[٤] ؟ ! وقيل : حمد ربنا نفسه في الأزل لما علم من كثرة

---

(١) درء تعارض النقل والعقل لابن تيمية (٦ / ٤١ ـ ٦٦) .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٧٣) .

(٣) سمط النجوم العوالي لعبد الملك بن حسين العاصمي (٣ / ٧٨) .

(٤) صيغ الحمد لابن القيم : ٢٩ .

نعمه علىٰ عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده ، فحمد نفسه عنهم لتكون النعمة أهنأ لديهم حيث أسقط عنهم به ثقل المنة[١] .

والحمد لا ينبغي إلا لله ـ عز وجل ـ فلا يحل لأحد أن يحمد نفسه علىٰ عمل صالح ؛ لأن ذٰلك محبط للعمل ، روىٰ الطبري في تفسيره قال : حدثني المثنىٰ قال : حدثنا إسحاق قال : حدثنا هشام أبو عبد الرحمـٰن قال : حدثنا بقية بن الوليد قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « من لم يحمد ٱلله علىٰ ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه قل شكره وحبط عمله ، ومن زعم أن ٱلله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل ٱلله علىٰ أنبيائه ، لقوله : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤][٢] » . وجاء النهي عن تزكية النفس وحمدها في قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [القمر : ٣٢] يقول ابن العربي : « إن البارئ تعالىٰ حمد نفسه وافتتح بحمده كتابه ، ولم يأذن في ذٰلك لأحد من خلقه ، بل نهاهم في محكم كتابه فقال ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ...﴾ »[٣] .

اللهم اجعلنا معترفين بنعمك شاكريها لك ، مثنين عليك الثناء الذي يرضيك عنا ، فنحن لن نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك ، ولا تجعلنا ممن يعجب بعمله ، ليلتمس من الناس الحمد ، أو يحمد نفسه فيحبط عمله .

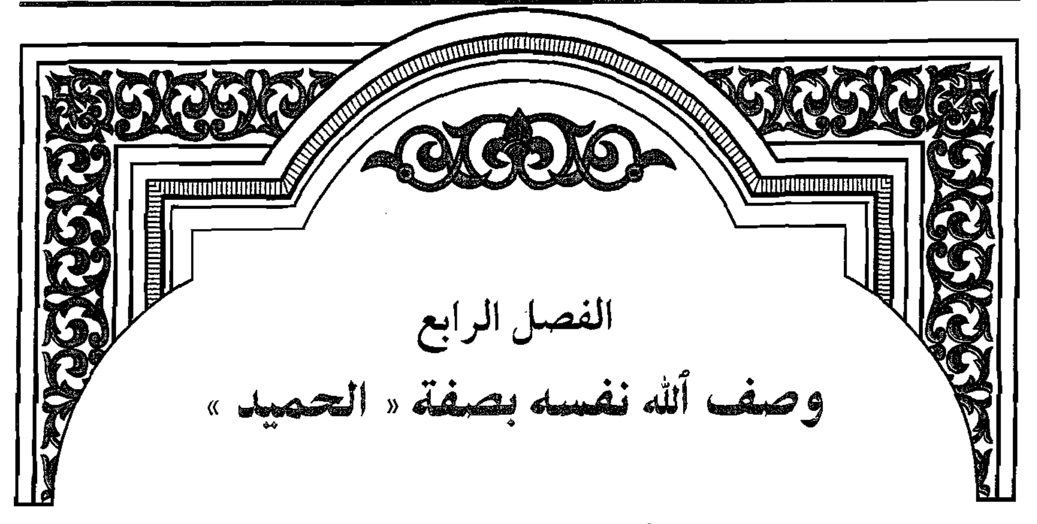
---

(١) انظر : تفسير القرطبي (١ / ١٣٥) ؛ تفسير السلمي (١ / ٣٥) .

(٢) تفسير الطبري (٨ / ٢٠٦) .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (١ / ٨) .





الفصل الرابع
وصف ٱلله نفسه بصفة « الحميد »

الحميد : من صفات ٱلله ـ تعالىٰ وتقدس ـ بمعنىٰ المحمود علىٰ كل حال ، وهو من الأسماء الحسنىٰ ، وفعيل بمعنىٰ محمود[١] .

وقيل : الحميد هو المحمود في أفعاله عند خلقه ، أو أنه أهل أن يحمد ، ويقال : حميد : يقبل القليل ويعطي الجزيل[٢] .

ونقول : إن الحميد هو المحمود بحمده لنفسه أزلاً ، وبحمد عباده له أبداً ، فٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد حمد نفسه في الأزل حمداً يليق به[٣] ، ثم حث عباده علىٰ حمده بعد أن أوجدهم ، ومنَّ عليهم بفضله ، فهو يعطي الجزيل علىٰ العمل القليل ، فمن حمده مقراً له بالربوبية المتفضلة بالنعم والألوهية المستحقة للعبادة ، فله بذٰلك الخير الكثير عند ربه ، ومن لم يحمد فليس بضارّه شيئاً ، لأنه وصف نفسه في كثير من الآيات بأنه ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ و﴿غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ ، وسأستعرض كل الآيات التي جاءت مختومة بهاتين الصفتين الشريفتين :

يقول ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا

---

(١) لسان العرب (٣ / ١٥٦) .

(٢) تفسير السمرقندي (١ / ٢٠٣) .

(٣) انظر : تفسير القرطبي (١ / ١٣٥) .

كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة : ٢٦٧] ، وفي هٰذه الآية التي ختمها ٱلله بوصف نفسه بـ(الغني الحميد) يحث عباده المؤمنين بالإنفاق المشروط ، وهو أن يكون من طيب الكسب ، أو مما أخرجت الأرض ، فحري بالمسلم أن يلتمس الطيب حتىٰ ينال بذٰلك البر ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٩٢] . وليحذر من إنفاق الرديء ، وفي هٰذه الآية يضرب ٱلله لنا المثل أنه لو عكس الأمر إليك ، فأعطيت الرديء الذي أعطيته ، فلن تقبله إلا عن إغماض أو حياء(١) ، ثم عقب ٱلله بعد ذٰلك بصفة (الغنىٰ) أي : أن ٱلله غني عنكم وعن نفقاتكم ، فمن أعطىٰ خيراً فلنفسه ، ومن لم يبذل الخير فعليها ، فهو سبحانه كما قال :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ...﴾ [البقرة : ٢٥٤] فٱلله ليس بحاجة لنفقاتنا ، ولٰكن لينقذ الإنسان نفسه في ذٰلك اليوم .

ثم ختم بصفة الحميد ليبين : أنه المحمود الحقيقي ، والمنعم الذي يستحق الحمد ، يقول أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (مستحق للحمد علىٰ نعمه العظام ، وقيل حامد بقبول الجيد والإثابة عليه . . .)(٢) ، ويقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وهو غني عن جميع خلقه ، وجميع خلقه فقراء إليه ، وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه ، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب ؛ فليعلم أن ٱلله غني واسع العطاء كريم جواد ، وسيجزيه بها ، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة ، وهو الحميد ؛ أي : المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، لا إلـٰه إلا هو ولا رب سواه . . . »(٣) .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (١ / ٣٢١) .

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١ / ٢٦١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١ / ٣٢٩) .

ومن الآيات الدالة على ربوبية ٱلله وغناه عن خلقه قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [النساء : ١٣١] فقد بدأ ٱلله هٰذه الآية بقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ أي : أن كل ما في الكون ملك له ، ثم عقب بأمره بتقواه كما أمر من كان قبلنا ، فإن اتقيناه فهو خير لنا ، وإلا سيكون المصير كما كان مصير السابقين ، فهو مالك الكون ، ولا يسأل عما يفعل ، فلا يضره كفر الكافرين ومعاصيهم ولا ينفعه إيمان من آمن وشكره ، وإنما وصاهم رحمة بهم .

ذكر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهٰذه الآية وجهين ، حيث قال : « والمعنىٰ أمرناهم وأمرناكم بالتقوىٰ ، وقلنا لهم ولكم : ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ وفيه وجهان :

الأول : أنه تعالىٰ خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها ، فحق كل عاقل أن يكون منقاداً لأوامره ونواهيه ، يرجو ثوابه ، ويخاف عقابه .

والثاني : أنكم إن تكفروا فإن لله ما في سمٰواته وما في أرضه من أصناف المخلوقات من يعبده ويتقيه ، وكان مع ذٰلك غنياً عن خلقهم وعن عبادتهم ومستحقاً ، لأن يحمد لكثرة نعمه ، وإن لم يحمده أحد منهم ، فهو في ذاته محمود سواء حمدوه ، أو لم يحمدوه »[1] .

وفي آية (سورة إبراهيم) وهي قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] يبين ٱلله نفس المعنىٰ السابق علىٰ لسان سيدنا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث بين لقومه ما أنعم ٱلله به عليهم ، وأن من شكر فله الزيادة والرضا ، ومن كفر فعليه الغضب وله الشقاء ، ثم بين أنهم لو كفروا هم ومن علىٰ وجه الأرض جميعاً فإن ربنا غني عن شكر عباده ، وهو

(١) التفسير الكبير للرازي (١١ / ٧٠) .

المحمود إن حمدوا أو لم يحمدوا . عن أبي ذر ـ رضي ٱلله عنه ـ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه قال : « يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ؛ ما زَادَ ذٰلك في مُلْكِي شيئاً ، يا عِبَادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ؛ ما نَقَصَ ذٰلك من مُلْكِي شيئاً . . . »[١] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحج : ٦٤] بعد أن عدد نعمه علىٰ عباده ولطفه بهم وملكه لما في السمٰوات والأرض ، بين أن ذٰلك ليس إلا رحمة بهم ، وأنه غني عنهم ، فهو كما قيل : الغني في حمده ، الحميد في غناه[٢] .

وكذٰلك عندما أمر ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لقمان في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : ١٢] أمره بالشكر له ـ وكما أسلفنا بأن الشكر يأمر به أما الحمد ، فلم يأمر به في القرآن مباشرةً ، وهـٰذا دليل علىٰ الفرق بينهما ـ وبيان أن الحكمة فضل من ٱلله يستحق عليها الحمد ، فمن حمد ربه وشكره فله الأجر العظيم منه ، ومن لم يشكر فإنه غني عن شكره حميد في أفعاله وعلىٰ صفاته التي كلها صفات كمال . يقول أبو السعود في تفسيره رحمه الله : « ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ عن كل شيء فلا يحتاج الىٰ الشكر ليتضرر بكفر من كفر ، ﴿ حَمِيدٌ ﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد ، أو محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال . . . »[٣] .

ويبين ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ الصفتين في نفس السورة عند قوله : ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [لقمان : ٢٦] وذٰلك عندما أخذ الإقرار

---

(١) الحديث بأكمله أخرجه الإمام مسلم باب تحريم الظلم (٤ / ١٩٩٤) برقم (٢٥٧٧) .

(٢) تفسير السعدي (١ / ٥٤٤) .

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٧ / ٧١) .

من المشركين علىٰ ربوبيته ، واعترافهم له بأنه الخالق ، ثم حمد نفسه بعد ذٰلك علىٰ ربوبيته ، وأنه خالق السمٰوات والأرض ، وختم الآية بهاتين الصفتين ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أي : ليسمع كل من سمع ، ويعلم كل من علم أني غني عنكم ، وعن إيمانكم وشكركم إن شكرتم وآمنتم ، ومحمود من نفسي بحمدي القديم الذي حمدت به نفسي قبل خلقكم ، وقبل حمد من حمد ، يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « (إن السمٰوات وما فيها والأرض وما فيها إذا كانت لله ومخلوقة له ، فالكل محتاجون ، فلا غني إلا ٱلله فهو الغني المطلق ، وكل محتاج فهو حامد لاحتياجه إلىٰ من يدفع حاجته ، فلا يكون الحميد المطلق إلا الغني المطلق فهو الحميد . . . »[1] .

ويقول ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] وفي هٰذه الآية يبين ٱلله افتقار الناس إليه جميعاً ، فلا يوجد مخلوق في هٰذا الوجود إلا وهو محتاج إلىٰ ربه ـ عز وجل ـ ، لٰكن ربنا ليس محتاجاً إلىٰ أحد ، لأنه وصف نفسه في ختام هٰذه الآية بأنه غني عن جميع خلقه ، مستحق للحمد منه لنفسه ، ومن خلقه إن حمدوا فهو خير لهم ، وإن لم يحمدوا ، فحمده قديم أزلي لنفسه من نفسه[2] .

وتتكرر صفتا ﴿ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ في القرآن الكريم في مواضع متعددة كما سبق وبينا العلاقة بين هاتين الصفتين ، وفيما سيأتي ما سنتكلم عنه بإيجاز ، فيقول تعالىٰ في (سورة الحديد) : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحديد : ٢٤] يقول البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « معناه ومن يعرض عن الإنفاق ؛ فإن ٱلله غني عنه وعن إنفاقه ، محمود في ذاته لا يضره الإعراض عن شكره ، ولا ينفعه التقرب إليه بشكر من نعَمَه ، وفيه

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٥ / ١٥٦) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٣ / ٥٥٢) ؛ تفسير أبي السعود (٧ / ١٤٨) .

تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق . . . »[١] .

ويقول تعالىٰ : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة : ٦] يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن معنىٰ ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ في هـٰذه الآية : « وقوله : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ يقول ـ تعالىٰ ذكره ـ ومن يتول عما أمره ٱلله به وندبه إليه منكم ومن غيركم ، فأعرض عنه ، وأدبر مستكبراً ، ووالىٰ أعداء ٱلله وألقىٰ إليهم بالمودة ؛ فإن ٱلله هو الغني عن إيمانه به وطاعته إياه وعن جميع خلقه ، الحميد عند أهل المعرفة بأياديه وآلائه عندهم . . »[٢] .

وأخيراً في الجمع بين هاتين الصفتين يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن : ٦] وكما هو الحال فيما سبق من الآيات ؛ التي ختمت بهاتين الصفتين نجد أن ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يبين غناه عن خلقه جميعاً ، وبخاصة الكفار الذين أعرضوا وتولوا عن الحق ، فهو لا ينفعه إيمانهم كما لا يضره كفرهم ، فهو الغني الحميد .

يقول العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ بسلطانه عن طاعة عباده ، أو بما أظهر لهم من البرهان عن زيادة تدعوهم إلىٰ الرشد ، ﴿غَنِىٌّ﴾ عن أعمالكم أو صدقاتكم ، ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحمد إلىٰ خلقه بإنعامه عليهم ، أو مستحق لحمدهم . . . . »[٣] .

وهو : « ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ لمن يمتثل أمره ولا يتخذ ولياً غيره ، مع غناه التام عن هـٰذا الإيمان والولاء ؛ لأن ذلك الحمد هو فضل وإحسان منه إلىٰ عباده »[٤] .

---

(١) تفسير البيضاوي (٥ / ١٩٠) .

(٢) تفسير الطبري (٢٨ / ٦٤) .

(٣) تفسير العز بن عبد السلام (٣ / ٣٢٥) .

(٤) الأسماء الحسنى ومناسبتها للآيات التي ختمت بها للدكتور / عبد الودود حنيف ص : =

خلاصة الكلام حول هاتين الصفتين :

من خلال استقرائي لهٰذه الآيات المشتملة علىٰ صفتي (الغني الحميد) ، وحسب اطلاعي المتواضع في بعض مصادر التفسير[1] عنها ، يتضح ما يلي :

أولاً : من قوله ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ أي : الذي له الغنىٰ المطلق الكامل من جميع الوجوه ، فهو غني عن إنفاق المنفقين ، وإقتار المقترين ، فلو أنفق الخلق جميعاً أو أمسكوا جميعاً فهو غني عنهم ، بل هم الفقراء إليه وإلىٰ رحمته ، ثم هو غني عن إيمان من آمن وكُفْرِ من كفر ، فلو آمن أهل الأرض جميعاً ما زاد ذٰلك في ملك ٱلله شيئاً ، ولو كفر أهل الأرض جميعاً ما نقص ذٰلك من ملكه شيئاً ، فالخلق هم المفتقرون إليه ، وإلىٰ مغفرته بتوبتهم ، وتقاهم ، وهو الغني كذٰلك عن حمد وشكر من أنعم عليه ، فإن شكر فلنفسه ، وإن كفر فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ، فما في السمٰوات والأرض إلا ملك له يتصرف به كيف شاء ، ولا يسأل عما يفعل بل هم المسئولون عن كل صغيرة وكبيرة ، قال تعالىٰ : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ : ١٨] .

ثانياً : من قوله ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أي : حميد في جميع ما خلق له الحمد في السمٰوات والأرض علىٰ ما خلق وشرع ، وهو المحمود علىٰ ما رزق وأنعم ، المحمود علىٰ ما تفضل به من هداية للمهتدين ، المحمود علىٰ ما وفق لحمد الحامدين ، المحمود علىٰ كونه رباً للعالمين ، المحمود علىٰ كل حال وبكل مقال ، فمن حمده وفق للخير ومن أعرض فهو غني عنه ، لأنه حمد نفسه بما هو أهل له ، فهو المحمود علىٰ صفات الجمال والكمال التي ليست لغيره ، ولذٰلك فإنه لا يحمد حمداً مطلقاً ، ولا يحب حباً مطلقاً ، ولا يعظم علىٰ

= ٣٥١ ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة أم القرى قسم الكتاب والسنة ولم تنشر .

(١) انظر : تفسير السعدي (١ / ٦٨٧) ؛ تفسير ابن كثير (١ / ٥٥١) ؛ روح المعاني (٢٢ / ١٠٣) .

الإطلاق إلا ٱلله ؛ لأن له الجلال والجمال والكمال المطلق ، وليس ذٰلك لأحد من الخلق ، فمن ذا الذي يحصي ثناءً عليه ، وإن كان أفضل الخلق ، وأعلمهم به ؟ !

فنخلص إلىٰ أن اقتران هاتين الصفتين عقب هٰذه الآيات كان من أنسب ما يكون ، فربنا لا يأتي بكلمة في كتابه إلا وهي في غاية الحسن والترتيب والنسق ، فهو الحكيم في قوله وفعله ، فله بذٰلك الحمد والشكر .

ومن الصفات التي اقترنت بها صفة (الحميد) صفة (العزيز) ، فقد جاءت آيات كريمات في كتاب ربنا مختومة بهاتين الصفتين الشريفتين ، وهي :

قوله تعالىٰ : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١] وهٰذه الآية هي مطلع « سورة إبراهيم » ، بيان المنهج الذي ينبغي لكل إنسان أن يتبعه وهو الصراط المستقيم ؛ الذي فيه سعادة البشرية قاطبة ، فقد بين ربنا ـ عز وجل ـ بأنه أنزل الكتاب بعزته ، وفي إنزاله للكتاب هداية للخروج من الظلمات إلىٰ النور ، فاستحق علىٰ ذٰلك الحمد من نفسه ومنهم ، يقول ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « (العزة والحمد) صفتان لائقتان بهٰذا الموضع ، فالعزة من حيث الإنزال للكتاب ، وما في ضمن ذٰلك من القدرة ، واستيجاب الحمد من جهة بث هٰذه النعم علىٰ العالم في نصب هدايتهم »[(١)] .

وفصل أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذٰلك بقوله : « (قوله : ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ فيه إبهام أوضحه بقوله : ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ﴾ ، ولما تقدم شيئان أحدهما : إسناد إنزال هٰذا الكتاب إليه ، والثاني : إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور بإذن ربهم ، ناسب ذكر هاتين الصفتين ، صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة ، وذٰلك من حيث إنزال الكتاب ، وصفة الحمد المتضمنة استحقاقه الحمد من حيث

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣ / ٣٢٢) .

الإخراج من الظلمات إلىٰ النور ؛ إذ الهداية إلىٰ الإيمان هي النعمة التي يجب علىٰ العبد الحمد عليها والشكر »[١] .

وفي (سورة سبأ) يذكر ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ هاتين الصفتين في ختام هـٰذه الآية ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ : ٦] وفي هـٰذه الآية يبين لنا ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن من يؤتىٰ العلم فهو علىٰ بصيرة من ربه ، فهو يفرق بين الحق والباطل ، ويعلم علم اليقين أن ما أنزل علىٰ محمد ﷺ إنما هو الحق من ربه ، ومن تبع هـٰذا الحق فهو هاديه إلىٰ صراط مستقيم ، وهو صراط العزيز الحميد[٢] .

وفي تقديم صفة العزيز علىٰ صفة الحميد تساؤل ، وهو : لِمَ قدم صفة (العزة) وهي للرهبة علىٰ صفة (الحميد) وهي للرحمة ؟ ويجيب علىٰ هـٰذا الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول : « (كونه عزيزاً تام الهيبة ، شديد الانتقام ، يقوي جانب الرغبة ؛ لأن رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك ، فالعزة كما تخوف ترجىٰ أيضاً ؛ وكما تُرَغِّبُ عن التكذيب تُرَغِّبُ في التصديق ليحصل القرب من العزيز . . »[٣] .

وفي سورة البروج يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] وهـٰذه الآية جاءت بعد ذكر قصة أصحاب الأخدود ، وما فُعِل بالمؤمنين الذين آمنوا بٱلله ، فكان المعيب عليهم ، والمنقم منهم هو إيمانهم بٱلله .

وذكر الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلاماً نفيساً حول اقتران هاتين الصفتين ببعضهما في ختام هـٰذه الآية ، حيث قال : « والإتيان هنا بصفتي ٱلله تعالىٰ ﴿ ٱلْعَزِيزِ

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٥ / ٤٠٣) .

(٢) انظر تفسير السعدي (١ / ٦٧٥) .

(٣) التفسير الكبير للرازي (٢٥ / ٢٤٣) .

ٱلْحَمِيدِ﴾ إشعار بأنه سبحانه قادر علىٰ نصرة المؤمنين والانتقام من الكافرين ؛ إذ العزيز هو الغالب ، وجاء وصفه بالحميد لأمرين :

الأول : أن المؤمنين آمنوا رغبة ورهبة ، رغبة في الحميد الودود ، ورهبة من العزيز ، كما في قوله : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج : ١٢] وهـٰذا كمال الإيمان رغبة ورهبة ، وأحسن حالات المؤمن .

الثاني : حتىٰ لا ييئس أولـٰئك الكفار من فضله ورحمته كما قال : ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج : ١٠] إذ أعطاهم المهلة من آثار صفته الحميد سبحانه ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان : ٢] تأكيد وبيان ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ إذ لا يخرج عن سلطانه أحد . . . . »[1] .

ومن ذٰلك نخلص إلىٰ أن في اقتران (صفة العزة بصفة الحمد) بيان : أن ٱلله غفور رحيم شديد العقاب ، وهو بذٰلك محمود علىٰ هـٰذا كله من حمْده لنفسه ، ومن حمْد خلقه له .

أما في قوله تعالىٰ : ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج : ٢٤] و(الحميد) هنا لها معنيان ، إما : هو وصف للصراط ، وأنه حميد في سلوكه وحميد في غايته ، أو : هو ٱلله ، وقد أضاف الصراط إليه لأنه مالكه ، ويجازي كل من سلكه بالخير والأجر العظيم ثم الجنة ، ومنهم من جمع بين القولين ، قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللهُ : « المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة ، وقيل : المراد بالحميد الحق المستحق لذاته لغاية الحمد وهو ٱلله ـ عز وجل ـ وصراطه الإسلام ، ووجه التأخير حينئذ : أنَّ ذكر الحمد يستدعي ذكر المحمود . . . »[2] .

وفي « سورة فصلت » جاءت صفة أخرىٰ مقترنة بصفة (الحميد) وهي

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٨ / ٤٨٦) .

(٢) تفسير أبي السعود (٦ / ١٠٢) .

(صفة الحكمة) ، حيث قال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] فقد ذكر ـ عز ذكره ـ أن القرآن لا يتطرق إليه الباطل ولا يجد إليه سبيلاً ، ولا يمكن أن تكذبه الكتب المنزلة من عند ٱلله ، بل هو محفوظ بحفظ قائله ـ عز وجل ـ فقد قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] ، يقول أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ ﴾ أي : حاكم أو محكم لمعانيه ، ﴿ حَمِيدٍ﴾ محمود علىٰ ما أسدىٰ لعباده من تنزيل هٰذا الكتاب وغيره من النعم »[١] ، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « إن مجرد الفعل من غير قصد ولا حكمة ولا مصلحة يقصده الفاعل لأجلها ؛ لا يكون متعلقاً للحمد فلا يحمد عليه ، حتىٰ لو حصلت به مصلحة من غير قصد الفاعل لحصولها لم يستحق الحمد عليها ، بل الذي يقصد الفعل لمصلحة وحكمة وغاية محمودة ، وهو عاجز عن تنفيذ مراده ؛ أحق بالحمد من قادر لا يفعل لحكمة ولا لمصلحة ولا لقصد الإحسان ، هٰذا المستقر في فطر الخلق ، والرب سبحانه حمده قد ملأ السمٰوات والأرض وما بينهما . . . . »[٢] .

وفي سورة الشورىٰ تأتي هٰذه الصفة مسبوقةً بصفة(الولي) في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورىٰ : ٢٨] يقال : إن الولي هو المالك ، فمن كان يملك التصرف في أمور الكون فهو مالك له ، فإنزال الغيث من التصرف فيه ، فناسب أن يكون بعدها ذكر الولي المالك لهٰذا الكون[٣] ، ثم ناسب بعد ذٰلك قوله : ﴿ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي : المحمود مَنْ هٰذا فعله في رحمة عباده ، خاصة عند يأسهم وقنوطهم وظن أن الهلاك بهم ولا منقذ لهم ، فعندما تأتي الرحمة من ٱلله يكون فضلاً ومنة يستحق عليها الحمد والشكر ، يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « يقول ـ تعالىٰ

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٧ / ٥٠١) .

(٢) شفاء العليل لابن القيم (٢٢١) .

(٣) انظر تفسير العز بن عبد السلام (٣ / ١٤٣) .

ذكره ـ وٱلله الذي ينزل المطر من السماء فيغيثكم به أيها الناس ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ يقول من بعد ما يئسوا من نزوله ومجيئه ، ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ يقول : وينشر في خلقه رحمته ، ويعني بالرحمة : الغيث الذي ينزله من السماء ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ يقول : وهو الذي يليكم بإحسانه وفضله الحميد بأياديه عندكم ، ونعمه عليكم . . »[١] .

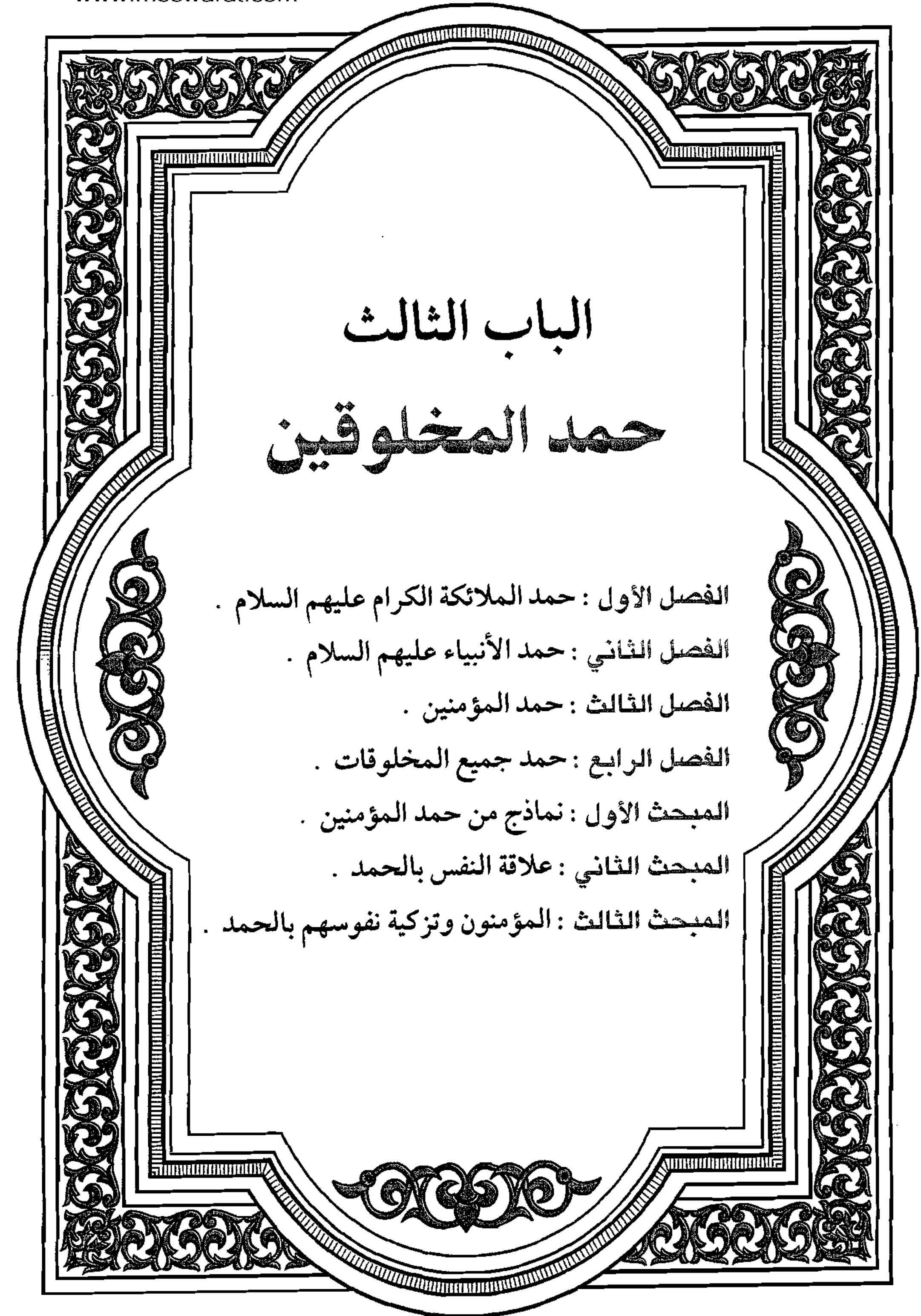
وفي كل ما سبق من الآيات جاءت صفة (الحميد) مسبوقةً بصفة أخرىٰ تناسب سياق الآية ؛ إلا في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود : ٧٣] ، فقد جاءت سابقة لصفة أخرىٰ ، وهي (صفة المجيد) ، وفيها البشارة التي أتت بها الملائكة لإبراهيم وزوجه بعدما أزالوا عنه وعنها التخوف بعدم الأكل ، ثم أصابها التعجب من الخبر بالولد ، وهما علىٰ سن الكبر ، فقالوا لها : ﴿ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ أي : كيف تعجبين من هـٰذا الأمر وهو من أمر ٱلله ؟ ! ﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ وهـٰذه كذٰلك بشارة برحمة ٱلله عليهم ، ثم بعد هـٰذا عقب (بصفة الحميد وصفة المجيد) فهو المحمود علىٰ كل حال وبكل لسان ، وهو المجيد صاحب الشرف والكمال في صفاته وأفعاله .

يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللهُ : « والحميد هو : المحمود ، وهو الذي تحمد أفعاله ، والمجيد : الماجد ، وهو ذو الشرف ، وأنه تعالىٰ قادر علىٰ كل شيء ، وأنه حميد مجيد ، فكيف يبقىٰ هـٰذا التعجب في نفس الأمر ؟ ! فثبت : أن المقصود من ذكر هـٰذه الكلمات إزالة التعجب . . . . »[٢] .

---

(١) تفسير الطبري (٢٥ / ٣١) .

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٨ / ٢٨) .



الباب الثالث

حمد المخلوقين

الفصل الأول : حمد الملائكة الكرام عليهم السلام .

الفصل الثاني : حمد الأنبياء عليهم السلام .

الفصل الثالث : حمد المؤمنين .

الفصل الرابع : حمد جميع المخلوقات .

المبحث الأول : نماذج من حمد المؤمنين .

المبحث الثاني : علاقة النفس بالحمد .

المبحث الثالث : المؤمنون وتزكية نفوسهم بالحمد .



وفي هـٰذا الباب سأتعرض لحمد المخلوقين لخالقهم ـ عز وجل ـ ، واعترافهم له بنعمه العظيمة عليهم ، حيث أوجدهم من العدم ، ومنّ عليهم بنعم كثيرة لا تحصىٰ ، ثم وفق بعضهم وهداه لحمده ، فكانت تلك منَّة منه أن وفقهم للحمد تستحق عليها الحمد ، وعلىٰ تباين الخَلْقِ في الخِلْقَةِ ، والخُلُقِ يتباين كذٰلك حمدهم لربهم ـ تبارك وتعالىٰ ـ فنجدهم كالتالي :

أولاً : حمد الملائكة الكرام عليهم السلام :

والملائكة الكرام هم خلق من خلق ٱلله ، ولهم جانب من مدحه الذي جاء عنهم في القرآن الكريم ، وحمدهم لربهم ليس من باب التكليف ، بل هو من باب التلذذ لأنهم لا يحاسبون ، فقد خلقهم ٱلله لعبادته ولطاعته ، فهم لا يعصون ٱلله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

ثانياً : حمد الأنبياء عليهم السلام :

والأنبياء عليهم السلام حمدوا ٱلله تعالىٰ اعترافاً منهم بأنه يعلم ما لا يعلمون ، وبفضله عليهم ، وقد انقسم حمد الأنبياء إلىٰ قسمين ، هما :

أولاً : حمدهم له علىٰ ما منَّ به من النعم عليهم ظاهراً وباطناً .

ثانياً : أمر ٱلله لهم بالحمد المسبوق بالقولية ، أو التسبيح جاءت موضحة في القرآن الكريم .

ثالثاً : حمد المؤمنين :

معرفة المؤمنين بربهم ليست كمعرفة الملائكة ولا الأنبياء عليهم السلام فكان الواجب عليهم المداومة علىٰ حمد ربهم ؛ لترتفع منازلهم عند خالقهم ـ عز وجل ـ ولترتقي أنفسهم بذٰلك ، فالعبد إذا أثنىٰ علىٰ سيده ، وكان كثير التملق بين يديه ارتفعت مكانته عنده علىٰ غيره من العبيد ، وكذٰلك إذا أثنىٰ المؤمن علىٰ ربه ومدحه بما يستحقه من المدائح ، ارتفعت مكانته عند ربه ، فتزكو نفسه ، وترتقي في عالم العارفين بربهم لينالوا الخير في الدارين .

وانقسم حمد المؤمنين إلىٰ ثلاثة أقسام ، هي :

أولاً : حمدهم في الدنيا .

ثانياً : حمدهم عند الخروج من قبورهم .

ثالثاً : حمدهم في الآخرة .

وسأتكلم عن ذٰلك بالتفصيل ، مستعيناً بألله وبما يفتحه عليَّ من مفاتيح علمه ، وبما قاله سلفنا الصالح ـ رحمهم ألله رحمة واسعة ـ وأسكنهم فسيح جناته .

رابعاً : حمد جميع المخلوقات :

وقد ورد الحمد في القرآن من جميع الخلق ، وذلك في آية واحدة من كتاب ألله ـ تبارك وتعالىٰ ـ في « سورة الإسراء » عند قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء : ٤٤] .

ثم ختمت هٰذا الباب بثلاثة مباحث ، وهي :

المبحث الأول : نماذج من حمد المؤمنين :

وقد قمت في هٰذا المبحث بذكر بعض الأقوال الواردة عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان في الحمد ، وذكر نماذج من حمدهم لربهم ، وهو من باب حبهم في زيادة الخير ، والتوصل إلىٰ تمجيد ربهم ؛ لعلمهم أن

ربهم ـ عز وجل ـ يحب المدح ، فدفعهم ذٰلك لزيادة مدحه كي يزدادوا رفعة عنده .

المبحث الثاني : علاقة النفس بالحمد :

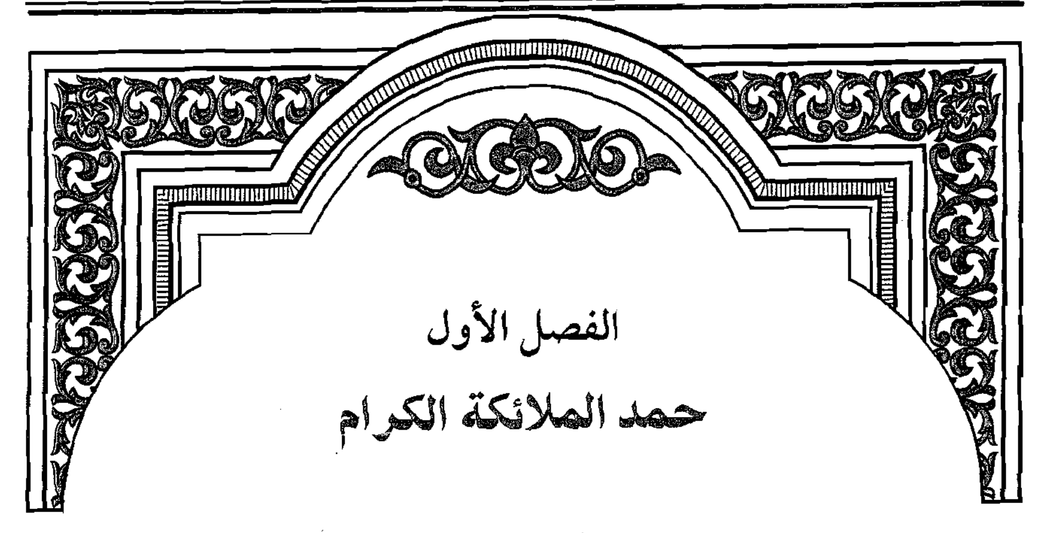
وقد بينت فيه العلاقة التي تحصل للنفس عن ارتباطها وتعلقها بالحمد الذي هو حق لربها ، وأن هـٰذا غريزة فيها بفطرتها التي فطرها ٱلله عليها ، وأنها لا تهدأ أبداً إلا بحمد ربها ؛ الذي تفضل عليها بنعمه العظيمة ما دامت علىٰ الفطرة .

المبحث الثالث : المؤمنون وتزكية نفوسهم بالحمد :

وفي هـٰذا المبحث سأركز الحديث علىٰ كيفية تزكية نفس المؤمن بالحمد ، فإذا استشعر المؤمن بأن هـٰذه النعم التي يتقلب فيها ليلاً ونهاراً إنما هي من ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ؛ فإنه سيعترف لمسديها بالحمد والثناء قولاً وفعلاً ، ومتىٰ بلغ هـٰذه المرتبة سمت نفسه وارتقت ؛ حتىٰ تصبح في بعد عن الرذائل والدنايا .

✍ ✍ ✍





الفصل الأول
حمد الملائكة الكرام

« الملائكة جمع ، مفردها مَلَك ، وقيل : المَلك واحد الملائكة ، وهو تخفيف من الألوك ، وقيل : أصله مألك بتقديم الهمزة من الألوك ، وهي الرسالة »(١) .

والملائكة هم عباد الرحمٰن الذين خلقهم ٱلله لعبادته وطاعته ، فهم كما أخبر عنهم ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بقوله : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] .

وهم خلق من خلق ٱلله الذين يسبحون بحمده ، ويلهجون بذكره ، وقد آثرت أن أبدأ بالحديث عنهم في أول مراتب الخلق الحامدين لربهم ، وذٰلك لقربهم منه ـ عز وجل ـ ، فحملة العرش هم أقرب الخلق من ربهم ، وفي هٰذا المكان العظيم الشريف يحمدون ربهم ، ويسبحونه ، ويستغفرون للمؤمنين ، فمن عظم وشرف المكان عَظُمَ وشَرُف هٰذا الذكر ، وهو (حمد ٱلله) وغيره مما يذكر في هٰذا المكان ، فقد أخبر ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عنهم بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر : ٧] ، وهٰؤلاء الملائكة هم من المفضلين علىٰ سائر الملائكة ،

(١) لسان العرب لابن منظور (١٠ / ٤٩٦) .

عن جابر بن عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : قال النبي ﷺ : « أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلىٰ عاتقه مسيرة سبعمئة عام »[١] ، وهٰذا دليل علىٰ عظمة خلقهم ، فكيف بخالقهم ـ عز وجل ـ ؟ ! ثم إن هٰؤلاء الملائكة هم أفضل الملائكة ، وما ذاك إلا لقربهم من ربهم عز وجل فقد خصهم بأعظم شرف ، وهو حمل عرش ربهم .

والملائكة الكرام عليهم السلام في هٰذا المكان الشريف هم في ذكر دائم لله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ، فهم بين التسبيح والتحميد ، ثم الاستغفار للمؤمنين التائبين ، ويا فوز من استغفرت له الملائكة ؛ وهي في ذٰلك المكان الشريف ، فحري بكل مسلم يسمع مثل هٰذه الآيات أن يبادر بالتوبة لله ـ عز وجل ـ كي ينال شرف استغفار الملائكة له في هٰذا المكان .

وما ألهم ربنا ـ عز وجل ـ ملائكته إلىٰ هٰذه الأذكار في هٰذا الموطن إلا لشرفها ولفضلها ، فالتسبيح عبارة عن تنزيه ٱلله تعالىٰ عما لا ينبغي[٢] ، والتحميد : الاعتراف بأنه هو المنعم علىٰ الإطلاق[٣] ، فالتسبيح إشارة إلىٰ الجلال ، والتحميد إشارة إلىٰ الإكرام ، كما ذكر عن الملائكة أنهم (يؤمنون به) فما الفائدة من ذٰلك ؟ ونحن نعلم أن الملائكة مؤمنون بلا شك ولا ريب ، ولعل النكتة في ذٰلك : أنه ذكر الإيمان لفضله ولشرفه والترغيب فيه ، وفي الآية تسلية وترغيب لكل من يسمعها من المؤمنين بداية بالرسول ﷺ إلىٰ آخر مؤمن في الدنيا ، يقول أبو السعود رحمه الله : « والجملة استئناف مسوق لتسلية رسول ٱلله ﷺ ببيان أن أشراف الملائكة عليهم السلام مثابرون علىٰ ولاية من معه من

(١) قال ابن حجر : أخرجه أبو داود وابن أبي حاتم من رواية إبراهيم بن طهمان عن محمد بن المنكدر ، وإسناده على شرط الصحيح ، انظر فتح الباري (٨ / ٦٦٥) ، وصححه الألباني ، انظر السلسلة الصحيحة (١ / ٢٣٢) .

(٢) انظر لسان العرب (٢ / ٤٧٤) .

(٣) المرجع السابق (٣ / ١٥٦) .

المؤمنين ، ونصرتهم ، واستدعاء ما يسعدهم في الدارين ، وينزهونه تعالىٰ عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل ؛ متلبسين بحمده علىٰ نعمائه التي لا تتناهىٰ »[١] .

وحملة العرش ثمانية ، كما جاء في بعض الروايات : « حملة العرش ثمانية . . . » كما قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] .

وفي الآية كذٰلك علاقة وطيدة بين الملائكة والمؤمنين ، وهي علاقة الإيمان ، حيث وصف ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ الملائكة بالإيمان الذي كان سبباً لاستغفارهم لمن شابههم في هـٰذه الصفة من البشر ، وهم المؤمنون التائبون .

فإن ٱلله لم يقيض هـٰؤلاء الملائكة للاستغفار للمؤمنين إلا لبيان فضله ، وفضل ما يذكر معه من أذكار كالتسبيح والحمد ؛ الذي هو حق لربنا من ملائكته في أشرف مكان عنده .

ونظير هـٰذه الآية ما ورد في « سورة الشورىٰ » عند قوله تعالىٰ : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورىٰ : ٥] في هـٰذه الآية الكريمة بيان حال السمـٰوات وشدة خوفها من الجليل ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فهي تكاد أن تتقطع رهبةً وخوفاً منه ، ثم يأتي بعد ذٰلك قوله : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ وبين أول الآية وآخرها مناسبة ، وهي : مع أن السمـٰوات في غاية الخوف والإجلال له ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كذٰلك سكانها في غاية الخوف منه والإجلال فهم يسبحون بحمد ربهم ، وينزهونه عما لا يليق بجلاله ، وإثبات كل كمال له[٢] .

---

(١) تفسير أبي السعود (٧ / ٢٦٧) .

(٢) انظر : تفسير السعدي (١ / ٧٥٣) .

وقيل : تكاد السمٰوات يتفطرن مما ادعاه بنو آدم من قولهم : اتخذ ٱلله ولداً ، فإن قيل : إن كان كذٰلك ، فما وجه تسبيح الملائكة بحمد ربهم بعد ذٰلك ؟ يقول ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره : « فإن قيل ما وجه اتصال قوله : ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ﴾ بما قبلها ؟ فالجواب : إن فسرنا تفطر السمٰوات بأنه من عظمة ٱلله ؛ فإنه يكون تسبيح الملائكة أيضاً تعظيماً له فينتظم الكلام ، وإن فسرنا تفطرها بأنه من كفر بني آدم ، فيكون تسبيح الملائكة تنزيهاً لله تعالىٰ عن كفر بني آدم . . . . »[١] .

ومن حمد الملائكة كذٰلك ما ورد في « سورة البقرة » عند قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] وذٰلك عندما أراد ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن يجعل في الأرض خليفة ، ويقول العلماء : إن كلمة « جعل » في القرآن بمعنىٰ خلق[٢] ، أي : أن ٱلله سيخلق خلقاً يسكنهم الأرض ، ومعنىٰ خليفة في الآية : أي يخلف غيره أو يخلفه غيره . والخلق جعلهم ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ﴿خَلَـٰٓئِفَ﴾ في الأرض ، يخلف بعضهم بعضاً[٣] .

ثم يأتي بعد ذٰلك تعجب الملائكة مما أخبرهم ٱلله به ، وهو الاستخلاف في الأرض ، وما كان ذٰلك التعجب لاعتراض ـ حاشاهم عن ذٰلك ـ إنما لما حصل في الأرض قبل خلق الإنسان بألفي عام ، حيث إن ٱلله خلق الجن ، وأسكنهم في الأرض ففسدوا وسفكوا الدماء ، فعاقبهم ٱلله بأن أرسل لهم جنداً من الملائكة ؛ فطردوهم إلىٰ جزائر البحور[٤] ، فكان استغرابهم وتعجبهم من

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي (٤ / ١٧) .
(٢) انظر : تفسير القرطبي (١/ ٢٦٣) .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير (١ / ٧٠) .
(٤) انظر : تفسير السمرقندي (١ / ٦٧) وتفسير البغوي (١ / ٦١) .

ذلك هو أن من سيكون في الأرض سيفسد كما أفسد من كان قبلهم ، ثم قالت الملائكة ﴿وَنَحْنُ﴾ وهي كما قال عنها الزمخشري رحمه الله : « للحال كما تقول : أتحسن إلىٰ فلان وأنا أحق منه بالإحسان ؟ ! »[١] فنحن في حال تسبيح وتقديس ، فبهٰذا نكون أحسن ممن أفسد وسفك الدماء .

وقوله : ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي : حالنا نسبح حامدين لك متلبسين بحمدك علىٰ ما أنعمت به علينا من النعم التي لا تحصىٰ ، فحق للملائكة أن يحمدوا ربهم ، وأن لا تفتر ألسنتهم عن ذكره وحمده وشكره علىٰ ما أولىٰ به من النعم عليهم ، فقد قربهم منه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وخلقهم لعبادته ، وهيأهم علىٰ عدم عصيانه ، كما قال عنهم ـ وهو أعلم بهم ـ : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل : ٥٠] ، ثم خلقهم كذٰلك من دون شهوة توقعهم في المعاصي كغيرهم ، كل ذٰلك كان فضلاً منه ونعمةً علىٰ الملائكة استحق عليها وافر الحمد والثناء ، فهو أهل لأن يحمد ويثنىٰ عليه من الملائكة ومن غيرهم من الخلق ؛ لما تفضل به من جزيل النعم التي لا يحصيها إلا هو ـ عز وجل ـ فلولا لطفه وفضله لم يتمكن عبد من عبادته ، فلو لم يكن سوىٰ التوفيق للعبادة لكفىٰ به نعمة يستحق الحمد عليها ، ليلاً ونهاراً .

ثم بعد هٰذا الحوار الذي دار بين رب العزة سبحانه وبين ملائكته ، رد عليهم بقوله : ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي : أنا أعلم من المصالح ما خفي عنكم ولم تعلموه . وقيل معنىٰ ذٰلك : هو أن الله عالم بما في نفس إبليس من التعجب والتكبر حينما جعله الله خازن السماء الدنيا ، وكذٰلك كان مع الملائكة الذين قاتلوا الجن الذين أفسدوا في الأرض[٢] ، فلما رأىٰ ذٰلك دخله العجب والكبر ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي : أنه سيكون هناك من لا يسبح بحمدي ، وقد علمت ما في نفسه يعني « إبليس » . يقول

(١) الكشاف للزمخشري (١ / ١٥٤) .
(٢) انظر : تفسير ابن عطية (١ / ١١٩) ، وتفسير القرطبي (١ / ٢٧٤) .

ابن القيم رحمه الله : « إن الملائكة أتقىٰ لله من أن تقول ما لا تعلم ، وهم القائلون : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ ، وفي هـٰذا دلالة علىٰ أن ٱلله قد كان أعلمهم أن بني آدم سيفسدون في الأرض ، وإلا فكيف كانوا يقولون مالا يعلمون »[١] ؟ ! وقد ذكر ابن عطية رحمه الله في تفسيره كلاماً نفيساً حول قوله : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ حيث قال : « وقولهم : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ قال بعض المتأولين : هو علىٰ جهة الاستفهام ، كأنهم أرادوا ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أم نتغير عن هـٰذه الحال ، وهـٰذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم ﴿ أَتَجْعَلُ ﴾ . وقال آخرون : معناه التمدح ووصف حالهم ، وذٰلك جائز لهم ، كما قال يوسف عليه السلام : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وهـٰذا يحسن مع التعجب والاستعظام لأن يستخلف ٱلله من يعصيه في قولهم ﴿ أَتَجْعَلُ ﴾ وعلىٰ هـٰذا أدبهم بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وقال قوم : معنىٰ الآية ونحن لو جعلتنا في الأرض ، واستخلفتنا نسبح بحمدك ، وهـٰذا أيضاً حسن مع التعجب والاستعظام في قولهم ﴿ أَتَجْعَلُ ﴾ »[٢] .

وقيل : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ معناه نخلط التسبيح بالحمد ، ونصله به ، ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ اعتراضاً بين الكلامين ، كما قالوا : ونحن نسبح ونقدس ، ثم اعترضوا علىٰ جهة التسليم ، أي : وأنت المحمود في الهداية إلىٰ ذٰلك ، ذكره ابن عطية[٣] . وقول الملائكة : ﴿ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أي : نصلي لك ، فصلاة الخلق كلها هو قول : (سبحانك اللهم وبحمدك) وعليها يرزقون إلا الآدميين ، ذكر ذٰلك البغوي عن الحسن[٤] . وروي : أن الملائكة هم مَنْ علّم آدم الحمد ، وذٰلك بعد أن أمر ٱلله بخلقه من طين لازب ، ثم أصبح

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١ / ١٢) .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية (١ / ١١٨) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

كالفخار ، ومكث علىٰ ذٰلك أربعين سنة ، ثم نفخ فيه ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ من روحه ، فلما بلغت الروح رأسه عطس ، فقالت الملائكة : قل : (الحمد لله) فقال : (الحمد لله) فقال له ٱلله : (يرحمك ربك)[1] . وفي هٰذا دليل علىٰ فضل الحمد ، حيث إن الملائكة قد لهجت به لتعلمه آدم ؛ ليكون أول ما يلفظه لسانه هو قول : (الحمد لله) ، فما أعظمه من ذكر ، وما أكرمهم من معلمين لخير مُتَعَلِّمٍ ، وما أجله من مشمت !

ومن الآيات التي ورد فيها تسبيح الملائكة مع الحمد ، قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد : ١٣] وقد ورد الخلاف حول الرعد وتسبيحه ، لٰكن الذي يهمني علىٰ وجه العموم هو الحمد من المخلوقين ، ثم علىٰ وجه الخصوص حمد الملائكة الكرام ، فأقول ـ وبٱلله التوفيق ـ : ذكر بعض العلماء : أن الرعد عبارة عن ملك من الملائكة موكل بسوق السحاب ، حيث أمره ٱلله وممن ذكر هٰذا القول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول : « ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ (الرعد اسم ملك من الملائكة ، وهٰذا الصوت المسموع هو صوت ذٰلك الملك بالتسبيح والتهليل ، عن ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ : أن اليهود سألت النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال : (ملك من الملائكة ، موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء ٱلله) قالوا : فما الصوت الذي نسمع ؟ قال : (زجره السحاب) »[2] ، وهٰذ القول غير مستبعد وإن كان قد اعترض عليه بعضهم

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٧٩) .

(٢) التفسير الكبير للرازي (١٩ / ٢٥) ، والحديث بأكمله رواه النسائي في الكبرى عند باب : كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل (٥ / ٣٣٦) ، كذلك رواه الترمذي عند باب : ومن سورة الرعد (٥ / ٢٩٤) ، وقال : حديث حسن غريب ، وقال الألباني : حسن الإسناد ، الصحيحة (٤ / ٤٩١) .

بقولهم : « الرعد ليس من الملائكة ، وإنما هو خلق من خلق ٱلله »[١] ، وكانت حجتهم في ذٰلك كيف يكون من الملائكة ، وقد عطف عليه الملائكة في نفس الآية عند قوله : ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ...﴾ ، والرد عليهم هو أن ٱلله قد ذكر في القرآن مثل ذٰلك في عدة مواضع ، مثال ذٰلك عطف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ الملائكة[٢] عند قوله تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة : ٩٨] ، وكذٰلك عطف بعض النبيين علىٰ عمومهم كقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ...﴾ [الأحزاب : ٧] ، فبهٰذا لو قلنا : إن الرعد من الملائكة ؛ لجاز ذٰلك .

ومما يلاحظ في الآية أن الأمر بالتسبيح والحمد لم يأت لمخلوق من المخلوقات بعينه ، كما جاء للملائكة والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وفي هٰذا أكبر دليل علىٰ أن الرعد من الملائكة ، حيث جاء عنه الخطاب بالتسبيح والتحميد .

ثم يأتي السؤال عن عطف الملائكة علىٰ الرعد في هٰذه الآية ، وما الغاية من ذكرهم بعد تسبيح الرعد ؟ وقد أجاب الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذٰلك ، حيث بين أن الملائكة المذكورون في هٰذه الآية هم أعوان الرعد ، حيث قال : « أما قوله ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ يعنىٰ : بهٰؤلاء الملائكة أعوان الرعد ؛ فإنه سبحانه جعل له أعواناً ، ومعنىٰ قوله : ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي : وتسبح الملائكة من خيفة ٱلله تعالىٰ وخشيته ، قال ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ إنهم خائفون من ٱلله لا كخوف ابن آدم ؛ فإن أحدهم لا يعرف من علىٰ يمينه ومن علىٰ يساره ، ولا يشغله عن عبادة ٱلله طعام ولا شراب ولا شيء »[٣] .

ومن حمد الملائكة أيضاً حمد جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما قابل النبي ﷺ ليلة أسري به إلىٰ بيت المقدس بقدحين ليختار أحدهما ، فقد روىٰ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ

---

(١) المصدر السابق ، وقد ورد ذلك عن الحسن (١٩ / ٢١) .

(٢) انظر تفسير أبي السعود (٥ / ١١٩) ؛ تفسير البيضاوي (٣ / ٤٠٢) .

(٣) التفسير الكبير للرازي (١٩ / ٢٦) .

عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « أُتِيَ رسول اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ بِإِيلِيَاءَ بِقَدَحَيْنِ من خَمْرٍ وَلَبَنٍ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا ، فَأَخَذَ اللَّبَنَ ، قال جِبْرِيلُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ لو أَخَذْتَ الْخَمْرَ ؛ غَوَتْ أُمَّتُكَ »(١) وهـٰذا الحمد من هـٰذا المَلك الكريم ، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يمثل شفقته علىٰ أمة النبي ﷺ من الغواية ، وهو دليل علىٰ أن الملائكة ليس لها حظ من أمور الدنيا ، بل إن همهم هو رضا ٱلله ـ عز وجل ـ بأي صورة كانت ، وأن يكون الناس كذٰلك علىٰ رضا ربهم ، فاختيار النبي ﷺ للبن دليل علىٰ أن الأمة لن تكون في غواية أبداً ؛ مما أفرح جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وجعله يحمد ربه علىٰ هـٰذا الفضل العظيم .

---

(١) أخرجه البخاري باب : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء : ١] (٤ / ١٧٤) ، برقم (٤٤٣٢) .





الفصل الثاني
حمد الأنبياء عليهم السلام

الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم أشرف الخلق ، وأكرمهم عند ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ وقد اصطفاهم ٱلله لتبليغ رسالته إلىٰ الخلق ؛ حتىٰ تقوم عليهم الحجة ، وليتحقق الأمر الذي من أجله خلق الخلق ، قال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٥] ، فكانوا بذٰلك أعرف الناس بربهم وبما يستحقه ، فحمدوه وشكروه علىٰ ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة ، والتي من أجلِّها نعمة النبوة والاصطفاء ، لـٰكنهم علموا أنهم لن يستطيعوا أن يحمدوا ٱلله حق حمده ، فاعترفوا بذٰلك بقول خيرهم محمد ﷺ : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك »[(١)] .

ثم من خلال استعراض آيات الحمد في كتاب ربنا ؛ نجد أنها تنقسم إلىٰ قسمين :

الأول : ما كانت علىٰ لسان أحد الأنبياء عليهم السلام :

حيث يكون الحمد صادراً عنه علىٰ نعمة منَّ ٱلله بها عليه ، ومن ذٰلك قول الخليل إبراهيم عليه السلام : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] ، وكان حمده في هـٰذه الآية علىٰ نعم متعددة ،

---

(١) أخرجه مسلم عند باب : ما يقال في الركوع والسجود (١ / ٣٥٢) برقم (٤٨٦) .

وهي : أولاً أنه وهب له الذرية التي يتمنىٰ كل إنسان أن يراها ، وأن يرزقه ٱلله إياها لأنها من النعم التي قال عنها ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٤٦] فهم من زينة الدنيا التي تفضل ٱلله بها علىٰ بعض عباده ، وتكون الفرحة بهم أكثر عندما يحرم الإنسان منهم ، ويطعن في السن ؛ فيفقد الأمل منهم ، ويظن أنه لن يرزق الذرية ، لـٰكنه عندما يبشر بها في هـٰذا السن تكون الفرحة أكبر وأعظم ، ثم تزداد الفرحة وتصبح أكبر عندما يكون المولود ذكراً ، فالذكور ـ بلا شك ـ أحب عند بعض الناس من البنات ، وذٰلك لما يرجوه الأب منهم حال كبره ، وعند وجودهم معه ، فقد ذكر ٱلله ذٰلك في قوله : ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ [المدثر : ١٣] فالبنين ، وتواجدهم نعمة من ٱلله ـ عز وجل ـ وقبل ذٰلك استجابة ٱلله لدعاء العبد ، وتلبية رغبته عند توجهه إليه في المسألة كل ذٰلك جعل الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتوجه لربه بالحمد علىٰ هـٰذه النعم التي منَّ بها عليه ، وحق لمن كان مثل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يحمد ربه علىٰ ذٰلك .

ومن دعائه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هـٰذه الآيات العظيمة تتضح للمتأمل دروس من الأدب الجم الذي اتصف به إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع ربه ، وسأحاول أن ألقي الضوء علىٰ بعض هـٰذه الدروس ، فأقول : قد استهل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعاءه لمكة المكرمة بأن يجعلها ٱلله بلداً آمناً ، فكانت كما أراد فهي بلد الأمن والأمان منذ ذٰلك الحين إلىٰ يومنا هـٰذا ، وإلىٰ ما شاء ٱلله ، ثم دعا ربه بأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام ، ومن ذٰلك نعلم أن الأنبياء علىٰ مكانتهم وعلمهم ؛ إلا أنهم يخشون الشرك ، ويسألون ٱلله العافية منه ، فما أجدرنا أن نحذو حذوهم ، ونكون علىٰ وجل من أن تزل قدم بعد ثبوتها ، ثم سأل ربه أن يحفظ أهله ، وهم هاجر وإسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما أسكنهم بمكة حين كانت وادياً غير ذي زرع ، وأن يجعلهم مقيمي الصلاة ، فهو في هـٰذا الموقف علىٰ شدته وصعوبته لم ينس أمر الصلاة التي هي من أجل ما أمر ٱلله به عباده ، ثم دعا لهم بأن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، ونلحظ كذٰلك ملحظاً ، وهو أنه قال ﴿ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ولو

قال : (أفئدة الناس) لازدحمت مكة بفارس والروم كما قال مجاهد[١] ، وقال ﴿أَفْئِدَةً﴾ ولم يقل الناس وذٰلك ليكون الذاهب إلىٰ مكة في شوق ومحبة وتسارع إليها ، وأن لا تنقطع عن باله مهما طال الزمن ، وبعدت المسافة ، ثم دعا لهم بالرزق من الثمرات وغيرها ، ونحن الآن نجد أثر دعوته عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فما نراه في مكة من الثمار التي لا تنقطع ـ علىٰ مدار العام بأصنافها التي لا تكاد تحصىٰ والمجلوبة لها من أصقاع الأرض ـ هو دليل علىٰ استجابة ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ لدعائه ، ثم قال ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وفي ذٰلك تعليم منه عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن همه ليس وفرة المأكل والمشرب لهم ، فقد قال : ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فـ(من) هنا للتبعيض ، وإنما كان همه أن يقيموا الصلاة ، وأن تكون هٰذه المآكل والمشارب معينة لهم علىٰ أمر الطاعة ، فقال : ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ، ثم عقب علىٰ ذٰلك ببيان أن ربه عالم بكل خفايا النفوس ، فلا يغيب عنه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض ، وفيه كذٰلك أدب منه عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام ربه بأنه تمنىٰ بعض الأمور في نفسه ، والتي لم يظهرها ؛ لٰكنه علم أن ٱلله ـ عز وجل ـ مطلع عليها ، فلبىٰ له تلك الرغبات .

بعد ذٰلك حمد ربه علىٰ هٰذه المنن ، والتي من ضمنها رغبته في الذرية ، وقد استجاب ٱلله له بأن وهبه إياها علىٰ الكبر : إسماعيل وإسحاق ، ثم طلب من ربه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم القيامة ، وأما في قوله : ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فلا يعني أن ٱلله ـ عز وجل ـ يسمع بعض الدعاء فيستجيب له ، ولا يسمع مالا يستجيب له ، بل يعني أن ٱلله سامع كل دعاء أجابه أم لم يجبه ، لٰكن المراد هنا أن ٱلله سمع دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، واعتد به ، وذٰلك من قولك : سمع الملك كلام فلان ؛ إذا اعتد به وقبله ، يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ كان قد دعا ربه وسأله الولد فقال : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فشكر لله ما أكرمه به من إجابته ، فإن

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٣ / ٢٣٣ ـ ٢٣٤) .

قلت : ٱلله تعالىٰ يسمع كل دعاء أجابه أو لم يجبه ، قلت : هو من قولك سمع الملك كلام فلان ؛ إذا اعتد به وقبله ، ومنه سمع ٱلله لمن حمده . . . »[١] .

ويُستخلص من دعاء هـٰذا النبي الكريم أنه قد أكثر من أمور الدين ، وفصل فيها ، وطلبها بالكلية ، أما أمور الدنيا فلم يكثر منها ، بل طلبها علىٰ صيغة التبعيض ، والتي بها المعونة علىٰ أمور الدين ، فوجب علينا أن نقتفي أثر الأنبياء الكرام في سؤالهم لربهم وحمدهم إياه علىٰ النعم ، وإن كنا لسنا قادرين علىٰ أن نحمد ربنا كما حمده أنبياؤه ؛ لـٰكننا نقتفي قول الشاعر :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح[٢]

ومن حمد الأنبياء كذٰلك ما ورد في قصة داود وسليمان عليهما السلام وذٰلك عند قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] فهما قد منَّ ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ عليهما بنعم عظيمة منها النبوة والملك خاصة ما أعطاه سليمان عليه السلام ، وغير ذٰلك من النعم العظيمة ؛ لـٰكنهما ركزا في حمدهما وشكرهما علىٰ نعمة العلم ، وفي ذٰلك دليل علىٰ فضل العالم علىٰ العابد ؛ فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « وإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب . . . . »[٣] ، فما خصصا شيئاً بالحمد عليه سوىٰ ما أعطاهما ٱلله من العلم .

يقول الرازي رحمه الله : « في هـٰذه الآية مباحث ، وهي : أحدها : أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علماً ، أو من لم يؤت مثل علمهما ، وفيه : أنهما فضلا علىٰ كثير ، وفضل عليهما كثير ، وثانيها : في الآية دليل علىٰ علو مرتبة

(١) الكشاف (٢ / ٥٢٦) والآية من سورة إبراهيم : ٣٩ والأخرى من سورة الصافات : ١٠٠ .

(٢) هذا البيت لأبي الفتوح السهروردي ، انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي (٥ / ٦١٥) .

(٣) أخرجه ابن حبان والترمذي وابن ماجه ، واللفظ له (١ / ٨١) ، وصححه الألباني ، صحيح سنن ابن ماجه (١ / ٤٣) .

العلم ؛ لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما ، فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم ، وثالثها : أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل ، وذلك يدل على حسن التواضع ، ورابعها : أن الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم ، ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره ، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم ، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين ؛ فيستحيل أن يكون ذلك سبباً لفضيلتهم على المؤمنين ؛ فإذاً الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جلياً ؛ بحيث يصير المرء مستغرقاً فيه . . »[1] .

وروى أبو نعيم رحمه الله قال : « كتب بعض عمال عمر إليه يقول في كتابه : « يا أمير المؤمنين إني بأرض قد كثر فيها النعم ؛ حتى لقد أشفقت على من قبلي من أهلها ضعف الشكر » ، فكتب إليه عمر : « إني قد كنت أراك أعلم بالله مما أنت ، إن الله لم ينعم على عبد نعمة ، فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته ، لو كنت لا تعرف ، ذلك في كتاب الله المنزل قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان . . . »[2] .

ونلمس كذلك من الآية أنهما قد أعطيا علماً فعملا به ، وبلغاه غيرهما ، فحمدا الله على ذلك كله . يقول الزمخشري رحمه الله : « عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم ، وشيء من مواجبه ، فأضمر ذلك ، ثم عطف عليه التحميد كأنه قال : ولقد آتيناهما علماً ، فعملا به ، وعلماه ، وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة . . »[3] .

ومما جاء في السنة من حمد الأنبياء عليهم السلام ما حصل لدانيال

---

(١) تفسير الرازي (٢٤ / ١٨٥) .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (٥ / ٢٩٣) .

(٣) الكشاف (٣ / ٣٥٧) .

النبي عليه السلام مع بختنصر ، فعن علي بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : أُتِيَ بختنصر بدانيال النبي عليه السلام فأمر به فحبس ، وضَرَّىٰ أسدين فألقاهما في جب معه ، فطين عليه وعلىٰ الأسدين خمسة أيام ، ثم فتح عليه بعد خمسة أيام ؛ فوجد دانيال قائماً يصلي والأسدان في ناحية الجب لم يعرضا له ، قال بختنصر : أخبرني ماذا قلت فدفع عنك ؟ قال : قلت : (الحمد لله الذي لا ينسىٰ مَنْ ذكره ، الحمد لله الذي لا يخيب مَنْ دعاه ، الحمد لله الذي لا يكل مَنْ توكل عليه إلىٰ غيره ، الحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل ، الحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا ، الحمد لله الذي يكشف ضرنا عند كربنا ، الحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً ، الحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة)[١] .

وجاء عن عبد ٱلله بن أبي الهذيل[٢] قال : ضَرَّىٰ[٣] بختنصر أسدين فألقاهما في جبّ ، وجاء بدانيال عليه السلام فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فمكث ما شاء ٱلله ، ثم اشتهىٰ ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب ، فأوحىٰ ٱلله إلىٰ إرميا وهو بالشام أن أعد طعاماً وشراباً لدانيال ، فقال : يا رب أنا بالأرض المقدسة ، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق ، فأوحىٰ ٱلله إليه أن أعد ما أمرناك ، فإنا سنرسل مَنْ يحملك ، ويحمل ما أعددت ، ففعل وأرسل ٱلله من حمله وحمل ما أعد حتىٰ وقف علىٰ رأس الجب ، فقال : دانيال ، دانيال ، فقال : من هٰذا ؟ قال : أنا إرميا ، قال : ما جاء بك ، قال : أرسلني إليك ربي ، قال : وقد ذكرني ربي ، قال : نعم ، قال دانيال :

---

(١) كنز العمال (٢ / ٢٧٧) نقلاً عن كتاب الشكر لأبي الدنيا ، وقال : إسناده حسن .

(٢) عبد الله بن أبي الهذيل : أبو المغيرة المقبري ، سمع ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ سمع منه مسلم أبو فروة ، قال النسائي : هو ثقة ، انظر التاريخ الكبير (٥ / ٢٢٢) وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤ / ١٧٠) .

(٣) ضرى : يضري ضراوة إذا حرض على الصيد واعتاده ودرب عليه ، انظر تفسير غريب ما في الصحيحين لمحمد بن أبي نصر (١ / ١٨٩) .

(الحمد ٱلله الذي لا ينسىٰ مَنْ ذكره ، والحمد لله الذي لا يخيب مَنْ رجاه ، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة ، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله هو ثقتنا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا)[١] .

ويُستخلص مما سبق حض العلماء علىٰ أن يحمدوا ٱلله تعالىٰ علىٰ ما آتاهم من فضله ، ويتواضعوا ، ويعتقدوا أنهم وإن فضلوا علىٰ كثير فقد فضل عليهم كثيرون .

يقول ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وقال أمير المؤمنين عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ : « كل أحد أفقه من عمر » أو : « كل الناس أفقه من عمر »[٢] .

ثانياً : ما جاء في القرآن من آيات يأمر ٱلله فيها أنبياءه بالحمد : وأودّ التأكيد علىٰ ما سبقت الإشارة إليه ، وهو أن ٱلله لم يأمر بالحمد مباشرةً كغيره مما أمر به في القرآن ، فقد أمر بالشكر وأمر بالتسبيح وأمر بالذكر وبالعبادة وغير ذٰلك كثير ، لٰكنه في حال الحمد لم يأت الأمر مباشرة ، ولٰكنه سبق بالقول ، أي : ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أو سبق بـ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ﴾ ، وفي هٰذا دليل علىٰ أن ٱلله محمود من نفسه أزلاً ، فهو ليس بحاجة أحد من خلقه ، فهم جميعاً محتاجون إليه .

وسأبدأ في ذٰلك بأمره لنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قوله ـ تبارك وتعالىٰ ـ : ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون : ٢٨] وهٰذه الآية قد وردت في سياق قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما يئس من قومه ، فدعا عليهم بالهلاك ، فعندها أمره ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ببناء السفينة ، وأن يحمل

(١) انظر : تاريخ مدينة دمشق لأبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله (٨ / ٣٢) .

(٢) أخرجه البيهقي باب : لا وقت في الصداق كثر أم قل (٧ / ٢٣٣) ، وكذلك الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٣ / ١٠) .

فيها من كل زوجين اثنين وأهله ، والمقصود بأهله هم من آمن معه فسماهم أهله[١] ، وجعل له علامة على بداية العذاب ، وهي فوران التنور[٢] وخروج الماء منه ، ثم نهاه أن يخاطبه فيمن كفر ؛ لأن العذاب سيحل بهم جميعاً ، بعدها أمره بأن يحمده عند الاستواء على السفينة ، ويلاحظ أن الأمر بالحمد جاء موجهاً لنوح عليه السلام دون من معه على السفينة ، رغم أن الكلام كان عنهم جميعاً ، وذلك في قوله : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

والجواب على ذلك ، أن نوحاً كان نبياً لهم وإماماً ، فكان قوله قولاً لهم ، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة ، وإظهار كبرياء الربوبية[٣] .

فمن هذا يتبين لنا منزلة النبي التي لا يصل إليها أحد بجهده ، وإنما هي اصطفاء من الله ، عز وجل .

والأمر في الآية بالحمد على النجاة من الظلمة ومن شرهم ، وذلك بعد أن أهلكهم الله بالغرق ، لكنه أمره بالحمد على النجاة مما يدل على استحباب الحمد على هلكة العدو ، لكن الحمد يكون للخير الواصل إلى الحامد ، يقول الآلوسي رحمه الله : « فإن الحمد على الإنجاء منهم متضمن للحمد على إهلاكهم ، وإنما قيل ما ذكر ، ولم يقل : (فقل الحمد لله الذي أهلك القوم الظالمين) لأن نعمة الإنجاء أتم ، قال الخفاجي : إن في ذلك إشارة إلى أنه لا ينبغي المسرة بمصيبة أحد ، ولو (عدوا) من حيث كونها مصيبة له ، بل لما تضمنته من السلامة من ضرورة أو تطهير الأرض من وسخ شركه ، وإضلاله . . . . »[٤] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٦) .

(٢) فار التنور : نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ، والتنور : تنور الخبز ، وهو قول الجمهور ، تفسير أبي السعود (٤ / ٢٠٨) .

(٣) انظر البحر المحيط (٦ / ٤٠٢) .

(٤) روح المعاني (١٨ / ٢٧) .

ومن الآيات التي ورد فيها الأمر (بقول الحمد) ما جاء في أمر ٱلله تعالىٰ لرسوله ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء : ١١١] .

وفي هـٰذه الآية الكريمة أمر من ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ لنبيه محمد ﷺ أن يحمد ٱلله علىٰ أمور عدة ذكرها في هـٰذه الآية ، وهي :

أولاً : إن ربك يامحمد لم يتخذ ولداً[١] ، وفي ذٰلك أكبر نعمة حيث إن من كان له ولد لا يصلح أن يكون إلـٰهاً يعبد ، ولا يمكن أن يهتم بأمر عبيده كما ينبغي ، لأنه سيكون مشغولاً بهـٰذا الولد في تربيته وتعليمه ، ثم من كان له ولد سوف يكون وريثه في ملكه وماله ، والحاجة للولد يكون فيها الضعف ، واتخاذ الولد دليل علىٰ الضعف ، وهـٰذا كله منتف عن ٱلله ـ عز وجل ـ فهو واحد أحد ، لم يلد ولم يولد .

ثانياً : وربك يا محمد لم يكن له شريك في ملكه[٢] ، ولو كان ذٰلك لحصل النزاع فيما بينهما ، ولاحتار العبيد من يطيعون ، فكان من النعم أن لا يكون مع ٱلله شريك في ملكه .

ثالثاً : إنه لم يكن له ولي من الذل[٣] ، ومن كان له ولي يواليه من أجل مذلة به ليدفع عنه تلك المذلة ، فلا شك في أنه لا يصلح أن يكون إلـٰهاً .

فمن لم يتصف بهـٰذه الصفات ، وهي : أنه لم يكن له ولد ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل يستحق بذٰلك أن يكون إلـٰهاً ، وأن يكون له جميع المحامد لكمال ذاته .

يقول البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى

---

(١) تفسير أبي السعود (٥ / ٢٠١) .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق .

ٱلْمُلْكِ﴾ في الألوهية . ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ولي يواليه من اجل مذلة به ليدفعها بموالاته نفىٰ عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ، ومن غير جنسه اختياراً واضطراراً ، وما يعاونه ويقويه ، ورتب الحمد عليه للدلالة علىٰ أنه الذي يستحق جنس الحمد ؛ لأنه الكامل الذات المنفرد بالإيجاد ، المنعم علىٰ الإطلاق ، وما عداه ناقص مملوك . . . »[١] .

ولهٰذه الآية مزايا تفردت بها عن غيرها من الآيات ـ وإن كان كلام ربنا كله خير وبركة ـ لٰكن بعض الآيات قد فضل علىٰ بعض ، كما فضلت آية الكرسي علىٰ غيرها ، ومما تميزت به : أن رسول الله ﷺ يعلمها الصغير والكبير من أهله ، فكان الغلام إذا فصح من بني عبد المطلب يعلمه هٰذه الآية ، روىٰ ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قتادة قال : « ذكر لنا : أن نبي الله كان يعلم أهله هٰذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء : ١١١] الصغير من أهله والكبير »[٢] .

يقول السعدي : « ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع الوجوه ، المنزه عن كل آفة ونقص ، ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ بل الملك كله لله الواحد القهار ، فالعالم العلوي والسفلي كلهم مملوكون لله ، ليس لأحد من الملك شيء ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي : لا يتولىٰ أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه ، فإنه الغني الحميد الذي لا يحتاج إلىٰ أحد من المخلوقات في الأرض ولا في السمٰوات ، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي : عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة ، وبالثناء عليه بأسمائه الحسنىٰ ، وبتحميده بأفعاله المقدسة ، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له ، وإخلاص الدين كله له »[٣] .

---

(١) تفسير البيضاوي (٣ / ٢٧٠) .

(٢) تفسير الطبري (١٥ / ١٨٩) .

(٣) تفسير السعدي (١ / ٥٤٦) .

ومما سبق يتبين لنا أمور ، وهي : أن ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قد أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هٰذه الآية الكريمة بأن يحمده علىٰ ما اتصف به ربه ـ عز وجل ـ من صفات كان بها مستحقاً ؛ لأن يكون رباً للعالمين ، وبها كان الخير الكثير لجميع الناس ، وأن لهٰذه الآية فوائد عظيمة لمن داوم عليها وعلىٰ غيرها من آيات في كتاب ٱلله ـ عز وجل ـ ؛ مما جاءت الإشارة إليه في السنة النبوية ، وفي أقوال العلماء الأثبات .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٥ ـ ٩٩] مَنَّ ٱلله ـ عز وجل ـ علىٰ نبيه محمد ﷺ وهو : أنه قد كفاه المستهزئين الذين كانوا يستهزئون به من قريش وغيرهم ، ثم بين له حال هٰؤلاء المستهزئين الذين يجعلون مع ٱلله شريكاً في العبادة ، وأنَّ مصيرهم يوم القيامة العذاب الشديد ، وفي ذٰلك تسلية وتطييب لنفسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ثم بعد هٰذا أمره بأن يسبح ربه ، وينزهه عما لا يليق به سبحانه ، ثم يحمده علىٰ ما تفضل به عليه من النعم ، ثم أمره بالسجود الذي هو جزء من الصلاة المفروضة ، فأمره بالبعض كناية عن أمره الكل ، ثم الأمر الأعظم والأهم ، وهو أن يداوم علىٰ عبادة ربه حتىٰ الممات ، ولا يثنيه عن ذٰلك شيء ، أو يصرفه صارف مهما كان .

وفي أمر ٱلله لنبيه بالتسبيح والتحميد توجيه له بأن يكون دائم الذكر لربه بالتنزيه تسبيحاً ، وبالثناء حمداً ، يقول الشنقيطي رحمه الله : « ومعنىٰ (سبح) نزه ربك ـ جل وعلا ـ عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ، وقوله : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي : في حال كونك متلبساً بحمد ربك ، أي : بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال ؛ لأن لفظة : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أضيفت إلىٰ معرفة ، فتعم جميع المحامد من كل وصف كمال وجلال ثابت لله ـ جل وعلا ـ فتستغرق الآية الكريمة الثناء بكل كمال ؛ لأن الكمال يكون بأمرين : أحدهما : التخلي عن الرذائل ، والتنزه عما لا يليق . وهٰذا معنىٰ التسبيح .

والثاني : التحلي بالفضائل ، والاتصاف بصفات الكمال . وهـٰذا معنىٰ الحمد ، فتم الثناء بكل كمال . . »[١] .

وفي هـٰذه الآيات بيان لحال النفس البشرية عندما يعتريها الضيق مما تلاقي من المشاق والصعاب ؛ خاصة إذا كان الأمر جللاً ، وذٰلك ما حدث مع النبي ﷺ فأمره عند ذٰلك بأربعة أوامر ، وهي : التسبيح والتحميد والسجود والعبادة ، ولو تأملنا الأمر لعلمنا الحكمة من ذٰلك ، وهي أن الإنسان إذا اشتغل قلبه وبدنه ولسانه بطاعة ربه هانت عليه الدنيا وما عليها ، فأصبح لا يهمه هم ، ولا يكدره غم ، فالقلب واللسان والبدن عامرة بذكر ٱلله وطاعته ، قد تجلت له معنىٰ ربوبية وألوهية خالقه ، فما شاءه ربه كان وما لم يشأه لم يكن ، عندها لا يحصل له وحشة ، ولو فقد الدنيا وما فيها ، ولا يكون في زيادة فرح ولو ملك الدنيا وما عليها ، فقد وجد الملك الحقيقي والسعادة الأبدية المتمثلة في هـٰذه الأوامر الأربعة . يقول بعض أهل العلم : « إذا نزل بالعبد المكاره فزع إلىٰ الطاعات كأنه يقول : « تجب عليَّ عبادتك سواء أعطيتني الخيرات ، أو ألقيتني في المكروهات » »[٢] . ويقول بعضهم : « من اعتقد تنزيه ٱلله عن القبائح سهل عليه تحمل المشاق ؛ فإنه يعلم أن ٱلله عدل منزه عن أن يضع العبد في المشاق دون غرض »[٣] .

فمن هـٰذا كله نجد الحكمة التي من أجلها أمر ٱلله نبيه ﷺ بهـٰذه الأمور الأربعة ، والتي كان فيها أكبر التسلية له ﷺ بأن يحمد ربه علىٰ أن هداه للحق ، ولهـٰذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلىٰ الصلاة[٤] ، روىٰ النسائي والإمام

(١) أضواء البيان (٢ / ٣٢٢) .

(٢) تفسير الرازي (١٩ / ١٧١) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) أخرجه أبو داود باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل (٢ / ٣٥) ؛ والإمام أحمد (٥ / ٣٨٨) ، كلاهما من رواية عبد العزيز أخي حذيفة عن حذيفة ؛ قال ابن حجر أخرجه =

أحمد عن نعيم بن همار[١] أنه سمع النبي ﷺ يقول : (قال ٱلله عز وجل : يا بن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره)[٢] .

يقول البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فافزع إلىٰ ٱلله تعالىٰ فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ، ويكشف الغم عنك ، أو فنزهه عما يقولون حامداً له علىٰ أن هداك للحق . ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ من المصلين ، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلىٰ الصلاة ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ أي : الموت فإنه متيقن لحاقه كل حي مخلوق ، والمعنىٰ : فاعبده ما دمت حياً ، ولا تخل بالعبادة لحظة . . . »[٣] .

ويتوالىٰ أمر ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ لنبيه محمد ﷺ بالحمد المقترن بالتسبيح في عدة مواضع من القرآن ، فنلاحظ أن ٱلله ـ جل في علاه ـ قد ملأ حياة النبي ﷺ بذكره ، والمداومة علىٰ ذٰلك ، فعند قوله تعالىٰ في « سورة طه » : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه : ١٣٠] ، وقوله في « سورة ق » : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [ق : ٣٩ ـ ٤٠] ، نلاحظ أن ٱلله ـ عز وجل ـ قد حدد لنبيه ﷺ أزمنة بعينها يكون فيها مسبحاً وحامداً لربه ، ولو أمعنا النظر في هٰذه الأوقات لوجدناها تشمل جميع الأوقات ، فما الحكمة من التفصيل رغم أن

= أبو داود بإسناد حسن ، فتح الباري (٣ / ١٧٢) .

(١) نعيم بن همار ، ويقال : ابن هبار ، ويقال : ابن هدار ، ويقال : ابن حمار ، ويقال : ابن خمار ، وهمار أصح ، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٦ / ٤٦٢) .

(٢) السنن الكبرى للنسائي (١ / ١٧٧) ، ومسند أحمد (٥ / ٢٨٦) ، وقال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد (٢ / ٢٣٦) ؛ وأبو داود باب : صلاة الضحى (٢ / ٢٧) وصححه الألباني ، صحيح سنن أبي داود (١ / ٢٣٩) .

(٣) تفسير البيضاوي (٣ / ٢١٨) .

الأمر بالإجمال يكون أبلغ وأولىٰ ، حيث يقول له مثلاً : (فسبح بحمد ربك طيلة يومك) ، والجواب : يمكن أن يستخلص من أقوال العلماء في معنىٰ التسبيح ؛ فلهم قولان : **أحدهما** : الصلاة ، والصلاة كما نعلم أن لها أوقاتاً محددة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] ، فقد حددت الصلاة بأزمنة بينها النبي ﷺ لا تصح الصلاة قبلها ، ولا يجوز تأخيرها عن وقتها ، فمن ذٰلك كان الأمر بالتسبيح والتحميد في هٰذه الأوقات المحددة ، يقول ابن جزي الكلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ إشارة إلىٰ الصلوات الخمس عند من قال : إن معنىٰ ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ الصلاة ، فالتي قبل طلوع الشمس الصبح ، والتي قبل غروبها الظهر والعصر ، ومن آناء الليل المغرب والعشاء الآخرة وأطراف النهار المغرب والصبح ، وكرر الصبح في ذٰلك تأكيداً للأمر بها . . . »[1] فجاء الأمر لبيان أوقات الصلاة مفصلة ، ثم ضمن أن يكون ذكره في كل الأوقات ، وذٰلك يتجلىٰ عند قوله : ﴿ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ فهٰذا يعني اليوم بأكمله .

ثانيها : قول من قال بأن التسبيح والحمد في الآية هو تنزيه ٱلله والثناء عليه ، فكان التفصيل في ذكر الأوقات له معنىٰ في ذٰلك ، وهو أنك يا محمد مكلف في هٰذه الحياة بأمرين هما الدعوة إلىٰ ٱلله ، والاشتغال بذكره ، فإنك إن قمت بأمر الدعوة ، ولم يستمع إليك أحد ، فأقبل علىٰ ذكر ربك في هٰذه الأوقات حتىٰ ينجلي همك ، ويكون الذكر في هٰذه الأوقات بهٰذا التفصيل شاغلاً لك عن كل هم ، فلا يجد التعب والملل إلىٰ قلبك طريقاً ، فكان التسبيح والحمد مما يستعان به علىٰ النوائب والشدائد .

يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ إشارة إلىٰ ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ ووجه هٰذا : أن النبي ﷺ له شغلان ، **أحدهما** : عبادة ٱلله ، **وثانيهما** : هداية الخلق فإذا هداهم ولم يهتدوا قيل له : أقبل علىٰ شغلك الآخر ،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٣ / ٢١) .

وهو عبادة الحق . **ثالثها** : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ، أي : نزهه عما يقولون ولا تسأم من امتناعهم ، بل ذكرهم بعظمة ٱلله تعالىٰ ، ونزهه عن الشرك والعجز »[١] .

ولسائل أن يسأل عن مغزىٰ تخصيص الوقتين اللذين قبل طلوع الشمس وقبل الغروب بالذكر ؟ ويمكن الإجابة عن ذٰلك بالقول : بأن الصلاة والتسبيح والحمد في هـٰذين الوقتين لهو من أفضل الأعمال وأجلها عند ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ بل إن الصلاة فيهما تنجي من النار ، كما أخبر بذٰلك حبيبنا ﷺ بقوله : « لن يلج النار أحد صلىٰ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها يعني الفجر والعصر »[٢] ، وجاء في الصحيحين عن جرير بن عبد ٱلله البجلي ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : كنا جلوساً عند رسول ٱلله ﷺ ، فنظر إلىٰ القمر ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هـٰذا القمر لا تضامون في رؤيته ؛ فإن استطعتم أن لا تغلبوا علىٰ صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا . . . »[٣] .

وفي تخصيص ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ بالذكر مع أن الآية شملت جميع الأوقات ؟ بيان لشأن هـٰذا الوقت ، كما يذهب إلىٰ ذٰلك الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللهُ بقوله : « ووجه الاهتمام بآناء الليل ، وقت تميل فيه النفوس إلىٰ الدعة ، فيخشىٰ أن تتساهل في أداء الصلاة فيه »[٤] .

وفي « سورة الفرقان » يربط ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أمره لنبيه ﷺ بالحمد بأمرين آخرين وهما « التوكل و التسبيح » ، فقد قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٨] ، ومن تدبر هـٰذه

(١) تفسير الرازي (٢٨ / ١٨٥) .

(٢) صحيح مسلم باب (فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما) (١ / ٤٤٠) برقم (٦٣٤) .

(٣) صحيح البخاري باب فضل صلاة العصر (١ / ٢٠٣) ، رقم الحديث (٥٢٩) .

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦ / ٣٣٨) .

الآية الكريمة ، وعقلها كما تدبرها السلف الصالح ، حيث قال بعضهم عندما قرأها : « لا ينبغي لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق فإنه يموت »[١] ، فبداية الآية أمر من ٱلله ـ عز وجل ـ بالتوكل عليه ؛ لأن له صفة الحياة الدائمة .
وجاءت هـٰذه الآية بعد أن بين النبي ﷺ للمشركين أنه ليس محتاجاً إليهم ولن يطلب منهم الأجر علىٰ دعوته لهم ، بل إن ربه كافيه حيث أرشده إلىٰ التوكل عليه ، ثم أمره بتنزيهه عما قاله عنه من كفر به ، ثم بالثناء عليه بالحمد . يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أما قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ فالمعنىٰ أنه سبحانه لما بين أن الكفار متظاهرون علىٰ إيذائه ؛ أمره بأن لا يطلب منهم أجراً البتة ، وأمره بأن يتوكل عليه في دفع جميع المضار ، وفي جلب جميع المنافع ، وإنما قال : ﴿عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لأن من توكل علىٰ الحي الذي يموت ، فإذا مات المُتَوَكَّلُ عليه صار المُتَوكِّلُ ضائعاً ، أما هو ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فإنه حي لا يموت ، فلا يضيع المتوكل عليه ٱلْبَتَّةَ ، أما قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ فمنهم من حمله علىٰ نفس التسبيح بالقول ، ومنهم من حمله علىٰ الصلاة ، ومنهم من حمله علىٰ التنزيه لله تعالىٰ عما لا يليق به في توحيده وعدله . . »[٢] .

وٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عندما أمر رسوله بأن يتوكل عليه بين أنه أهل لذٰلك بثلاثة براهين ، هي : **أولاً** : أنه أثبت لنفسه صفة الحياة التي لا تكون لغيره في قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ .

ثانياً : أنه العليم بجميع الأمور ظواهرها وبواطنها ، وهـٰذا كذٰلك لا يتسنىٰ لغيره في قوله : ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ .

ثالثاً : أنه القادر علىٰ كل شيء في الوجود ، ومن أدل الأدلة علىٰ ذٰلك خلقه للسمـٰوات والأرض ، وهـٰذا عند قوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٣ / ٨٠) .
(٢) تفسير الرازي (٢٤ / ١٠٣) .

ثم وسط بين هٰذه الشواهد أمره بالتسبيح والتحميد له ؛ لأنه هو المستحق لذٰلك ، فقال : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ، يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أمرَه بأن يثق به ، ويسند أمره إليه في استكفاء شرورهم مع التمسك بقاعدة التوكل ، وأساس الالتجاء ، وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده ، وعرّفه أن الحي الذي لا يموت حقيق بأن يتوكل عليه وحده ، ولا يتكل علىٰ غيره من الأحياء الذين يموتون ، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء آمنوا أم كفروا ، وأنه خبير بأحوالهم كاف في جزاء أعمالهم . . . »[١] .

ومن الآيات التي جاء الحمد فيها مأموراً به ومسبوقاً بالقول قوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل : ٥٩] وهٰذه الآية الكريمة تعتبر مرشدة لكل من أراد أن يبدأ خطبة ، أو كلمة ، أو موعظة ، فقد بدأ ٱلله هٰذه الآية بأمر نبيه بحمده ، ثم بالسلام علىٰ أنبيائه ، وقد تمثل المسلمون هٰذا الأمر الإلٰهي ، وهٰذا ما نجده فيمن يريد أن يبدأ خطبة أو موعظة أو غير ذٰلك ، فيبدؤها بالحمد والصلاة علىٰ النبي ﷺ .

يقول ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أمر ٱلله رسوله أن يتلو الآيات المذكورة بعد هٰذا ؛ لأنها براهين علىٰ وحدانيته وقدرته ، وأن يستفتح ذٰلك بحمده والسلام علىٰ من اصطفاه من عباده كما تستفتح الخطب والكتب وغيرها بذٰلك تيمناً بذكر ٱلله . . . »[٢] .

وقد جاءت هٰذه الآية متوسطة بين موضوعين من أهم مواضيع القرآن الكريم ، بل هما من أساس مواضيعه ؛ وذٰلك لأن القرآن الكريم أتي في مجمله بثلاثة مواضيع هي ، **الأول** : قصص الأمم السابقة ، وما حل بهم من هلاك لمن أنكر ما جاء به نبيهم ، **الثاني** : العقيدة الذي فيه إثبات ربوبية وألوهية

---

(١) الكشاف (٣ / ٢٩٤) .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٣ / ٩٨) .

الخالق ـ عز وجل ـ ، **الثالث** : العبادات الذي عليه مدار الفقه في أمور الدين ، وقد جاءت هـٰذه الآية بين قصص الأمم السابقة وبين العقيدة ، فإن قلنا بأنها خاتمة لما ذكر ٱلله ـ عز وجل ـ عن أحوال الأمم السابقة ، وما قابلوا أنبياءهم به من تكذيب ، وما لاقوه من الإهلاك بسبب ذٰلك ، فيكون لها بذٰلك قولان كما ذكر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال : « في هـٰذه الآية قولان ، **الأول** : أنه متعلق بما قبله من القصص ، والمعنىٰ : الحمد لله علىٰ إهلاكهم ، وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ ، بأن أرسلهم ونجاهم ، **الثاني** : أنه مبتدأ ، فإنه تعالىٰ لما ذكر أحوال الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وكان محمد كالمخالف لمن قبله في أمر العذاب ؛ لأن عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه أمره تعالىٰ بأن يشكر ربه علىٰ ما خصه بهـٰذه النعم ، وبأن يسلم علىٰ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ الذين صبروا علىٰ مشاق الرسالة . . . »[١] .

وإن قلنا : إن الآية مفتتحة لموضوع العقيدة ، وما ذكره ٱلله ـ عز وجل ـ من البراهين والحجج علىٰ بطلان الآلهة المزعومة ، وعلىٰ إثبات وحدانيته وتفرده بالألوهية والربوبية ، فتكون بذٰلك استهلالاً واستفتاحاً لهـٰذا الموضوع الهام الذي ينبغي الانتباه له ، فكأن الحمد لله ، ثم الصلاة علىٰ أنبيائه فيه لفت النظر لكل مستمع إلىٰ أهمية الكلام ؛ الذي سيكون بعد ذٰلك ، وهـٰذا من أساليب القرآن الكريم الذي يسترعي الأسماع بصيغ متعددة لبيان أهمية الكلام الذي سيعرضه ، يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أمر ٱلله رسوله ﷺ أن يتلو هـٰذه الآيات الناطقة بالبراهين علىٰ وحدانيته ، وقدرته علىٰ كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام علىٰ أنبيائه ، والمصطفين من عباده ، وفيه تعليم حسن وتوقيف علىٰ أدب جميل ، وبعث علىٰ التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما علىٰ قبول ما يلقىٰ إلىٰ السامعين ، وإصغائهم إليه ، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها الـمُسمع . . . »[٢] .

---

(١) تفسير الرازي (٢٤ / ٢٠٥) .

(٢) الكشاف (٣ / ٣٧٩) .

وهناك من يرىٰ : أن المأمور بالحمد في هٰذه الآية لوط[١] عليه السلام وذٰلك أنه عقب بهٰذه الآية بعد ذكر قصة هلاك قومه ، فأمره ٱلله بالحمد علىٰ ذٰلك ، ثم الصلاة علىٰ الأنبياء ، وعلىٰ أي معنىً فلا مخالفة لموضوعنا ؛ لأن الكلام دائر حول حمد الأنبياء عليهم السلام .

وقيل : « إن أردت أن لا يصدأ لك قلب ، ولا يلحقك هم ولا كرب ، ولا يبقىٰ عليك ذنب ؛ فأكثر من قولك : سبحان ٱلله وبحمده ، سبحان ٱلله العظيم ، لا اله إلا ٱلله ، اللهم ثبت علمها في قلبي ، واغفر لي ذنبي ، واغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وقل الحمد لله ، وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ »[٢] .

وجاء في آخر السورة أمر بالحمد ، وذٰلك عند قوله : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل : ٩٣] ولو أمعنا النظر في هٰذه السورة لوجدنا أن الأمر بالحمد جاء في ثلاثة مواضع ، وكأن السورة قد قسمت إلىٰ مقاطع ، وسأستعرض السورة بأكملها استعراضاً مجملاً ، وأبين الحكمة من الحمد في كل موضع ، فأقول : بدأت هٰذه السورة بالحروف المقطعة ، وهي كغيرها من السور المكية في ذٰلك ، ثم تكلمت عن القرآن الكريم ، وعن مكانته ، وعاقبة من التزم به وخسران من أعرض عنه ، ثم أخذت السورة في ذكر قصة موسىٰ عليه السلام ، وبعدها قصة داود وسليمان عليهما السلام ، وجاء الحمد في ثنايا قصتهما ، ـ وقد تكلمت عن هٰذه الآية فيما سبق ـ ، ثم أخذت بالاستمرار في عرض قصص الأنبياء في الأمم السابقة ، وما قابلوه من تكذيب وعناد من قومهم ، ثم ما لحق القوم من النكال جراء إعراضهم ، وتختتم هٰذه القصص بأمر ٱلله أنبياءه عامة ومحمداً ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ خاصة بالحمد علىٰ إهلاك الظلمة ، وما تفضل ٱلله به

---

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر : تفسير الثعالبي (٢ / ٥١٩) .

عليهم من النعم التي من أجلِّها نعمة الاصطفاء علىٰ العالمين ، ـ وسبق الكلام عن هـٰذه الآية كذٰلك ، ولله الحمد والمنة ـ ثم تذكر السورة بعض الأدلة والبراهين علىٰ وحدانية ٱلله ، وتفرده بالعبادة ، وأن غيره لا يصلح أن يكون رباً يرجىٰ ، وإلـٰهاً يعبد لعدم مقدرته علىٰ كثير من الأمور التي يحتاجها العباد ، ثم النهي في السورة للنبي ﷺ عن الحزن والضيق من مكر الماكرين ، وكيد الكائدين ، وأنهم سيحل بهم ما استعجلوه من العذاب ، وبعدها تذكر تفضل ٱلله علىٰ الخلق بالنعم عامة ، ولـٰكن الشكر من القليل ، فأكثر الناس لا يشكر ، ويصدق ذٰلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [النمل : ٧٣] ، ثم تأخذ السورة في عرض بعض علامات يوم القيامة ، وبعض أحداثه من نفخ الصور ، ونسف الجبال ، ثم بيان حال من أحسن فله الإحسان وزيادة ، ومن أساء فمكبوب علىٰ وجهه في النار ، فٱلله سبحانه عدل متفضل يجازي صاحب الحسنات بالزيادة وصاحب السيئات بالنار بسبب عمله في الدنيا ، ثم يأمر ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ نبيه بعدة أوامر في ختام هـٰذه السورة ؛ وكأن هـٰذه الأوامر قد أجملت مواضيع السورة كاملة ، وهي :

أولاً : أمره بعبادة ٱلله وحده لا شريك له لأنه المالك لكل شيء ، وهـٰذا الأمر أجمل ما جاء في ثنايا السورة من الدلائل والبراهين علىٰ وحدانية ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ، أي : إن لم تفدكم هـٰذه الدلائل والبراهين يا من أعرضتم وأبيتم ؛ فقد أفادتني فعرفت بها ربي ، وعبدته حق عبادته ، ثم وصف ربه بأن له كل شيء إجمالاً لكل ما ذكر في السورة من ملكية ٱلله وقدرته علىٰ كل شيء في هـٰذا الوجود . وهناك لطيفة ذكرها السعدي عن قوله : ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٍ ﴾ أي : من العلويات والسفليات أتىٰ به ؛ لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده »[1] .

ثانياً : أمره ببيان أنه أول من أسلم من هـٰذه الأمة ، وفي ذٰلك إجمال لما

---

(١) تفسير السعدي (١ / ٧٢٩) .

تعرضت له السورة من أن دعوته حق ، وأنه أول من عمل بها هو ، فلو كان الذي جاء به كذباً ، فسيعود عليه كذبه ، ويكون أول الخاسرين ، أما إن كان صادقاً فسيصيبكم ما وعدكم به ، وهـٰذا مثله عند قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٨] .

ثالثاً : أمره بتلاوة القرآن علىٰ الناس ، فمن اهتدىٰ فلنفسه ، ومن ضل فعليها ، وفي هـٰذا إجمال لما جاء به الأنبياء من معجزات تصديقاً لدعوتهم ، فمن صدقها وآمن نجا ، ومن أعرض وتولىٰ هلك كما هلك غيره .

رابعاً : أمره بالحمد ، وكان ذٰلك في ختام هـٰذه السورة ؛ فكان ختاماً في غاية الحسن والكمال ، حمد خاص منه علىٰ ما وهبه من النعم العظيمة ، وهي الاصطفاء بالنبوة ، ثم تبليغه لها علىٰ أكمل وجه ، ثم تفضيله بالعلم والحكمة التي هي مطلب جميع من عقلها وعرف فضلها ، وحمد عام من الأنبياء الذين ذكروا في هـٰذه السورة علىٰ تلك المنن التي تفضل ٱلله بها عليهم ، كما تفضل علىٰ محمد ﷺ وأهلك كل من كفر ، ورد الحق .

وقيل عن قوله « ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي : لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه ، لذٰلك قال : ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ »[1] .

ومن الآيات التي جاءت مقررةً لوحدانية ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وآمرةً النبي ﷺ بالحمد لربه قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٣٨٠) .

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت : ٦١ ـ ٦٣] ، وفي هٰذه الآيات إقرار من المشركين بأن خالق السمٰوات والأرض ومسخر الشمس والقمر هو ٱلله ، وهنا لطيفة حري أن تُذكر ، وهي أن السؤال عن السمٰوات والأرض كان بالخلق وعن الشمس والقمر كان بالتسخير ، وذٰلك لأن السمٰوات والأرض ثابتة فيما يراه الإنسان ، ولا يلمس لها حركة معينة فجاء السؤال (من خلق ؟) ، أما الشمس والقمر فهما متحركان كما يراهما الإنسان وحركتهما ليست عشوائية ، بل هي بانتظام ينتج عنهما الليل والنهار والفصول الأربعة ، فكان السؤال عنهما (من سخر ؟) وهو متضمن للخلق ؛ لأن من سخر هٰذين المخلوقين العظيمين بهٰذه الدقة ، فهو من باب أولىٰ قادر علىٰ خلقهما ، فليتدبر كل منا كلام ربنا المعجز في ألفاظه وعباراته ليعلم أنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ثم إقرار منهم بأن الرازق هو ٱلله ، وجاء بالرزق لبيان أن بقاء المخلوقات الحية لا يكون إلا بالرزق ، فلو انقطع الرزق لهلك كل حي علىٰ وجه الأرض ، وفي ذٰلك بيان لبطلان آلهتهم المزعومة ، والتي ليس لها القدرة علىٰ الخلق والرزق ، ثم الإقرار بأن الذي ينزل المطر من السماء هو ٱلله ، وذكر المطر بعد الرزق فيه بيان أن سبب الرزق هو المطر ؛ لذٰلك كان مسبب هٰذا السبب هو ٱلله ؛ الذي لو قطع هٰذا السبب لهلك النبات الذي هو مصدر غذاء الإنسان ، ولهلك كل من يحتاج إلىٰ الماء ، ومن بينهم الإنسان ، فكان ترتيب أخذ الإقرار من المشركين في غاية الدقة وقوة الحجة علىٰ تفرد ٱلله بالألوهية والربوبية وبطلان كل من يزعم أن هناك إلٰهاً يقدر علىٰ شيء من هٰذه الأفعال . ثم يأتي بعد ذٰلك الأمر من ٱلله لنبيه بأن يحمده علىٰ أن مَنَّ ٱلله عليك بنعم عظيمة ، ومنها أنه عرف أن ذٰلك كله من ٱلله ، فآمن به وغيره عرف ، وأقرَّ : أن ذٰلك كله من ٱلله ولم يؤمنوا به ، فعقب بعد ذٰلك بقوله : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [1] بأنَّ الحمد كلَّه لله ،

---

(١) انظر التفسير الكبير (٢٥ / ٧٨) .

وليس لغيره ، فاستحقوا هـٰذا الوصف من ٱلله[١] .

وقد يكون الحمد علىٰ ما بينه ٱلله من الفرق بين الهدىٰ والضلال ، والحمد علىٰ تفضل ٱلله به من رزق للعباد وخلق وتدبير وتسخير ، يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « هـٰذا استدلال علىٰ المشركين ، المكذبين بتوحيد الإلـٰهية والعبادة ، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية . ثم اعجب لإفكهم ، وكذبهم ، وعدولهم إلىٰ من أقروا بعجزه ، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً . وسجل عليهم عدم العقل ، وأنهم السفهاء ، ضعفاء الأحلام . وقل الحمد لله ؛ الذي بين الهدىٰ من الضلال ، وأوضح بطلان ما عليه المشركون ، ليحذره الموفقون ، وقل : الحمد لله ، الذي خلق العالم العلوي والسفلي ، وقام بتدبيرهم ، ورزقهم ، وبسط الرزق علىٰ من يشاء ، وضيقه عمن يشاء ، حكمة منه ، ولعلمه بما يصلح عباده ، وما ينبغي لهم . . »[٢] .

ثم تأتي آيات مشابهة للآيات السابقة الذكر ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [لقمان : ٢٥ ـ ٢٦] وفي هـٰذه إقرار من المشركين بأن الخالق هو ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ثم عقب بعد ذٰلك بأمره للنبي ﷺ بأن يحمد ربه علىٰ أن وفقه لمعرفته وحمده ، ثم ختم الآية بقوله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لا يعلمون أن ٱلله غني عنهم وعن حمدهم فهو محمود قبل حمد الحامدين وشكر الشاكرين ، فكل ما في السمـٰوات والأرض ملك له . يقول صاحب الكشاف : « ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ إلزام لهم علىٰ إقرارهم بأنّ الذي خلق السمـٰوات والأرض هو ٱلله وحده ، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر ، وأن لا يعبد معه غيره ، ثم قال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنّ ذٰلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه ؛ لم ينتبهوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ عن حمد الحامدين

---

(١) تفسير السعدي (١ / ٦٣٥) .

(٢) تفسير السعدي (١ / ٧٦٢) .

المستحق للحمد ، وإن لم يحمدوه . . »[١] .

ويلحظ المتأمل في الآيتين التي أمر ٱلله فيهما النبي ﷺ بالحمد في السورتين أن بينهما تشابهاً ؛ إلا في ختامهما فقد اختلفتا ، ففي الأولىٰ : ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وفي الثانية : ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وذٰلك مدعاة إلىٰ التساؤل عن ذٰلك ؟

ويجيب العلامة ابن عاشور بقوله : (عبر هنا ـ يعني : في سورة لقمان ـ بـ : ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وفي سورة العنكبوت بـ : ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ تفنناً في المخالفة بين القصتين مع اتحاد المعنىٰ)[٢] .

وفي سورة الطور أمر من ٱلله بالتسبيح والحمد في قوله : ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور : ٤٨ ـ ٤٩] وذٰلك بعد أن أمره بالصبر علىٰ أقدار ٱلله التي قدرها عليه ، أو علىٰ ما سيلقىٰ في سبيل الدعوة إلىٰ ٱلله من التكذيب والأذىٰ ، ثم أخذ ٱلله في تطمينه وتسليته جراء ذٰلك بقوله : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ أي : نراك ونحفظك ونكلؤك ، فلن يصيبك إلا ما قدره ربك عليك ، يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ يقول جل ثناؤه : فإنك بمرأىٰ منا نراك ، ونرىٰ عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين »[٣] ، ثم أمره بتنزيه ربه المتلبس بحمده حين قيامه ، وقد ذكر في معنىٰ قيامه عدة أقوال ، نذكر منها ما يلي[٤] :

قيل حين تقوم من مجلسك الذي كنت فيه ، فقل عند ذٰلك « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إلـٰه إلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إليك » .

(١) الكشاف (٣ / ٥٠٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٢١ / ١٧٩) .

(٣) تفسير الطبري (٢٧ / ٣٧) .

(٤) انظر هذه الأقوال في : زاد المسير (٨ / ٦٠) .

وقيل : عند القيام والانتباه من النوم ، فقد ورد عنه أنه كان يسبح بحمد ربه عند ذٰلك .

وقيل : حين تقوم إلىٰ الصلاة ، وأراد بذٰلك دعاء الاستفتاح ، وهو : « سبحانك اللّهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالىٰ جدك ، ولا إلٰه غيرك » .

وقيل : حين تقوم لأمر ما خاصة إذا قمت لمجاهدة قومك ، فاستعن عليهم بالتسبيح بحمد ربك ، وكأنها هنا عبارة دعاء مع استعانة .

وفي أمره له بالصبر والتسبيح بحمد ربه فائدة ، وهي : أن صبرك عليهم يا محمد ، والتسبيح بحمد ٱلله خير لك من الدعاء عليهم ، يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قال : فاصبر ، ولا تدع عليهم ؛ فإنك بمرأىٰ منا نراك ، وهٰذه الحالة تقتضي أن تكون علىٰ أفضل ما يكون من الأحوال ؛ لٰكن كونك مسبحاً لنا أفضل من كونك داعياً علىٰ عباد خلقناهم ، فاختر الأفضل فإنك بمرأىٰ منا . . »[١] .

وأما في آخر أمرٍ أمر ٱلله رسوله ﷺ فيه بالتسبيح بحمده ، فكان عند نعيه ﷺ وذٰلك في « سورة النصر » حين قال ٱلله له : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر : ١ ـ ٣] وهٰذه السورة تسمىٰ بـ« سورة النصر » أو كما يسميها البعض « سورة التوديع » أو « سورة إذا جاء نصر ٱلله والفتح »[٢] ، وعلىٰ أي تسمية كانت إلا أنها جاءت لنعي نفس النبي ﷺ وقرب أجله ، فكان بأبي هو وأمي يكثر في صلاته من قوله : « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي » كما روىٰ البخاري في صحيحه عن عائشة ـ رضي ٱلله

---

(١) تفسير الرازي (٢٨ / ٢٧٤) .

(٢) انظر : فتح القدير للشوكاني (٥ / ٥٠٨) .

عنها ـ قالت : (كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن)[(١)] ، والسورة في ظاهرها بشارة ونصر من ٱلله ، وتمكين بكثرة دخول الناس في الإسلام ، وهـٰذا الذي فهمه كبار الصحابة ، لـٰكن الفهم الذي فهمه ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ كان مختلفاً عن فهمهم ، روىٰ البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فقال بعضهم : لم تدخل هـٰذا الفتىٰ معنا ولنا أبناء مثله ، فقال : إنه ممن قد علمتم ، قال : فدعاهم ذات يوم ، ودعاني معهم ، قال : وما أريته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني ؛ فقال : ما تقولون في : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴾ [النصر : ١ ـ ٢] حتىٰ ختم السورة ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد ٱلله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وقال بعضهم : لا ندري ، أو لم يقل بعضهم شيئاً ، فقال لي : يا بن عباس : أكذاك تقول ؟ قلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول ٱلله ﷺ أعلمه ٱلله له : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ فتح مكة ، فذاك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ قال : عمر ما أعلم منها إلا ما تعلم)[(٢)] .

وفي هـٰذه السورة أمر ٱلله نبيه ﷺ بثلاثة أوامر هي كالتالي :

أولاً : أمره بالتسبيح ، وهو تنزيه ٱلله عن النقائص ، ووصفه بالكمال الذي لا يضاهيه فيه أحد .

ثانياً : أمره بالحمد الذي هو موضوع حديثنا ، والحمد هنا علىٰ ما أنعم ٱلله به عليه من جميع النعم ، ثم من الفتح والنصر المبين ، ثم علىٰ دخول الناس في الإسلام أفواجاً ، وهـٰذا ما كنت تصبو إليه فقد نولك ٱلله إياه ، وأقر عينك بذاك ، فاحمد ٱلله وكن من الشاكرين .

---

(١) صحيح البخاري ، باب : التسبيح والدعاء في السجود (١ / ٢٨١) برقم (٧٨٤) .
(٢) المرجع السابق ، كتاب المغازي، باب (٥١) الحديث رقم : (٤٢٩٤) .

ثالثاً : أمره بالاستغفار ، وهل استغفار النبي ﷺ من ذنب أذنبه ؟ نقول : حاشاه أن يكون كذٰلك ، ولـٰكنه أمره بذٰلك لعدة أمور ، منها : تعليماً للعباد أن يستغفروا ربهم علىٰ كل حال ، أو استغفر لتمام الشيء وكماله ، واستعد ليوم البقاء والخلود[١] .

يقول ابن العربي رحمه الله عند قوله : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ...﴾ : « توبة ٱلله علىٰ النبي رده من حالة الغفلة إلىٰ حالة الذكر ، أو دعاؤه إلىٰ التوبة ، يقال : تاب ٱلله علىٰ فلان ، أي : دعاه ، ويقال : تاب ٱلله عليه ، يسره للتوبة ، وقد يكون خبراً ، وقد يكون دعاءً ، ويقال : تاب عليه ، ثبته عليها ، ويقال : تاب عليه ، قبل توبته ، وذٰلك كله صحيح »[٢] .

أما الترتيب في الأوامر هنا ، فلم يكن اعتباطاً ، بل كان له حكمة يجليها لنا الطاهر بن عاشور رحمه الله بقوله : « وتقديم التسبيح والحمد علىٰ الاستغفار ؛ لأن التسبيح راجع إلىٰ وصف ٱلله تعالىٰ بالتنزه عن النقص ، فالتسبيح متمحض لجانب ٱلله تعالىٰ ، ولأن الحمد ثناء علىٰ ٱلله لإنعامه ، وهو أداء العبد ما يجب عليه شكر المنعم ؛ فهو مستلزم إثبات صفات الكمال لله التي هي منشأ إنعامه علىٰ عبده ؛ فهو جامع بين جانب ٱلله وحظ العبد ، وأما الاستغفار فهو حظ للعبد وحده ؛ لأنه طلبه ٱلله أن يعفو عما يؤاخذه عليه »[٣] .

والاستغفار يكون في أحوال كثيرة غير ما هو معروف ومنها : تمام النعمة ، أو حصول ما يسر ، وإبراهيم عليه السلام طلب المغفرة حين أتمَّ بناء البيت ، وهو نعمة جليلة .

---

(١) انظر : التفسير الكبير (٣٢ / ١٤٩) .

(٢) أحكام القرآن (٢ / ٥٩٤ ـ ٥٩٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٠ / ٥٩٥) .

خصائص حمد الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ :

ولحمد الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ خصائص يختص بها ، وهٰذه الخصائص يمكن أن تستشف من الآيات التي حمدوا فيها ربهم ، فأذكر منها ما يلي :

أولاً : أنهم حمدوا ربهم علىٰ النبوة التي فضلهم بها علىٰ كثير من العالمين ، وذٰلك : أن منزلة النبوة ليست بجهد الشخص ، ولا بقوته ، أو ماله ليصل إليها ، وإنما اصطفاء من ٱلله ـ عز وجل ـ لذٰلك حمدوه علىٰ هٰذا الفضل العظيم ، وتجسد في حمد داود وسليمان عليهما السلام [1] .

ثانياً : حمدهم الدائم الذي لا ينقطع لا في صغر ولا في كبر ، وعلىٰ أن ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ سامع لدعائهم ، ومجيبهم عليه ، وقد تجسد ذٰلك في حمد إبراهيم عليه السلام ، حينما حمد ربه علىٰ أن وهبه الولد علىٰ الكبر ، ثم حمده علىٰ أن سمع دعاءه[2] .

ثالثاً : حمدهم المستمر الذي لا ينقطع ليل نهار علىٰ جميع ما منَّ به عليهم من مأكل ومشرب وملبس وأمن ، وغير ذٰلك ، وقد وجدنا ذٰلك في سنة النبي ﷺ ليدلنا علىٰ ارتباطه الشديد بربه ، وعدم استغنائه عنه أبداً ، وليكون ذٰلك تبصيراً وتعليماً للمؤمنين بأن يكونوا علىٰ شاكلتهم في حمد ربهم .

رابعاً : أنهم يقدرون علىٰ أبلغ وأجمل الحمد الذي لا يقدر عليه غيرهم ، وما ذاك إلا لمعرفتهم الشديدة بربهم ـ عز وجل ـ حيث يفتح لهم ربهم من مجامع حمده وشكره وذكره ما لا يفتحه علىٰ غيرهم ، وهٰذا مشاهد في الدنيا مما نقل عنهم عامة ، وعن بعضهم خاصة ، فقد سمي نوح عليه السلام

---

(١) انظر : الكشاف (٣ / ٣٥٧) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٢ / ٥٤٢) .

عبداً شكوراً ، وذلك لكثرة حمده وشكره لربه على الصغائر من النعم قبل الكبائر منها [١] ، وما نقل عنهم يوم القيامة عند سجود النبي ﷺ بين يدي ربه فيفتح عليه بمحامد لا يستطيعها ، ولا يعرفها في الدنيا ، فكان ذلك دليلاً على فتح ربهم عليهم أكثر من غيرهم .

خامساً : حمدهم لله على جلاله وكماله وسائر صفاته وأسمائه ، فهم الأصفياء الكمّل ؛ الذين عرفوا ربهم حق المعرفة ، فحمدوه على هذا الكمال المطلق .

✍ ✍ ✍

---

(١) انظر : أضواء البيان (٣ / ١٣) .





الفصل الثالث
حمد المؤمنين

المؤمنون هم الذين عليهم مدار الأمر بأكمله ، فقد خلقهم ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ لعبادته ، وأرسل إليهم الرسل لتبصيرهم بالهدىٰ ؛ الذي يجب أن يسيروا عليه في حياتهم ، لذٰلك لم يترك الناس هملاً لا دين لهم ، ولا رادع يردعهم عن مساوئ الأخلاق ، أو ليأتوا يوم القيامة يحاجون ربهم بعدم معرفتهم به ، وبالطريق الموصلة إليه ، وإنما اصطفىٰ من بني جلدتهم من يدعونهم إلىٰ الهدىٰ ، ويحذرونهم من الغي والضلال ولتقوم سنة ٱلله في الأرض ؛ ليعلم من يخافه بالغيب ، فيدخله جنته ، ومن هو في ضلال مبين ، فينال عقابه .

وهم أولىٰ بحمد ربهم ، وذٰلك لأنهم أقل معرفة به من الأنبياء عليهم السلام أو من الملائكة الذين هم أقرب ، وأعرف بربهم من غيرهم ، فكان حمد هٰؤلاء عن معرفة ، ولم يبلغوا حمد ربهم الحمد الذي يستحقه ، فكيف بغيرهم ممن هم أقل معرفة ، وأسرع في النكران والهفوات والزلات والخروج عن الصراط المستقيم ، فكانوا بذٰلك أقل حمداً وشكراً لربهم الذي يحلم عليهم ، ويقابل إساءتهم بالخير ، والعفو لمن كان منه إنابة ، ومجازاتهم علىٰ الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ أضعاف كثيرة ، وعلىٰ السيئة مثلها ، ويعفو عن كثير ، فكان بذٰلك مستحقاً للحمد منهم أعظم الحمد علىٰ ما تفضل به من إحسان إليهم .

وهم في حمد ربهم علىٰ درجات ، فمنهم من هو مداوم علىٰ ذٰلك ليل نهار لما عرف من فضل ربه عليه ، ومنهم من هو أقل من ذٰلك إلىٰ من كان منهم لا يحمد ربه إلا في النزر اليسير الذي لا يذكر .

وربنا ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ليس محتاجاً لأحد أن يحمده ، فضلاً أن يكون محتاجاً لشيء أكبر من ذٰلك ، لـٰكنه خلق الخلق وقدر لهم الحياة والموت ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ، وهنا لفتة وهي أنه لم يقل : (أكثر عملاً) بل قال : ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهو ما كان صواباً خالصاً ، فكان الحمد من العمل القليل في فعله ، لـٰكنه من أحسن الأعمال ، فحق لكل مؤمن أن يحمد ربه كي ينال بذٰلك الزيادة في الخير ، ويكون ممن أحسن العمل لينال رضا الجليل ، جل جلاله .

وسأقوم فيما يأتي بالتعليق والحديث حول بعض الآيات التي جاء فيها الحديث عن حمد المؤمنين ، ومن ذٰلك :

أولاً : حمدهم لربهم في الدنيا :

١ ـ وذٰلك في قوله تعالىٰ : ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ١١٢] وفيه تعديد لصفات المؤمنين ، والتعديد كما ذكر السيوطي رحمه الله في الإتقان هو : « إيقاع الألفاظ المفردة علىٰ سياق واحد ، وأكثر ما يوجد في الصفات كقوله : ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ...﴾ »(١) ، وهـٰذه الصفات مكملة للآية السابقة لها ، وهي قوله : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة : ١١١] الآية ، فكأنه عندما ذكر عقد المبايعة

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢ / ٢٤٣) .

بينه وبين المؤمنين ذكر الشرط على البيع ، وهو هٰذه الصفات .

وقيل بأن سبب نزول ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ أنه لما نزلت التي قبلها قال رجل : يا رسول ٱلله وإن سرق وإن زنىٰ وإن شرب الخمر ؛ فنزلت هٰذه الآية[١] . وسأذكر شيئاً عن معنىٰ كل صفة بإيجاز[٢] :

فقوله : ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ أي : الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات وإن لم يقترفوها .

﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ أي : المتصفون بالعبودية لله ، والاستمرار علىٰ طاعته في الواجبات والمستحبات .

﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ هم المعترفون لله في السراء والضراء واليسر والعسر بما له عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، المثنون عليه بذكرها آناء الليل وأطراف النهار .

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ وهي تعني إما الصيام من قوله في « سورة التحريم » ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي : صائمات ، وإما من السياحة ، وهي السفر في القربات كالحج والعمرة وطلب العلم والتجارة وغيرها .

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهاتان الصفتان ذكرتا مع بعضهما ، كناية عن الصلاة ، وإن قيل : لم عبر عن الصلاة هنا بالركوع والسجود ؟ فأقول : كل أفعال الصلاة اعتيادية من القيام والقعود وغيره ، إلا الركوع والسجود ، فهو لا يكون إلا في الصلاة ؛ لذٰلك كان التعبير عنه أبلغ في بيان التذلل لله ، والتقرب منه بهٰذه الصفات . ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وجاءت هاتان الصفتان مع بعضهما لشدة علاقتهما ، فالأمر بالمعروف يلزم منه النهي عن المنكر ، واختلف العلماء في الواو التي عطفت

(١) زاد المسير (٣/ ٥٠٥) .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود (٤ / ١٠٦) .

النهي عن المنكر على الأمر بالمعروف ، فمنهم من قال : هي واو الثمانية ، حيث إن العرب تعتبر العدد سبعة هو أكمل الأعداد ، فما بعده استئناف جديد يحتاج إلى عطف بالواو ، واستدلوا على ذلك بما جاء في « سورة الكهف » في قوله : ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف : ٢٢] ، وغيرها في القرآن ، ومنهم من قال : (إن الواو إنما دخلت على الناهين ؛ لأن الآمر بالمعروف ناه عن المنكر في حال أمره ، فكان دخول الواو دلالة على أن الأمر بالمعروف لا ينفرد دون النهي عن المنكر ، كما ينفرد الحامدون بالحمد دون السائحين والسائحون بالسياحة دون الحامدين في بعض الأحوال والأوقات) (١) .

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي : الملتزمون بحدود ما أنزل الله على رسوله قولاً وعملاً .

يقول الطاهر : « والصفات هنا قطعت عن صيغة الوصفية ، وجعلت أخباراً لمبتدأ محذوف هو ضمير الجمع ، ثم عطف ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ على ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ لأن العطف وعدمه جائز في الأخبار ، ولم يعطف ما قبلها من الصفات ؛ لأنها ظاهرة في استقلال بعضها عن بعض ، وإنما عطف (الناهون) على (الآمرون) لئلا يُتوهم الجمع بينهما كالصفات التي قبلهما ، ثم عطف ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ لأنها صفة جامعة للعمل بالتكاليف الشرعية عند توجهها »(٢) .

وحث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ بالمحافظة على هذه الصفات : (من مات على هذه التسع فهو في سبيل الله) ، وقال : الشهيد من كان فيه التسع الخصال : (التائبون) إلى : (حدود الله) (٣) .

والترتيب في هذه الصفات له حكمة تتبين من إمعان النظر فيها ، وهو أن

---

(١) زاد المسير (٣ / ٥٠٦) .

(٢) تفسير ابن عاشور (١١ / ٤١ ـ ٤٢) .

(٣) انظر : فتح القدير (٢ / ٤٠٩) ؛ الدر المنثور (٤ / ٢٩٦) .

التائب من الكفر أو من المعاصي لابد أن يقوم بالعبادات المفترضة عليه عامة بحسب قدرته ، ثم من قام بالتوبة والعبادة حق له أن يحمد ربه عليها ؛ لأنها توفيق وامتنان من ٱلله ، ثم بعد التوبة والقيام بالعبادة عامة ، والحمد عليها فصل في العبادات بذكر نوعين ، وهو الصيام الذي يحتاج من المسلم إلىٰ الصبر ، ثم الصلاة التي هي عمود الدين ، وقد عبر عن الصلاة بفعلين من أفعالها ، لا يمكن أن تفعل إلا في الصلاة فقط ، وهما الركوع والسجود ، والتي فيها الخضوع لله وبيان انكسار العبد بين يدي ربه ؛ ليكون بذٰلك في أشرف مكان ، وبخاصة في السجود ؛ لأن العبد كلما زاد في الخضوع لله زاده ٱلله بذٰلك رفعة ، حيث برهن علىٰ حمد ربه بهاتين العبادتين ، جعلنا ٱلله ممن يزداد في الخضوع لمولاه ليزداد رفعة في الدنيا والآخرة .

ثم من حافظ علىٰ هـٰذه الصفات ارتقت نفسه في الغيرة علىٰ دين ٱلله ؛ ليكون من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ؛ الذي لا ينسجم مع أنفس المرتقين في درجات الخضوع لربهم ، ولا يمكن للإنسان أن يكون قائماً بهاتين الصفتين إلا بعد أن يكون محافظاً علىٰ ما قبلها من الصفات المذكورة آنفاً ، بعد ذٰلك تزكو النفس ، وتتطهر من الأدران ؛ ليكون قولها مطابقاً لفعلها ظاهراً وباطناً ، وذٰلك بالمحافظة علىٰ حدود ٱلله في الظاهر والباطن ؛ ليستوي عندها الإخلاص في السر والعلانية ، فمن أحكم هـٰذه الصفات كانت له البشارة من النبي ﷺ بأمر ٱلله له بذٰلك ؛ ليكون ممن له السعادة في الدارين .

يقول السلمي رحمه الله : « ليس في الدنيا شيء من الحقوق أوجب علىٰ الخلق من التوبة ، ولا عقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة . قال ابن عطاء : لا تصح العبادة إلا بالتوبة له ، والمداومة علىٰ السياحة والرياضة ، ولا هـٰذه المقامات إلا بمداومة الركوع والسجود ، ولا يصح هـٰذا كله إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يصح شيء مما تقدم إلا بحفظ الحدود ظاهراً وباطناً ، والمؤمن من تكون هـٰذه صفته ؛ لأن ٱلله يقول : ﴿وَبَشِّرِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين هم بهٰذه الصفة »[١] .

(وقدمت صفة التوبة ؛ لأنها أول منازل السائر بعد يقظته ، ولا تتم التوبة إلا بالمحاسبة)[٢] .

٢ ـ ومن حمد المؤمنين ما ورد في هٰذه الآية من « سورة السجدة » ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ [السجدة : ١٥] ويلحظ المتأمل في هٰذه الآية : أن الحمد صدر من المؤمنين قولاً وفعلاً ، وذٰلك علىٰ درجات ، وهي : أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم ازدادوا إيماناً ، وذٰلك اعتراف منهم لربهم علىٰ أن وفقهم للتفكر في آياته ، وزيادة إيمانهم بها ، ثم يطبقون ذٰلك الاعتراف عملياً بالسجود لربهم الذي وهبهم هٰذه الفضائل ، ثم يأخذون في تنـزيه ربهم عما لا يليق بمقام ربوبيته ، محركين ألسنتهم بالتسبيح ، فيزدادون رفعة عند ربهم ، ثم يردفون هٰذه الأفعال والأقوال بحمد ربهم الذي يكون لها كأحسن لباس لأحسن بدن ، فيكونون بذٰلك في أذل انكسار لربهم ليرتقوا بهٰذه الأفعال والأقوال إلىٰ معارج القبول عند ربهم ؛ ليصلوا إلىٰ أسمىٰ درجات العزة والرفعة[٣] .

٣ ـ ثم تأتي الآية التي بعدها ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] وفي هٰذه الآية بيان أن : من كان خاشعاً لربه منكسراً بين يديه عند سماع آياته ، فإنه يظل في شوق لمناجاة ربه علىٰ الدوام ، فلا تسكن نفسه حتىٰ وهو في مضجعه الذي فيه الراحة والدعة ، وإنما تكون راحته في مناجاة ربه خوفاً منه وطمعاً فيما أعد له ، وذٰلك بعد أن طمعه بقوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا

(١) تفسير السلمي (١ / ٢٨٨) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ١٣٢ ـ ١٣٣) .
(٣) انظر : الكشاف (٣ / ٥١٨) ؛ تفسير السعدي (١ / ٦٥٥) .

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] ، فحق لمن سمع هٰذا الوعد من أصدق الصادقين ، وأحكم الحاكمين أن تتوق نفسه لهٰذا النعيم الذي لا أذن سمعت به ، ولا عين رأت مثله ، ويستحيل أن يتخيله عقل بشر مهما حاول ذٰلك ، فكانت كل هٰذه الأفعال والأقوال برهاناً علىٰ صدق الإيمان المتلبس بالحمد ، فلا يكون إيمان بدون حمد ، ولا حمد بدون إيمان .

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « و﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي : خاضعين لها ، خضوع ذكر لله ، وفرح بمعرفته . ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ لا بقلوبهم ، ولا بأبدانهم ، فيمتنعون من الانقياد لها بل متواضعون لها ، وقد تلقوها بالقبول ، وقابلوها بالانشراح والتسليم ، وتوصلوا بها إلىٰ مرضاة الرب الرحيم ، واهتدوا بها إلىٰ الصراط المستقيم . ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي : ترتفع جنوبهم ، وتنـزعج عن مضاجعها اللذيذة ، إلىٰ ما هو ألذ عندهم منه ، وأحب إليهم ، وهو : الصلاة في الليل ، ومناجاة ٱلله تعالىٰ . ولهٰذا قال : ﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير ، والنعيم الغزير ، والفرح والسرور ، واللذة والحبور . كما قال تعالىٰ علىٰ لسان رسوله ﷺ : « أعددت لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر »[1] . فكما صلوا في الليل ودعوا ، وأخفوا العمل ، جازاهم من جنس عملهم ، فأخفىٰ أجرهم »[2] .

ثانياً : حمدهم عند خروجهم من القبور :

١ ـ ومما جاء في « سورة الإسراء » قول ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٥٢] ويلحظ المتأمل أن الحمد هنا يختلف عما جاء في الآيات السابقة ، فقد كان الحمد في

(١) صحيح البخاري ، باب : ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣ / ١١٨٥) برقم : (٣٠٧٢) .

(٢) تفسير السعدي (١ / ٧٨٦) .

الآيات السابقة صادراً من المؤمنين في الدنيا في حالة السجود ، أما في هٰذه الآية الكريمة ، فالحمد يكون عند الخروج من القبور ، وقد اختلف العلماء عمن صدر منهم الحمد ، فمنهم من قال : هو من المؤمنين فقط ، ويصدق ذٰلك ما رواه الطبراني ، وابن حجر عن ابن عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ عن النبي ﷺ ، قال : « ليس علىٰ أهل لا إلـٰه إلا ٱلله وحشة في قبورهم ، وكأني بأهل لا إلـٰه إلا ٱلله ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن »[1] ، ومنهم من قال كلا الفريقين المؤمنين والكافرين ، يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « هو خروج الخلق بدعوة الحق ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ فيقومون يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، فيوم القيامة يوم يبدأ بالحمد ويختم به ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ وقال في آخره : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ »[2] .

عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : « ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : (سبحانك اللهم وبحمدك) »[3] .

وعلىٰ هٰذا فحمد المؤمنين يكون خيراً ونفعاً لهم ، أما حمد الكفار فلا ينفعهم حين ذاك ، لٰكنهم قد اعترفوا بحمده ، ولا يدخل أحدهم النار إلا وقد امتلأ قلبه بحمد ربه ، لٰكن ذٰلك حين لا ينفعه الحمد والإيمان .

نسأل ٱلله أن يجعل حمدنا لربنا دائماً في الدنيا ، ونافعاً لنا في الآخرة .

ثالثاً : حمدهم في الآخرة :

١ ـ ومن ذٰلك ما جاء في « سورة الأعراف » عند قوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩ / ١٨١) ، وابن حجر في المطالب العالية (١٢ / ٢٧٤) ، وهذه الرواية وإن كان في سندها نظر ؛ لكنها تتقوى بالآية السابقة لها .

(٢) تفسير القرطبي (١٠ / ٢٧٦) ؛ والآية من سورة الإسراء : ٥٢ ؛ والأخرى من سورة الزمر : ٧٥ .

(٣) تفسير النسفي (٢ / ٢٨٩) .

صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ٤٣] والآية الكريمة تدل المتأمل فيها على أمور :

أولاً : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد نزع من قلوب أهل الجنة الغل والحقد ، والغل : هو ما تغلغل في النفس ، وله معنيان : **أحدهما** : إما أن يكون ذلك الغل والبغضاء الذي في الدنيا فيزال ، ولا يبقى له أثر ، وقد ورد عن علي ـ رضي الله عنه ـ : أنه قال : (إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم) [١] .

وثانيهما : أنه أزال من قلوبهم الحسد ؛ بحيث لا يحسد أصحاب الدرجات السفلى من الجنة أصحاب الدرجات العليا ، فيجدون في أنفسهم عليهم ما يوقعهم فيه ، وهذا ليس لأهل الجنة نصيب منه ، فيكون الكل راضياً بما قسمه الله له ، وكل ذلك بقدرة الله الذي هو على كل شيء قدير ، ثم متعهم بأنواع الملذات من جريان الأنهار وغيره من النعيم المقيم ؛ الذي لم تسمع به أذن ، ولم تره عين قط [٢] .

ثانياً : الحمد من المؤمنين على ما وهبهم الله من هذا النعيم ، والحمد هنا ليس من الأنبياء ولا من الملائكة ، وذلك واضح من سياق الآية ، وهو أن الله نزع من قلوبهم الغل ، والغل لا يكون في قلوب الأنبياء ولا الملائكة ؛ لأن الله طهر أنفسهم من ذلك ، فكان الحمد هنا يقيناً بأنه حمد المؤمنين ، واحتمال الحمد هنا على أمرين :

أولهما : إما على ما يسر الله ـ تبارك وتعالى ـ لهم من طرق الهداية في الدنيا والقيام بأمر ربهم على أكمل وجه ؛ حتى أوصلهم لما هم فيه ، فكان

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧ / ٥٤٤) .

(٢) انظر : التفسير الكبير (١٤ / ٦٦) .

متأخراً عن أمور قد سبقت ، وهي السير على الطريق المستقيم الذي حرم منه غيرهم .

وثانيهما : قد يكون حمدهم على أن أدخلهم الجنة ، وحقق لهم أسمى ما يصبون إليه ، فاستحق أن يحمد على هذه النعمة أكبر الحمد .

ولو أمعنا النظر في سياق الآية ، وهو قوله : ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا ...﴾ لتبين لنا أنها تجمع بين المعنيين فقوله : ﴿لَقَدْ جَآءَتْ﴾ يعني : بما أرسلهم ٱلله به في الدنيا من سبل الهداية ؛ التي منَّ ٱلله بها علينا فاتبعناها ، فله بذلك الحمد والشكر ، ثم قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا﴾ يعني : ما نالهم من النعيم المقيم ، فله كذلك الحمد والشكر[١] .

وقد جمع بين المعنيين السعدي رحمه الله حيث قال : « ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ بأن منَّ علينا وأوحى إلى قلوبنا فآمنت به ، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار ، وحفظ ٱلله علينا إيماننا وأعمالنا حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار ، فنعم الرب الكريم الذي ابتدأنا بالنعم ، وأسدى من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يحصيه المحصون ، ولا يعده العادون »[٢] .

ويقول صاحب المنار رحمه الله : « ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا﴾ في الدنيا للإيمان الصحيح والعمل الصالح ؛ الذي كان هذا النعيم جزاءه ـ فأدخل اللام على المسبب للعلم بالسبب ـ ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ أي : وما كان من شأننا ولا مقتضى بديهتنا أو فكرتنا أن نهتدي إليه بأنفسنا ؛ لولا أن هدانا ٱلله إليه بتوفيقه إياناً لاتباع رسله ومعونته لنا ، ورحمته الخاصة ، علاوة على هداية فطرته التي فطرنا عليها ، وهداية ما خلق لنا من المشاعر والعقل »[٣] .

---

(١) انظر فتح القدير (٢ / ٢٠٦) .

(٢) تفسير السعدي (١ / ٣٢٢) .

(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٨ / ٤٢١ ـ ٤٢٢) .

٢ ـ ومما جاء من حمد المؤمنين في الآخرة قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ٩ ـ ١٠] وهنا يصف ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ حال أهل الجنة ، وكيف استحقوها بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فشرط الإيمان هو العمل الصالح ؛ الذي به تكون الهداية من ربهم للجنة والملذات التي لا تفنىٰ ولا تنقطع عنهم أبداً ومنها جريان الأنهار من تحتهم ، ثم بعد ذٰلك ذكر عن بعض أحوالهم في الجنة بقوله : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، ومن هٰذه الآية نستخلص أموراً عدة وهي :

أ ـ قوله : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ قيل : إن أهل الجنة إذا أرادوا الطعام نادوا بهٰذا الدعاء ، فتأتيهم الملائكة بالطعام ، روىٰ ابن كثير عن مقاتل قال : (إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم : (سبحانك اللهم) قال : فيقوم علىٰ أحدهم عشرة آلاف خادم ، مع كل خادم صحفة من ذهب ، فيها طعام ليس في الأخرىٰ ، قال : فيأكل منهن كلهن)[(١)] .

ب ـ قوله : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ قيل : هي التحية من ٱلله عليهم بالسلام ، وذٰلك من قوله تعالىٰ : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٤] ، وقيل : هي تحية الملائكة عند دخولهم عليهم بالطعام والشراب ، وذٰلك من قوله : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣ ـ ٢٤] ، وقيل : أهل الجنة يحيي بعضهم بعضاً بالسلام ، يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومعنىٰ : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ أنّ بعضهم يحيي بعضاً بالسلام ، وقيل : هي تحية الملائكة إياهم ، إضافة للمصدر إلىٰ المفعول ، وقيل : تحية ٱلله لهم ، و« أن » هي المخففة من

---

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٤٠٩) .

الثقيلة ، وأصله : (أنه الحمد لله) على أن الضمير للشأن . . »[١] .

ج ـ قوله تعالىٰ : ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ويقال هنا إن أهل الجنة إذا أكلوا قدر حاجتهم من الطعام ؛ الذي سألوه بقولهم : (سبحانك اللهم) قالوا : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] .

وقيل بأن هـٰذا ليس لائقاً بأهل الجنة ، ولا يمكن أن يكونوا بحاجة للنداء عند رغبتهم في الأكل أو الشرب ، وإنما هم في نعيم ، فبالتمني ينال الواحد منهم حاجته ؛ فإذا مر به الطائر وتمناه يصبح ـ بقدرة ٱلله ـ أمامه علىٰ طبق بألذ ما يكون ، وقيل عن قولهم : ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لدخولهم الجنة ومشاهدتهم لربهم ، عز وجل .

يقول البيضاوي رحمه الله : « ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي : أن يقولون ذٰلك . ولعل المعنىٰ : أنهم إذا دخلوا الجنة ، وعاينوا عظمة ٱلله وكبرياءه ؛ مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ، ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات ، أو ٱلله ، فحمدوه ، وأثنوا عليه بصفات الإكرام »[٣] . وهـٰذا الذي تميل إليه النفس ، وإن كان بعض المفسرين[٤] علىٰ القول الأول ، لـٰكن لكلٍّ رأيه ، ووجهة نظره ـ وٱلله أعلم ـ .

وقد يكون الحمد هنا هو الحمد الذي في ختام الأمر ، فقد بدأ ٱلله الخلق بالحمد وختمهم بالحمد فكان له الحمد طول المدىٰ كما أخبر ابن كثير رحمه الله بذٰلك في قوله : « (فيه دلالة علىٰ أنه تعالىٰ هو المحمود أبداً ، المعبود علىٰ طول المدىٰ ، ولهـٰذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه ، واستمراره ، وفي ابتداء كتابه ، وعند ابتداء تنزيله ، حيث يقول تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ

---

(١) الكشاف (٢ / ٣١٦) .

(٢) انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي (١١ / ٧٧) .

(٣) تفسير البيضاوي (٣ / ١٠٦) .

(٤) ومنهم الرازي (١٧ / ٣٦) ؛ وابن كثير (٢ / ٤٠٩) .

ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف : ١] ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام : ١] إلىٰ غير ذٰلك من الأحوال التي يطول بسطها ، وإنه المحمود في الأولىٰ والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال ، ولهٰذا جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس »[١] ، وإنما يكون كذٰلك لما يرون من تزايد نعم ٱلله عليهم ، فتكرر ، وتعاد ، وتزداد ، فليس لها انقضاء ولا أمد ، فلا إلٰه إلا هو ، ولا رب سواه[٢] .

٣ ـ ومما يدل علىٰ حمد من عرف ربه ، وأثنىٰ عليه بما هو أهله قول أهل الجنة عند دخولهم لها فيما أخبر ٱلله عنهم بقوله : ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر : ٣٣ ـ ٣٥] وقد جاء حمد المؤمنين لربهم بعدما عاينوا مقامهم في دار المقامة ، وهي دار لا يمسهم فيها نصب ولا لغوب ، وهي الدار الباقية الخالدة ، وهي جنات عدن . وقد سبق في هٰذه الآية قبل (حمد المؤمنين) الحديث عما يلقاه المؤمنون في جنات عدن من الخير ، والفضل ، والعطاء العميم ، فقد ذكر ٱلله في هٰذه الآية الكريمة بعض ما أعد لعباده المؤمنين من النعيم في الجنة ، فقد قال عنها بأنها جنات وليست جنة ، عن أنس ـ رضي ٱلله عنه ـ : أن أم حارثة أتت رسول ٱلله وقد هلك حارثة يوم بدر أصابه غرب سهم ، فقالت : يا رسول ٱلله قد علمت موقع حارثة من قلبي ، فإن كان في الجنة لم أبك عليه ، وإلا سوف ترىٰ ما أصنع ، فقال لها : « هبلت ؟ أجنة واحدة هي ؟ ! : إنها جنان كثيرة ، وإنه في الفردوس الأعلىٰ . . . . »[٣] .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم باب صفات أهل الجنة وأهلها تسبيحهم (٤ / ٢١٨٠) برقم : (٢٨٣٤) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٤٠٩) .

(٣) أخرجه البخاري باب صفة الجنة والنار (٥ / ٢٤٠١) . برقم : (٦١٩٩) .

فمن هٰذا الحديث يتبين لنا : أن المؤمن يكون في جنات كثيرة لزيادة نعيمه ، ثم ذكر ٱلله في الآية ما أعد لهم من اللباس والحلي فيها ، ومن ذٰلك نلحظ أمراً ، وهو أن الإنسان إذا كان في كامل زينته ، يعني أنه ليس في شغل ، وإنما هو في راحة ودعة ، فكذٰلك أهل الجنة هم في أكمل الزينة ؛ ليدل علىٰ أن الجنة لا تعب فيها ولا هم ، فقد ألبسهم ربهم الحرير ، وحلاهم بالأساور ؛ ليقول لهم : ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور : ١٩] ، ثم إذا استتم لهم ذٰلك ، وأدركوا أن ربهم قد أنجاهم من النار وأدخلهم جنته حمدوا ربهم علىٰ ذٰلك فقالوا : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر : ٣٤] ، وللحزن أقوال ذكرها المفسرون ، فقالوا : أذهب عنهم إما حزن هم المعاش في الدنيا ، أو حزن وسوسة إبليس لهم ، أو حزن الخوف من الخاتمة ، أو حزن هموم الدنيا قاطبة ، أو حزن أهوال يوم القيامة من هول الموقف والعذاب والمرور علىٰ الصراط ، وغير ذٰلك[١] ، ويقول الرازي رحمه الله : « أذهب عنهم كل حزن ؛ لأن الألف واللام للاستغراق »[٢] .

ثم حمد منهم وشكر لربهم المتصف بصفة المغفور ؛ الذي قد غفر جميع ذنوبهم ، ودليل ذٰلك أنه أدخلهم الجنة ، ثم هو شكور ، أي : أنه يقبل القليل من العمل ، ويجازي عليه بالأجر الكبير ، فهاتان الصفتان للمبالغة في المغفرة والمجازاة علىٰ الأعمال بالخير الكثير وإن قلت .

ثم عبروا بعد ذٰلك عن الراحة الأبدية التي ليس فيها تعب ولا نصب ، ولا هم أو كدر من أي منغص لهٰذه الحياة الهانئة بقولهم : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر : ٣٥] وهنا لابد أن يعلم الجميع بأن دخول الجنة إنما هو برحمة الرحمٰن بعد القيام بالأعمال ، وإنما هي أسباب موصلة لرحمته سبحانه ، ولتكون لهم اختبار أيهم أحسن فيها ليتفضل عليهم بما أعد لهم من

(١) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٣ / ١٥٩) ؛ تفسير أبي السعود (٧ / ١٥٣) .

(٢) تفسير الرازي (٢٦ / ٢٧) .

النعيم ؛ الذي لا يمسهم فيه نصب ولا لغوب ، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء ، والنصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب وكأن المراد بنفي هٰذا ، وهٰذا عنهم أنهم لا تعب علىٰ أبدانهم ولا أرواحهم »[١] .

والحمد في هٰذه الآيات جاء بين إخبار ٱلله بما أعد للمؤمنين من النعيم في الجنة ؛ وبين ما أخبروا به عما وجدوه من ذٰلك النعيم ، فجاء الحمد بعد التفضل من ٱلله وقبل أن يذكروا ما أعد ٱلله لهم من النعيم ؛ ليكون ذٰلك إقراراً بأن ما هم فيه ما هو إلا من فيض نعمه عليهم ، فكان الحمد سابقاً لذكرهم النعم وتعديدها .

وفي الآية التالية من سورة (الزمر) بيان لحمد المؤمنين في الآخرة علىٰ أن صدقهم ربهم ما وعدهم به ، حيث قالوا : ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر : ٧٤] وهٰذه الآية مشابهة لما قبلها حيث بدأ المؤمنون حمد ربهم قبل ذكر ما أعد لهم من النعيم اعترافاً لخالقهم بالفضل أول الأمر وآخره ، وجاءت هٰذه الآية بعد بيان هول ذٰلك الموقف يوم القيامة من سوق أهل النار إليها ، وشفقة غيرهم من أن يصيبهم ما أصابهم ، لٰكن يعمهم فضل ٱلله ومنّته ، حيث يساقون إلىٰ الجنة ، ويقابلون بالترحيب والسلام من خزنتها عندها يقولون : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمداً علىٰ أن ﴿صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ الذي وعدنا إياه في الدنيا علىٰ لسان رسله في قوله : ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران : ١٩٤] ، وكان الوفاء بالوعد من ربهم بأن ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ والأرض هنا علىٰ رأي بعض المفسرين[٢] أنها أرض الجنة ، ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي : أنهم ينزلون فيها حيث شاؤوا ، ثم يمتدحهم ٱلله بقوله : ﴿فَنِعْمَ

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٥٦٥) .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٣ / ٢٠٠) ؛ التفسير الكبير (٢٦ / ٢٢١) .

﴿أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ وفي الكلام تضمين لـ : (بئس عمل ومصير غيرهم) [١] .

وأعقب ٱلله هـٰذه الآية بآيات يذكر فيها الحمد ، حين قال عن الملائكة الحافين بالعرش : إنهم يسبحون بحمد ربهم ، ثم ختم هـٰذه السورة العظيمة بقوله : ﴿وَقِيلَ﴾[٢] من جميع من هو موجود : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ، وهـٰذه المحامد المتتالية في هـٰذا المكان العظيم من هـٰذا الجمع المبارك ؛ ما هي إلا دليل علىٰ فضل الحمد ومكانته عند ٱلله ، فقد بدأ بالحمد عامة ، وختم خير الأمور ، وهي دخول الجنة بالحمد ، فالحمد لمستحق الحمد الذي لا يتفضل سواه ؛ حتىٰ لا يحمد سواه .

روي عن علي بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ أنه تلا هـٰذه الآية : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ [الزمر : ٧٣] قال : وجدوا عند باب الجنة شجرة يخرج من ساقها عينان ، فعمدوا إلىٰ إحداهما ؛ كأنما أمروا بها فاغتسلوا بها ، فلم تشعث رؤوسهم بعدها أبداً ، ولم تتغير جلودهم بعدها أبداً كأنما دهنوا بالدهن ، ثم عمدوا إلىٰ الأخرىٰ فشربوا منها ، فطهرت أجوافهم ، وغسلت كل قذر فيها ، وتتلقاهم علىٰ كل باب من أبواب الجنة ملائكة ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ ، ثم تتلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان الدنيا بالحميم يجيء من الغيبة يقولون : أبشر أعد ٱلله لك كذا وكذا ، وأعد ٱلله لك كذا ، ثم يذهب الغلام منهم إلىٰ الزوجة من أزواجه فيقول : قد جاء فلان ـ باسمه الذي كان يدعىٰ به في الدنيا ـ فتقول له : أنت رأيته فيستخفها الفرح حتىٰ تقوم علىٰ أسكفة بابها ترجع فيجيء فينظر إلىٰ تأسيس بنيانه من جندل اللؤلؤ أخضر وأصفر وأحمر من كل لون ، ثم يجلس فينظر ؛ فإذا زرابي مبثوثة ، وأكواب موضوعة ، ثم يرفع رأسه ، فلولا أن ٱلله قدر ذٰلك لأذهب بصره إنما هو مثل البرق ، ثم يقول : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا

(١) البحر المحيط (٧ / ٤٢٥) .
(٢) انظر : تفسير السعدي (١ / ٧٣١) .

لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف : ٤٣][1]) .

والذي يُستخلص من حمد المؤمنين لربهم عامة ، أنه قد انقسم إلىٰ ثلاثة أقسام ، هي :

الأول : حمد في الدنيا علىٰ ما منَّ به عليهم من النعم الكثيرة ؛ التي من أجلِّها نعمة الهداية للإسلام ، والحمد في الدنيا يكون حمد تكليف يثاب عليه فاعله ، ويرتقي به إلىٰ أرقىٰ المنازل .

الثاني : حمد الخروج من القبور بعد سماع النداء ، حيث يخرج الواحد منهم ينفض عن رأسه التراب ، ويقول : (الحمد لله) ، وهنا الحمد إلـٰهام من ٱلله ؛ لأن هول الموقف يذهل المرضعة عن ولدها ، ويكون الناس كالسكارىٰ ، ولا يثبت إلا من ثبته ٱلله .

الثالث : حمد أهل الجنة بعد دخولها ، ومشاهدة ما أعد ٱلله لهم من النعيم ، وعلىٰ أن صدقهم ربهم وعده الذي وعدهم إياه ، ويكون الحمد في الجنة حمد محبة وتعظيم ، وليس حمد تكليف كما في الدنيا ، فيلهمون الحمد كما يلهمون النفس ، فهم في حب وتعظيم حتىٰ في حمد ربهم .

يقول السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [2] : يحمد المؤمنون ربهم يوم القيامة في ستة مواضع ، هي :

الأول : حين نودي : ﴿ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فإذا تميز المؤمنون من الكافرين يقولون بلسان الحال : الحمد لله الذي لم يجعلنا مع القوم الظالمين .

---

(١) أخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة ، وقال : رواه زهير عن أبي إسحاق وإسناده صحيح (٢ / ١٦١ ـ ١٦٢) ، وابن حجر في المطالب العالية (١٨ / ٦٤٩) ، وقال : هذا حديث صحيح ، وحكمه حكم المرفوع ، إذ لا مجال للرأي في مثل هذه الأمور .

(٢) انظر : تفسير السمرقندي (٣ / ٧٤) .

والثاني : حين جازوا الصراط قالوا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر : ٣٤] .

والثالث : لما دنوا إلىٰ باب الجنة ، واغتسلوا بماء الحيوان[1] ، ونظروا إلىٰ الجنة ، وقالوا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

والرابع : لما دخلوا الجنة استقبلتهم الملائكة عليهم السلام بالتحية فقالوا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ [الزمر : ٧٤] .

والخامس : حين استقروا في منازلهم وقالوا : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [فاطر : ٣٥] .

والسادس : كلما فرغوا من الطعام قالوا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٥] .

وأقول بأن المؤمنين ينتقلون من حمد إلىٰ حمد ، ومن شكر إلىٰ شكر ، لا ينقطع ذٰلك عنهم حتىٰ بعد استقرارهم في الجنة ، ليكون هٰذا الحال ملازماً لهم أبد الآبدين ، فهو حياتهم التي يحيون بها ، والنفس الذي يتنفسونه ، فأصبح حمد ٱلله من أشرف ما مُدح به ربنا أولاً وآخراً .

---

(١) **الحيوان** : أي : بماء الحياة الدائمة ، ومنه ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ ، تاج العروس (٣٧ / ٥٠٦) .





الفصل الرابع
حمد جميع المخلوقات

وللمخلوقات نصيب في حمد خالقها ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وذٰلك عند قوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، وفي هٰذه الآية الكريمة جاء الحديث بأن السمٰوات السبع والأرض خاصة تسبح لله ، ثم عمم ذٰلك علىٰ كل من فيهن ، أي : في السمٰوات والأرض ، ثم أكد علىٰ أنها كلها تسبح بحمد ربها فقال : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ وهٰذه عبارة تعني العموم ، لٰكن العلماء قد اختلفوا فيمن يسبح من الخلق : فمنهم من قال : إنْ كل من في السمٰوات والأرض إلا يسبح بحمده ، فالكائنات الحية تسبح ، والجمادات تسبح ، لأن الآية صريحة في ذٰلك ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ ﴾ وهٰذه عبارة عموم غير مخصَّصةٍ ، ومن أصحاب هٰذا الرأي الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي يرىٰ أن الأحياء والجمادات تسبح ، لٰكنه بين أن لكل نوع تسبيحاً وحمداً لربها ، حيث يقول : « اعلم : أن الحي المكلف يسبح لله بوجهين ، الأول بالقول ، كقوله باللسان : (سبحان ٱلله) ، والثاني بدلالة أحواله علىٰ توحيد ٱلله تعالىٰ ، وتقديسه ، وعزته ، فأما الذي لا يكون مكلفاً مثل البهائم ، ومن لا يكون حياً مثل الجمادات ، فهي إنما تسبح لله تعالىٰ بالطريق الثاني ؛ لأن التسبيح بالطريق الأول لا يحصل إلا مع الفهم والعلم والإدراك والنطق ، وكل ذٰلك في الجماد محال ، فلم يبق حصول التسبيح في حقه إلا بالطريق الثاني »[١] ، ويتضح من

---

(١) تفسير الرازي (٢٠ / ٢١٨) .

كلامه بأنه مع من قال بأن كل المخلوقات تسبح ٱلله التسبيح المتلبس بالحمد علىٰ وحدانيته وربوبيته ، لـٰكنه يرىٰ أن تسبيح الجمادات هو بالحال ، وليس بالمقال ، حيث إنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرفض رفضاً تاماً أن تسبح بالمقال ، واعتبر ذٰلك للأحياء العقلاء فقط ، حتىٰ الأحياء غير العقلاء كالبهائم والنباتات ، فعنده لا تسبح بالمقال ، وإنما بالحال .

وقد سبقه إلىٰ ذٰلك صاحب الكشاف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هـٰذا المقال ، أي : القول بتسبيح الحال ، ورد علىٰ قول : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أن الكلام موجه للمشركين الذين ادعوا أن مع ٱلله آلهة أخرىٰ ، فكأنه أراد أن يثبت بأن الجمادات تسبح لله ، وتعترف له بالوحدانية ، وأنتم أيها المشركون لا تفقهون ذٰلك التسبيح[1] .

ومنهم من قال بأن الكل يسبح لله ويحمده بلسان يعلمه ٱلله ، روي عن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] قال : « ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ جماد أو حي إلا يسبح بحمده حتىٰ صرير الباب ، ونقيض السقف »[3] .

ومن أدلة هـٰذا القول : ما جاء في تسبيح الطعام . روىٰ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : (كنا نعدّ الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفاً ، كنا مع رسول ٱلله ﷺ في سفر فقلَّ الماء ، فقال : « اطلبوا فضلة من ماء » ، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده في الإناء ، ثم قال : « حي علىٰ الطهور المبارك والبركة من ٱلله » ، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع

---

(١) انظر : الكشاف (٢ / ٦٢٦) .

(٢) هو الإمام الحافظ فقيه العراق ، إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي اليماني ، ثم الكوفي ، أحد الأعلام ، كان مفتي أهل الكوفة ، وقد أدرك أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، توفي وعمره تسع وأربعون سنة .

(٣) انظر : بحر العلوم للسمعاني (٣ / ٢٤٤) .

رسول ٱلله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل)[١] ، وكذٰلك من نهيه ﷺ عن قتل الضفدع لأن نقيقها تسبيح ، عن عبد ٱلله بن عمرو ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : نهىٰ النبي ﷺ عن قتل الضفدع ، وقال : « إن نقيقها تسبيح »[٢] .

ومن المؤيدين لهٰذا القول الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول : « إن الجمادات تنطق بلسان المقال لا بلسان الحال ، واعتبر من ينكر ذٰلك بأنه قاصر في الفهم ، واستشهد بقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] »[٣] .

وفي الحديث الذي رواه البزار ، وما ذكره من تسبيح الحصىٰ في يد النبي ﷺ ، وفي يد أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي ٱلله عنهم ـ عنده ما يؤيد هٰذا المعنىٰ[٤] .

ويرىٰ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن التسبيح هو بلسان الحال والمقال حيث يقول : (﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ بلسان الحال ولسان المقال ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أي : تسبيح باقي المخلوقات التي علىٰ غير لغتكم ، بل يحيط بها علام الغيوب)[٥] .

وممن ذهب إلىٰ القول بعموم التسبيح من جميع المخلوقات (جمادات وغيرها) ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : « إنه ليس يستحيل أن يكون للجمادات فضلاً عن البهائم تسبيح بكلام ، وإن لم نفقهه نحن عنها ، إذ ليس من شرط قيام

---

(١) أخرجه البخاري باب : علامات النبوة في الإسلام (٣ / ١٣١٢) برقم (٣٣٨٦) .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤ / ١٠٤) ، وقال الهيثمي : فيه المسيب بن واضح وقد وثق ، ورجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد (٤ / ٤١ ـ ٤٢) .

(٣) إحياء علوم الدين (١ / ١٠٣) .

(٤) أخرجه البزار في مسنده (٤ / ٣٠١) ، وقال الهيثمي : رواه البزار بإسنادين ، ورجال أحدهما ثقات ، مجمع الزوائد (٨ / ٢٩٨) .

(٥) تفسير السعدي (١ / ٥٣٤) .

الكلام بالمحل عند أهل السنة هيئة آدمية ، ولا وجود بلة ولا رطوبة ، وإنما تكفي له الجوهرية أو الجسمية »[1] . وهو ـ بقوله هـٰذا ـ يرد علىٰ الفلاسفة والمتكلمين ؛ الذين يشترطون لوجود الكلام وجود البلل والرطوبة في الجسم .

وفصَّل بعض العلماء في ذٰلك حيث قال : إن كل ما فيه روح وينمو ، فهو يسبح بحمد ربه .

ومنهم من قال بأن كل شيء يسبح ؛ حتىٰ يتغير عن طبيعته ، فالتراب يسبح ؛ حتىٰ إذا ابتل ترك التسبيح ، والغصن يسبح فإذا قطع ترك التسبيح والثوب يسبح ؛ حتىٰ إذا اتسخ ترك التسبيح[2] .

ثم يأتي قوله : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فقد جاء ٱلله بقوله : ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ ولم يأت بقول ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ وذٰلك لبيان أن الفقه فيه زيادة علىٰ العلم .

ثم ختم الآية بقوله : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ومعنىٰ ذٰلك أنه لم يعجل بالعقوبة علىٰ من افترىٰ عليه بقوله : إن معه آلهة أخرىٰ ، وإنما أمهلهم ليتوب من يتوب حتىٰ يشمله غفران ربه له ؛ الذي وصف نفسه بهاتين الصفتين رحمة للبر والفاجر في الدنيا ، وٱلله أعلم وأحكم[3] .

ومما جاء من أدلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نتوصل لهـٰذه النتيجة التي فتح ٱلله بها عليَّ (إنه هو الفتاح العليم) .

فنقول : من هـٰذا كله نصل إلىٰ أن تسبيح وحمد المخلوقات غير العاقلة جماداً كانت أو أحياء ما هو إلا بلسان المقال ، وذٰلك للأمور التالية :

---

(١) تفسير ابن العربي (٣ / ٢٠٤) .

(٢) انظر : تفسير البغوي (٣ / ١١٧) .

(٣) انظر : الكشاف (٢ / ٦٢٧) .

أولاً : أن الأدلة الواردة في السنة النبوية الشريفة جاءت مصرحة بهٰذا الأمر كتسبيح الماء والطعام والحصىٰ ، وغير ذٰلك .

ثانياً : ما نلاحظه من هٰذه الآية التي نحن بصددها حين بدأها ٱلله ـ عز وجل ـ بذكر أول المسبحين بحمده ، وهما السمٰوات والأرض ، ثم أعقب بعد ذٰلك بكل من فيهما عاقلاً أو غيره ، فقد قرن سبحانه تسبيح السمٰوات والأرض مع تسبيح من فيهما من العقلاء ، وجعل تسبيحهما سابقاً للعقلاء ؛ ليدلنا بذٰلك علىٰ أن تسبيحهما علىٰ الحقيقة مشابه لتسبيح العقلاء بالمقال .

ثالثاً : جاء في الآية قوله : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ بعد قوله : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ ، فأتىٰ بكلمة الفقه ولم يأت بكلمة العلم ، وكما سبق بأن الفقه أعلىٰ من العلم ، فكان الغرض من هٰذه الكلمة في هٰذا الموضع بيان أن هٰذه المخلوقات كلها تسبح بحمد ربها بالقول ، ولٰكنكم لا تفقهون هٰذا القول ، فطبيعتكم التي أنتم عليها مغايرة لطبيعة هٰذه المخلوقات ، فلو ارتقىٰ أحدكم إلىٰ أعلىٰ مراتب العلم لن يصل إلىٰ فهم تسبيح هٰذه المخلوقات إلا من آتاه ٱلله البصيرة علىٰ ذٰلك ، كما ألهم بعض أنبيائه فهم كلام غير العقلاء ، ويؤيد ذٰلك أيضاً ما جاء علىٰ لسان الكليم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سأل ربه بقوله : ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ [طه : ٢٧ ـ ٢٨] فطلب من ربه أن يحل هٰذه العقدة من لسانه ليفهموا ما يقول ولم يقل ليعلموا ، فهو يتكلم بلسانهم ، لٰكنهم لن يفهموا عليه ما لم يُزل عنه ربه هٰذه العقدة ، فكذٰلك تسبيح وحمد المخلوقات ثابت بالقول ، ولٰكننا لن نفقهه ما لم يبين لنا ربنا هٰذا التسبيح والحمد . وٱلله أعلم .

المبحث الأول : نماذج من حمد المؤمنين :

وفي هٰذا المبحث سأتعرض لنماذج من حمد المؤمنين ؛ الذي ظهر فيه ثناؤهم علىٰ ربهم ومدحهم له ، ومجيء هٰذا النوع من الحمد ليس من باب التكبر ، وعدم قبول ما جاء من حمد في القرآن الكريم ، أو في سنة

المصطفىٰ ﷺ ، وإنما هو من باب زيادة مدحهم لربهم بأنواع المدح ، وذٰلك لعلمهم بأن ربهم يحب الثناء والمدح ، فاجتهدوا في ذٰلك ليرتقوا عند ربهم بما فتحه عليهم من أنواع الثناء وحسن الرجاء ، وهـٰذه بعض الأمثلة علىٰ ذٰلك :

قال أحد الصحابة ـ رضي ٱلله عنه ـ ، والذي لم يرد اسمه في الحديث : « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إلـٰه إلا أنت ، بديع السمـٰوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم » فقال النبي ﷺ : « لقد دعا باسم ٱلله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطىٰ »[١] .

وقال آخر : « الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً ؛ كما يحب ربنا أن يحمد وينبغي له »[٢] .

وقال علي بن الحسين[٣] رَحِمَهُ ٱللهُ : « .. لك الحمد حمداً يدوم بدوامك ، ولك الحمد حمداً خالداً بنعمتك .. »[٤] .

وقال رَحِمَهُ ٱللهُ : « اللهم ربنا لك الحمد بما خلقتنا ، ورزقتنا ، وهديتنا ، وأنقذتنا ، وفرجت عنا ، ولك الحمد بالقرآن ، ولك الحمد بالمال والأهل والمعافاة ، كَبَتَّ عدونا ، وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وجمعت فرقتنا ،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١ / ٦٨٣) ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، وأخرجه ابن ماجه باب : اسم الله الأعظم (٢ / ١٢٦٨) ، وصححه الألباني ، انظر صحيح ابن ماجه للألباني (٢ / ٢٣٩) .

(٢) أخرجه الحاكم ؛ وأبو داود باب/ ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (١ / ٢٠٥) وقال الألباني : حسن الإسناد ، انظر صحيح أبي داود للألباني (١ / ١٤٧) .

(٣) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، إمام من آل البيت الطاهر ، ومن التابعين العابدين الزاهدين ، توفي سنة ٩٤ رحمه الله تعالى . انظر (نزهة الفضلاء) د . محمد موسى الشريف (١ / ٤٠٤ ـ ٤٠٩) .

(٤) (جامع الثناء على الله) ليوسف بن إسماعيل النبهاني (١ / ١٠٠ ـ ١٠١) .

وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا ، فلك الحمد علىٰ ذٰلك حمداً كثيراً »[١] .

وقال الليث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] : « الحمد لله الذي أحاط بكل شيءٍ علماً ، ووسع كل شيء حفظاً ، والحمد لله الذي أحاط بكل شيءٍ سلطانه ، ووسعت كل شيء رحمته .

اللهم لك الحمد علىٰ حلمك بعد علمك ، ولك الحمد علىٰ عفوك بعد قدرتك .

اللهم لك الحمد علىٰ ما تأخذ وتعطي ، ولك الحمد علىٰ ما تميت وتحيي .

اللهم لك الحمد كله ، بيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله .

اللهم إني أحمدك بمحامدك كلها ، ما علمت منها وما لم أعلم .

اللهم إني أحمدك بالذي أنت أهله ، وأذكر آلاءك ، وأشكر نعماءك ، وعدلك في قضائك ، وقدرتك في سلطانك . . . »[٣] .

وقال ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤] : « الحمد لله علىٰ جميع إحسانه ، حمداً يعدل حمد الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين »[٥] .

---

(١) (تصحيح الدعاء) لبكر أبي زيد (١ / ٣٣٩) .

(٢) الليث بن سعد بن عبد الرحمن ، الإمام الحافظ شيخ الإسلام ، وعالم الديار المصرية ، ولد بقرقشندة في مصر سنة :٩٤ هجرية ، كان فقيه مصر ومحدثها ، وقاضيها ، توفي سنة ١٧٥ هجرية رحمه ٱلله تعالى . انظر (سير أعلام النبلاء) (٨ / ١٣٦ ـ ١٦٣) .

(٣) (جامع الثناء) (١ / ١٠٧ ـ ١١١) .

(٤) ذو النون ، ثوبان بن إبراهيم ، أبو الفيض ، شيخ الديار المصرية . وكان علماً فصيحاً حكيماً واعظاً ، توفي سنة : ٢٥٤ هـ ، وكان من أبناء التسعين ـ رحمه ٱلله تعالى ـ انظر (سير أعلام النبلاء) (١ / ٥٣٢) .

(٥) (المكنون في مناقب ذي النون) للسيوطي (١ / ١٩١ ـ ١٩٤) .

وقال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الحمد لله الذي هتف في أسماع العالمين ألسن أدلته ، شاهدةً : أنه ٱلله الذي لا إلـٰه إلا هو . . . . »(١) .

وقال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الحمد لله العلي العظيم ، الحكيم الكريم ، السميع البصير ، اللطيف الخبير ، ذي النعم السوابغ ، والفضل الواسع ، والحجج البوالغ ، والحمد لله الذي أنزل القرآن بعلمه ، وأنشأ خلق الإنسان من تراب بيده ، ثم كونه بكلمته »(٢) .

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣) : « الحمد لله المستحمد إلىٰ خلقه بلطيف صنعه ، البر بعباده ، العاطف عليهم بفضله ، مولىٰ المؤمنين ومولاهم . . . »(٤) .

وقال هلال بن المحسن الصابئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥) : « الحمد لله الجليل ثناؤه ، الجميل بلاؤه ، الجزيل عطاؤه ، الظليل غطاؤه ، القاهر سلطانه ، الباهر إحسانه ، البادية أحكامه »(٦) .

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧) : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) تفسير الطبري (١ / ٣) .

(٢) (كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب) لابن خزيمة محمد بن إسحاق ، (١ / ٧ ـ ٨) .

(٣) الشيخ الإمام ، العلامة الحافظ ، اللغوي ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم البستي الخطابي ، صاحب التصانيف ، رحل في طلب الحديث والعلوم ، توفي بـ (بست) من أرض أفغانستان سنة : ٣٨٨ ، انظر (سير أعلام النبلاء) (١٧ / ٢٣ ـ ٢٨) .

(٤) انظر : (شأن الدعاء) للإمام الخطابي (١ / ١ ـ ٢) .

(٥) أبو الحسن هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابئ الحراني الكاتب ، حفيد أبي إسحاق الصابئ صاحب الرسائل المشهورة ، وكان أبوه وجده من الصابئة ، فأسلم هلال في آخر عمره . ولد سنة : ٣٥٩ ، وتوفي سنة : ٤٤٨ ، انظر (وفيات الأعيان) (٦ / ١٠١ ـ ١٠٥) .

(٦) انظر : (غرر البلاغة) لهلال بن المحسن الصابئ (١ / ٧٧) .

(٧) العلامة المفتي الحافظ الناقد ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت ، الخطيب البغدادي ، =

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ لا يحصي عدد نعمته العادون ، ولا يؤدي شكره المتحمدون ، ولا يبلغ مدىٰ عظمته الواصفون ، بديع السمٰوات والأرض ، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أحمده علىٰ الآلاء ، وأشكره علىٰ النعماء ، وأستعين به في الشدة والرخاء ، وأتوكل عليه فيما أجراه من القدر والقضاء . . »[1] .

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله[2] : « الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الجزاء والثواب ، وباسمه يشفىٰ كل داء ، وبه يكشف كل غمة وبلاء ، إليه ترفع الأيدي بالدعاء ، في الشدة والرخاء ، والسراء والضراء ، وهو سامع لجميع الأصوات بفنون الخطاب علىٰ اختلاف اللغات ، والمجيب للمضطر الدعاء ، فله الحمد علىٰ ما أولىٰ وأسدىٰ ، وله الشكر علىٰ ما أنعم وأعطىٰ ، وأوضح المحبة وهدىٰ . . . . »[3] .

وقال ياقوت الحموي رحمه الله[4] : « الحمد لله ذي القدرة القادرة ، والآيات الباهرة ، والآلاء الظاهرة ، والنعم المتظاهرة ، حمداً يُؤذن بمزيد نعمه ، ويكون حصناً مانعاً من نقمه . . . »[5] .

= صاحب التصانيف ، ولد سنة : ٣٩٢ ، وكان من كبار الشافعية ، وله مصنفات كثيرة ، توفي سنة : ٤٦٣ . انظر (سير أعلام النبلاء) (١٨ / ٢٧٠) .

(١) انظر : (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي (١ / ٣) .

(٢) الشيخ الإمام ، محيي الدين ، أبو محمد عبد القادر بن عبد الله بن جنكي دوست ، الحنبلي ، شيخ بغداد ، ولد بجيلان سنة ٤٧١ ، وكان كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة ، توفي سنة ٥٦١ . انظر (سير أعلام النبلاء) (٢٠ / ٤٣٩ ـ ٤٥١) .

(٣) (الغُنية لطالبي طريق الحق ـ عز وجل ـ) للشيخ عبد القادر الجيلاني (١ / ٤٨) .

(٤) الأديب الأوحد ، شهاب الدين الرومي ، ذو التآليف الحاكمة بالبلاغة وسعة العلم ، كان ذكياً وشاعراً متفنناً ، توفي سنة ٦٢٦ . انظر (سير أعلام النبلاء) (٢٢ / ٣١٢ ـ ٣١٣) .

(٥) (معجم الأدباء) لياقوت الحموي (١ / ٤٥) .

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الحمد لله الذي شهدت بربوبيته جميع مخلوقاته ، وأقرت له بالإلـٰهية جميع مصنوعاته ، شهدت بأنه ٱلله الذي لا إلـٰه إلا هو بما أودعها من عجائب صنعه ، وبدائع آياته »[١] .

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « .. أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه يملأ أرجاء السمـٰوات والأرضين دائماً أبد الآبدين ، ودهر الداهرين إلىٰ يوم الدين في كل ساعة وآن ووقت وحين ، كما ينبغي لجلاله العظيم ، ووجهه الكريم .. »[٢] .

وقال الشيخ أحمد بن إدريس السنوسي[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « اللهم إني أحمدك وأنت المحمود ، وأنت للحمد أهل ، وأشكرك وأنت المشكور ، وأنت للشكر أهل .... »[٤] .

هـٰذا ما تيسر ذكره ، ومن أراد المزيد فليرجعْ لمقدمات كتب العلماء ؛ ليجد ما يصبو إليه .

المبحث الثاني : علاقة النفس بالحمد :

النفس المؤمنة لابد أن يكون لها ارتباط ترتبط به مع خالقها سبحانه ومعبودها جل جلاله ، ونحن نعلم أن كل مولود من بني البشر يولد علىٰ الفطرة ، وهي فطرة الإسلام ، كما قال النبي ﷺ : « ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ،

(١) (زاد المعاد)(١ / ٣٣) .
(٢) (البداية والنهاية)(١ / ٤ ـ ٥) .
(٣) أبو العباس أحمد بن إدريس الشريف الإدريسي الحسني ، ولد في المغرب سنة ١١٧٢ ، وتعلم بفاس الفقه والتفسير والحديث ، وانتقل إلى مكة ثم إلى اليمن وتوفي بها سنة ١٢٥٣ هـ ،(الأعلام)للزركلي(١ / ٩٥) .
(٤) (جامع الثناء على ٱلله)(١ / ٢٧٨) .

هل تحسون فيها من جدعاء »[١] ، وأن ما يعتريها من تغيرات تبعدها عن هٰذه الفطرة إنما هو بسبب ما تتعرض له من مؤثرات خارجية كالأبوين ، كما جاء في الحديث ، أو الأسرة ، أو المجتمع ، أو غير ذٰلك ، لٰكن لو فرضنا جدلاً أن مولوداً ترك هٰكذا من دون مؤثرات عليه لنشأ وترعرع علىٰ تعلقه بالإلٰه الحق ، وهو ٱلله تعالىٰ ؛ لأن نفسه لا تعرف غير الخالق الحقيقي ، يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « دل الحديث علىٰ أن المولود لو ترك مع فطرته الأصلية ؛ لما كان علىٰ شيء من الأديان الباطلة ، وأنه إنما يقدم علىٰ الدين الباطل لأسباب خارجية ، وهي سعي الأبوين في ذٰلك وحصول الأغراض الفاسدة من البغي والحسد »[٢] ، فالإنسان كما هو معلوم محتاج لمن يتولىٰ أمره ، ويعتني به لما يتعرض له من مؤثرات في حياته ، وسواء صغرت هٰذه المؤثرات أم كبرت فهو في حاجة لغيره ، ولا يمكن له أن يعيش مستغنياً عن غيره أبداً ، وخير من يوفر له ذٰلك ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لأنه القادر علىٰ كل صغيرة وكبيرة .

فإذا عرفت النفس ذٰلك ، واستشعرته انبثت في القلب الطمأنينة التي سيعبر عنها بالحمد لله ؛ الذي يكون عنوان الرضا والسعادة والإقرار لله بالربوبية والألوهية ، عندها لا يمكن لها أن تسكن أو تهدأ إلا بذكر ربها قولاً وعملاً ، فمن القول الحمد له علىٰ الدوام ، ومن العمل المحافظة علىٰ هٰذه النعم ، وتزكيتها بالشكر الذي هو عنوان الحمد .

وقد حصل خلاف حول إقرار النفس بالحمد ، والشكر لله ، هل هو قائم بالسمع أم بالعقل ؟ بمعنىٰ أنه لابد لمعرفة الحمد لله من مرشد سواء من البشر أم من غيرهم ، وأن النفس لا يمكنها التوصل لذٰلك بعقلها ، أم أن ذٰلك مفطور فيها ، وأن المعرفة بالحمد والشكر قائمة فيه ، وهي صفة اتصفت بها ، والذي

---

(١) صحيح البخاري ، باب : إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (١ / ٤٥٦) برقم (١٢٩٣) .

(٢) تفسير الرازي (٦ / ٣٦)

دلها علىٰ ذٰلك هو العقل ؟ ، وقد استدل الفريق الأول علىٰ قولهم ـ بأن النفس لا يمكنها ذٰلك إلا بمن يدلها علىٰ حمد ربها ـ بقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، ووجه دلالتهم[١] أنه لا يمكن لأحد التوصل إلىٰ ذٰلك إلا عن طريق الرسل ؛ الذين هم مصابيح الهدىٰ ، فيشمل ذٰلك كل أنواع العبادات ، ومنها الذكر الذي منه الحمد والشكر ، وأما الفريق الآخر ـ وهو القائل بأن النفس قد تتوصل لذٰلك بعقلها ، وتحمده علىٰ نعمه دون مرشد ـ فقد استدلوا علىٰ ذٰلك بقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ووجه دلالتها هو أن الحمد قائم لله أزلاً فهو محمود من كل مخلوق ، حيث قال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] فهٰذا الحمد قد فطرت عليه المخلوقات جميعاً ، والإنسان من جملة هٰذه المخلوقات ، ولو ترك من غير مؤثر لترعرع علىٰ حمد ربه ، ومات علىٰ ذٰلك .

والذي ترجح عندي هو القول الأول ، وذٰلك لأن النفس صاحبة الفطرة السليمة لا يمكن أن تعترف بالفضل لغير ٱلله ؛ فهي قد نشأت علىٰ الإيمان به ؛ الذي هو في وجدانها ، ولو تركت النفس من غير مرشد ، فهي لن تصل إلىٰ تفاصيل العبادة كما أمر ٱلله ؛ لأن ذٰلك لا يحصل إلا عن طريق الرسل ، لٰكنها سوف تتعلق بخالقها ، وتعترف له بالفضل بالحمد له والشكر .

ومن ذٰلك يتبين لنا عمق نفسية الحامد ، حيث نجدها نفساً قانعةً راضيةً محبةً للخير ، لا تنكر معروفاً ، ولا تعرف منكراً ، إن تكلم صاحبها فكلامه خير ، وإن سكت فسكوته خير ، يألف المسلمين ويحبهم ، وينطبق عليه قول النبي ﷺ : « أكمل المؤمنين أيماناً أحاسنهم أخلاقاً ، الموطؤون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »[٢] ، فكانت هٰذه

---

(١) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٢ / ١٦٩) .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤ / ٣٥٧) ، وصححه الألباني ، انظر الصحيحة =

النفس بالحمد من أكمل المؤمنين إيماناً ، وٱلله أعلم .

المبحث الثالث : المؤمنون وتزكية نفوسهم بالحمد :

وتزكية النفس بالحمد من أجلّ ما يتوصل إليه المؤمن ، وذكرنا في أول الفصل حمد المؤمنين لربهم علىٰ ما تفضل به من النعم عليهم خاصة نعمة الإسلام ، لـٰكننا ذكرنا أنهم متفاوتون في حمدهم لربهم ، فهم علىٰ درجات فمنهم من لا يغفل عن ذكر ربه الذي من ضمنه الحمد ، ومنم من هو أقل من ذٰلك ، وهـٰكذا حتىٰ نصل إلىٰ الغافل اللاهي عن ذكر ربه ، والمؤمنون الذين زادت معرفتهم بربهم ارتقت نفوسهم حتىٰ بلغت درجة عالية من الطهارة والصفاء ، فأصبح ذكر ربهم كالنفس لهم ، وكالماء عند شدة الظمأ .

ولتزكية النفس طرق متعددة كالصلاة المفروضة والنوافل والصيام والذكر وغيره ، ولو دققنا النظر لوجدنا أن ذٰلك كله يندرج تحت حمد ٱلله ، ولسائل أن يسأل ، هل الحمد أفضل من الصلاة ، ومن باقي العبادات المفروضة ؟ والجواب علىٰ ذٰلك : هو أن جميع ما يتقرب به المؤمن لربه ، سواء كان ذٰلك فرضاً أم نفلاً ؛ إنما هو دليل علىٰ حمده لربه ، مثال ذٰلك لو أن إنساناً أسدىٰ إليك معروفاً فأنت ستكافئه علىٰ ذٰلك المعروف ، أو ستدعو له ، كما أمر بذٰلك النبي ﷺ حيث قال : « من سألكم بٱلله فأعطوه ، ومن استعاذكم بٱلله فأعيذوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن أهدىٰ إليكم فكافئوه ؛ فإن لم تجدوا ما تكافئونه ، فادعوا له حتىٰ ترون أن قد كافأتموه »[1] فالمؤمن بطبيعة الحال

= (٢ / ٣٨٩) .

(١) المستدرك على الصحيحين ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين(١ / ٥٧٢) ؛ وابن حبان في صحيحه ، ذكر الأمر بالمكافئة لمن صنع إليه معروفاً(٨ / ١٩٩) ؛ وأبو داود باب العطية لمن سأل بالله(٢ / ١٢٨) ؛ والبيهقي في الكبرى ، باب عطية من سأل بٱلله (٤ / ١٩٩) ؛ والإمام أحمد (٢ / ٦٨) ، جميعهم عن ابن عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ .

عندما يشعر أن كل هـٰذه النعم ؛ التي يتقلب فيها إنما هي من ربه المتفضل بذٰلك ، وأنه قد تفضل بها قبل أن يطلبها منه وبعد أن طلبها ، عندما يشعر بذٰلك ترتقي نفسه لتتقرب لموليها هـٰذه النعم بالحمد والشكر قولاً وعملاً ، ومن شكر هـٰذه النعم القيام بما فرض ٱلله عليه من الواجبات علىٰ أكمل وجه ، ثم التقرب إليه بالنوافل ؛ حتىٰ يبلغ المرتبة التي تزكو بها نفسه ؛ ليصبح ممن أحبه العظيم ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فيصبح بذٰلك في نور ، فهو يرىٰ بنور ٱلله ويسمع بنوره ، ويكون في كنف ربه يحفظه من كل سوء ، قال تعالىٰ : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ...﴾ [الزمر : ٢٢] .

علىٰ أن هناك حقيقة مهمة تتصل بذكر ٱلله بأنواعه ، وهو اطمئنان النفس بسببه وهـٰذا ما ورد في « سورة الرعد » عند قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨] وفي هـٰذا أكبر دليل علىٰ أن النعمة المسداة من ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ وذٰلك أن منَّ عليهم بالإيمان ، ثم ألهمهم ذكره الذي تطمئن به القلوب ، ثم عقب بعد ذٰلك بالتأكيد علىٰ هـٰذه الحقيقة ، وهي أنه بذكره تطمئن القلوب ، وذٰلك زيادة في الراحة والطمأنينة ؛ التي هي الغاية المرجوة في الدارين .

ولو تفكرنا في حديث النبي ﷺ الذي رواه جابر بن عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إِلَـهَ إِلا اللَّهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ »[1] ، لوجدنا أن أفضل الذكر هو كلمة التوحيد ، وأفضل

---

(١) أخرجه الحاكم ، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل (١ / ٦٧٦) ؛ وابن حبان ، ذكر البيان بأن الحمد لله جل وعلا من أفضل الدعاء والتهليل له من أفضل الذكر (٣ / ١٢٦) ؛ والنسائي في الكبرى ، باب أفضل الذكر وأفضل الدعاء (٦ / ٢٠٨) ؛ ابن ماجه ، باب فضل الحمد (٢ / ١٢٤٩) ؛ الترمذي بَاب ما جاء أَنَّ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِ مُسْتَجَابَةٌ ، وقال : حسن غريب (٥ / ٤٦٢) ؛ جميعهم عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ ؛ وقال الألباني : حسن الإسناد ، انظر صحيح ابن ماجه للألباني (٢ / ٣١٩) .

الدعاء هو الحمد ، ولا فرق بين ذٰلك لأن الذكر والدعاء شيء واحد ، يقول ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « فإن الذكر كله دعاء عند العلماء »[١] ، فمن ذٰلك يتضح لنا قضية مهمة ، وهي أن ارتباط النفس بالحمد يكون له الأثر الكبير في تزكيتها ، ولو بادر كل مسلم لتزكية نفسه لزكت نفوس المؤمنين جميعاً بما ينعكس علىٰ حياتهم بالخير ، والبر ، وحسن المعاشرة ، وذٰلك لا يمكن أن يتسنىٰ للناس إلا بتجسيد الحمد بينهم ، فهو عنوان كل فضيلة ، وتطهير من كل رذيلة تعلق بنفس المؤمن .

والنفس المؤمنة تسعىٰ دائماً إلىٰ الرقي في مدارج الفضيلة والتزكية ، وهي لا تقنع بما تصل إليه ؛ لأن بحر الفضيلة والتزكية واسع لا ساحل له .

يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « إن القلب كلما وصل إلىٰ شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلىٰ حالة أشرف منها ؛ لأنه لا سعادة في عالم الأجسام إلا وفوقها مرتبة أخرىٰ في اللذة والغبطة ، أما إذا انتهىٰ القلب والعقل إلىٰ الاستسعاد بالمعارف الإلـٰهية ، والأضواء الصمدية بقي واستقر ، فلم يقدر علىٰ الانتقال منه ألْبَتَّةَ ؛ لأنه ليس هناك درجة أخرىٰ في السعادة أعلىٰ منها وأكمل ، فلهـٰذا المعنىٰ قال : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ »[٢] ، وهـٰذا كلام لطيف ، حيث بين أن للقلب مطالب في الراحة والطمأنينة لا تنتهي ، فكلما توصل إلىٰ مرتبة طلب التي بعدها ، لـٰكن هناك حد لا يمكن له أن يطلب أكثر منه ؛ لأنه يعلم أنه ليس ثمة ما هو أعلىٰ من هـٰذا المطلب ، ألا وهو الراحة والطمأنينة بذكر ٱلله .

وقد اختلف في معنىٰ (ذكر ٱلله) ، حيث قال بعضهم : هو التسبيح والتهليل والتحميد وغيره من الأذكار ، وقيل : هو الصلاة ، وقال آخرون : هو القرآن الذي تسكن النفس عند تلاوته ، وعند معرفة أحكامه ، خلاف باقي الكتب التي يعتريها التضاد والضعف والوهم ، وغير ذٰلك مما يعتري كلام بني

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (٦ / ٤٢) .

(٢) تفسير الرازي (١٩ / ٥٠) .

البشر عند كلامهم وكتابتهم ، فالطمأنينة والراحة لا تحصل إلا بذكر ٱلله ، سواء كان ذٰلك الحمد باللسان كالذكر وتلاوة القرآن وغيره ، أم بالفعل كالصلاة والزكاة والحج وغيره ، فمن قام بذٰلك علىٰ الوجه المطلوب منه ؛ فهو دليل علىٰ عرفانه لربه بنعمه العظيمة عليه ، وعند ذٰلك تصبح نفسه في أعلىٰ درجات الطهارة ، فتطهر من كل الأدران ؛ التي تعتري باقي الأنفس ؛ التي هي غافلة ، معرضة عن ذكر ربه(١) .

ولا شك أن ميادين الحمد لدىٰ المؤمنين كثيرة ، وهي ميادين تآلف وتزكية لنفوسهم ، وسوف نشير فيما يلي إلىٰ بعض هٰذه الميادين ، وهي :

أولاً : حمدهم لبعضهم بالقول ، وهٰذا يكون من باب المدح والثناء باللسان لإنسان أنجز عملاً ما ، فيكون ذٰلك من باب حشد الهمم ، ورفع المعنويات ؛ ليزداد في الإنتاج والبذل للمسلمين ، أو من باب البشاشة ، وحسن المقابلة ، وذٰلك ما كان من أبينا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما رد علىٰ الملائكة سلامهم بما هو أفضل مما قالوه له في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] ، حيث كان سلامهم بجملة فعلية ، فرد عليهم بجملة اسمية ، والتي هي أقوىٰ وأثبت من الجملة الفعلية ، وهٰذا دليل علىٰ الحمد القولي بين البشر ، أو من باب زيادة المحبة والتآلف لتقوية عرا الأخوة في ٱلله .

ثانياً : حمدهم بالفعل ، وهٰذا يتجسد في صلاتهم لبعضهم البعض من إعانة عند النوائب والمصائب ، أو عند الفرح كالمساعدة علىٰ النكاح وغيره ، حيث نجد أن الإنسان عندما يجد ذٰلك من إخوانه المسلمين ؛ فإنه يبادر بالرد لهم عندما يتعرض أحدهم لمثل ذٰلك ، وهٰذا ما يسميه الفقهاء بهبة الثواب ، حيث إنه يلزمه الرد ليكون ذٰلك من باب البرهنة علىٰ الصلة ، والحمد بينهم ، ولا يلزم بأكثر مما أخذ ، وإنما علىٰ قدر حاله ، يقول الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه

---

(١) انظر تفسير السمعاني (٤ / ٢٩٢) ؛ وزاد المسير (٦ / ٣٩٦) .

المهذب : « وإن وهب هبة تقتضي الثواب ـ وقلنا : إن الثواب مقدر بما يرضىٰ به الواهب ـ ثم أفلس ، فله أن يرضىٰ بما شاء ؛ لأنا لو ألزمناه أن يطلب الفضل لألزمناه أن يكتسب ، والمفلس لا يكلف الاكتساب »(١) .

ثالثاً : ويكون الحمد بالحال ، وذٰلك بالهش والبش في وجوه المسلمين ، حتىٰ يشعر أفراد المجتمع المسلم بالألفة والمحبة بين بعضهم البعض ، وفي ذٰلك أيضاً أجر من ٱلله علىٰ هٰذا الفعل ، ويصدق ذٰلك بحديث المصطفىٰ ﷺ الذي يجمع المحامد بأنواعها الثلاثة بين الناس بالقول والفعل والحال ، والذي رواه الترمذي عن أبي ذر ـ رضي ٱلله عنه ـ : قال : رسول ٱلله ﷺ : « تَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أَخِيكَ لك صَدَقَةٌ ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْيُكَ عن الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ في أَرْضِ الضَّلالِ لك صَدَقَةٌ ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لك صَدَقَةٌ ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عن الطَّرِيقِ لك صَدَقَةٌ ، وَإِفْرَاغُكَ من دَلْوِكَ في دَلْوِ أَخِيكَ لك صَدَقَةٌ »(٢) ، فكل فعل من الأفعال المذكورة في الحديث دليل علىٰ أن ذٰلك يجعل المسلمين يحمد بعضهم بعضاً علىٰ حسن الصنيع ، ثم نجد كذٰلك أن نفوس من يقومون بمثل هٰذه الأفعال تشعر بالسعادة حين إنجازها ، فيكون ذٰلك من باب سعادة النفوس بالخير ؛ الذي هو عنوان الحمد بين أفراد المجتمع المسلم .

✍ ✍ ✍

---

(١) المهذب لإبراهيم بن علي الشيرازي (١ / ٣٢١) .

(٢) أخرجه ابن حبان باب/ ذكر بيان الصدقة للمرء بإرشاد الضال وهداية غير البصير (٢ / ٢٨٦) ؛ الترمذي باب : ما جاء من صنائع المعروف ، وقال : حسن غريب (٤ / ٣٣٩) ، وقال الألباني : حسن الإسناد ، السلسلة الصحيحة (٢ / ١١٢ ـ ١١٣) .



الباب الرابع

صيغ الحمد





وفي هٰذا الباب سيكون حديثي ـ بإذن ٱلله ـ حول صيغ الحمد ، حيث جاءت فصول هٰذا الباب علىٰ النحو التالي :

الفصل الأول : صيغة (الحمد لله) :

وقد قمت بدراسة لهٰذه الصيغة بدءاً من افتتاحها لكتاب ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ، ثم بينت لماذا جاءت بهٰذه الصيغة ولم تأت بصيغة أخرىٰ ؟ ولماذا جاءت بالرفع ولم تأت بغيره ؟

الفصل الثاني : أمثلة لصيغ الحمد التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية :

وقد قمت بذكر أمثلة من صيغ الحمد الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكان ذٰلك من باب الأمثلة علىٰ صيغ الحمد ، وبيان مواطنها ما أمكن ذٰلك في كتاب ٱلله ـ عز وجل ـ وفي سنة النبي محمد ﷺ .

الفصل الثالث : صيغة الحمد بين الخبرية والإنشائية :

وقسمت هٰذا الفصل إلىٰ مبحثين كانا علىٰ النحو التالي :

المبحث الأول : هل صيغة الحمد خبرية أم إنشائية ؟

وقد خصصت الكلام حول هٰذه الصيغة فقط ، وهي قوله تعالىٰ :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم ذكرت أقوال العلماء في ذٰلك ، ثم رجحت قولاً من أقوالهم .

المبحث الثاني : صيغ الحمد لفظاً ومعنىٰ .

الصيغ الخبرية لفظاً ومعنىٰ .

الصيغ الخبرية لفظاً لا معنىٰ .

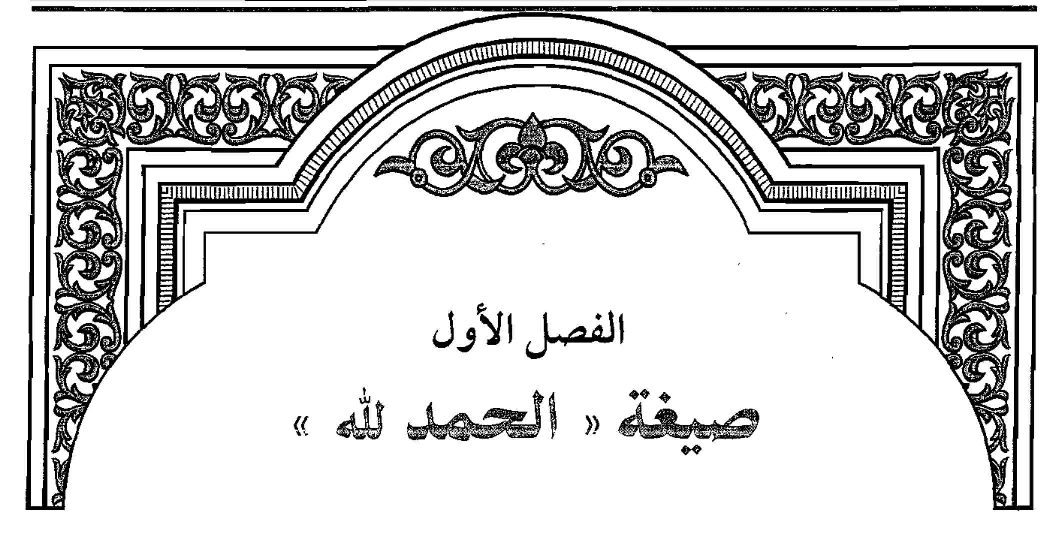
الصيغ الخبرية في المعنىٰ دون اللفظ .

وقد قمت بضرب مثال واحد لكل صيغة ، ثم بينت ما يكون علىٰ شاكلة هـٰذه الصيغة من الآيات القرآنية .

ثم بعد ذٰلك عرجت علىٰ صيغ الحمد الواردة في الشعر ، حيث إننا نجد أن لغة العرب قد حفلت بالمنثور والمشعور في جوانب شتىٰ ، ومن ضمنها (الحمد) الذي صاغته في أبيات منسقة جميلة .

✍ ✍ ✍





الفصل الأول

صيغة « الحمد لله »

جاءت هٰذه الصيغة مفتتحة كتاب ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ في أول سورة منه ، حيث قال ـ عز من قائل ـ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وكذٰلك في سور شتىٰ[١] من كتاب ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ، كذٰلك جاءت في سنة النبي وأقواله ﷺ وأقوال صحابته ـ رضوان ٱلله عليهم أجمعين ـ وكلام من تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين .

والملاحظ في هٰذه الصيغة أنها جاءت بالألف واللام الدالة علىٰ استغراق الحمد لله ، عز وجل ، وأنه المستحق لجميع المحامد ، ولا ينبغي أن يحمد بهٰذه الصيغة أحد من الخلق ، فيقال : (الحمد لفلان) ولم يأذن ٱلله في ذٰلك لغيره ، بل نهىٰ عن ذٰلك في كتابه وعلىٰ لسان نبيه ﷺ فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٢] وقد نهىٰ النبي ﷺ عن المدح فقال : « إذا رَأَيْتُمْ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا في وُجُوهِهِمْ التُّرَابَ »[٢] ، فالحمد بهٰذه الصيغة مختص بٱلله .

وقرأ الجمهور : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ برفع الدال علىٰ الابتداء وكسر لام الجر

---

(١) كمثل سورة الأنعام وسورة الكهف وسبأ وفاطر .

(٢) أخرجه مسلم باب النهي عن المدح (٤ / ٢٢٩٧) برقم (٣٠٠٢) .

علىٰ أنه متعلق بمحذوف ، وهو الخبر في الحقيقة ، أي : (الحمد مستقرٌّ لله) بتقدير الاسم علىٰ الأصح ، والاختيار في الخبر لديمومة الثناء علىٰ ٱلله . وينشأ عن ذٰلك سؤال : لماذا لم يقل(الحمدَ لله) بالنصب ؟

والجواب هو : أن قراءة الرفع أولىٰ من قراءة النصب ، ذٰلك أن قراءة الرفع تدل علىٰ أن الجملة اسمية ، في حين أن قراءة النصب تدل علىٰ أن الجملة فعلية بتقدير نحمد ، أو احمد ، أو احمدوا بالأمر . والجملة الاسمية أقوىٰ وأثبت من الجملة الفعلية ؛ لأنها دالة علىٰ الثبوت .

وقد يقال : أليس تقدير فعل الأمر في قراءة النصب أقوىٰ من الرفع بمعنىٰ « احمدوا الحمد لله » كما تقول : « الإسراع في الأمر » بمعنىٰ : أسرعوا ؟ والجواب : لا ، فإن قراءة الرفع أولىٰ أيضاً ذٰلك لأن الأمر بالشيء لا يعني أن المأمور به مستحق للفعل . وقد يكون المأمور غير مقتنع بما أمر به ، فكان (الحمدُ لله) أولىٰ من (الحمدَ لله) بالنصب في الإخبار والأمر[١] .

يقول أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقراءة الرفع أمكن في المعنىٰ ، ولهٰذا أجمع عليها السبعة ؛ لأنها تدل علىٰ ثبوت الحمد واستقراره لله تعالىٰ ، فيكون قد أخبر بأن الحمد مستقر لله تعالىٰ ، أي : حمده وحمد غيره ، ومعنىٰ اللام في « لله » الاستحقاق ، ومن نصب فلا بد من عامل تقديره (أحمد ٱلله ، أو حمدت ٱلله) فيتخصص الحمد بتخصيص فاعله وأَشعَرَ بالتجدد والحدوث ، ويكون في حالة النصب من المصادر التي حذفت أفعالها ، وأقيمت مقامها ، وذٰلك في الأخبار نحو : (شكراً لا كفراً) ، وقدر بعضهم العامل للنصب فعلاً غير مشتق من الحمد ، أي : أقول : (الحمد لله ، أو الزموا الحمد لله »[٢] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١ / ٢٣) ؛ تفسير القرطبي (١١ / ٢١٨) ؛ تفسير روح المعاني (١ / ٧٥) .

(٢) البحر المحيط (١ / ١٨ ـ ١٩) .

وقرئ أيضاً (الحمدِ لله) بكسر الدال ، ووجه ذٰلك : أنها حركة إتباع لكسرة (لام) الجر بعده ، يقول ابن منظور : « وأما من قرأ (الحمدِ لله) فإن الفراء قال : هـٰذه كلمة كثرت علىٰ الألسن حتىٰ صارت كالاسم الواحد ، فثقل عليهم ضمة بعدها كسرة ؛ فأتبعوا الكسرة للكسرة ، وقال الزجاج : « لا يلتفت إلىٰ هـٰذه اللغة ، ولا يعبأ بها »[١] .

ولا يقال : (حمداً لله) لأن الحمد لله معرفة بـ« أل » وحمداً نكرة والتعريف هنا يفيد ما لا يفيده التنكير ، ذٰلك أن « أل » قد تكون لتعريف العهد ؛ فيكون المعنىٰ : أن الحمد المعروف بينكم هو لله ، وقد يكون لتعريف الجنس علىٰ سبيل الاستغراق ، فيدل علىٰ استغراق الأحمدة كلها لله ـ تبارك وتعالىٰ ـ[٢] .

ولا يقال أيضاً : (لله الحمد) لأن هـٰذه العبارة تقال إذا كان هناك كلام يراد تخصيصه (مثال لفلان الكتاب) تقال للتخصيص والحصر ؛ فإذا قدم الجار والمجرور علىٰ اسم العلم يكون بقصد الاختصاص والحصر ، وقد يعتقد أن الحمد لغير ٱلله ؛ لذٰلك جاءت في أول الفاتحة بصيغة (الحمد لله) .

ولقائل أن يقول : ولماذا جاء في « سورة الجاثية » قوله : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٦] ، أقول بأنه لا يمكن منع التقديم في ذٰلك ؛ لأن التقديم والتأخير في القرآن الكريم يكون حسب ما يقتضيه السياق ، فالمقام في « سورة الفاتحة » هو مقام مؤمنين يقرون بالعبادة ، ويطلبون الاستعانة والهداية ، أما في « سورة الجاثية » فالمقام في الكافرين وعقائدهم ، وقد نسبوا الحياة والموت لغير ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ، لذا اقتضىٰ ذكر تفضله سبحانه بأنه خلق السمـٰوات والأرض ، وأثبت لهم أن

---

(١) لسان العرب (٣ / ١٥٥) .

(٢) انظر البحر المحيط بتصرف (١ / ١٨) .

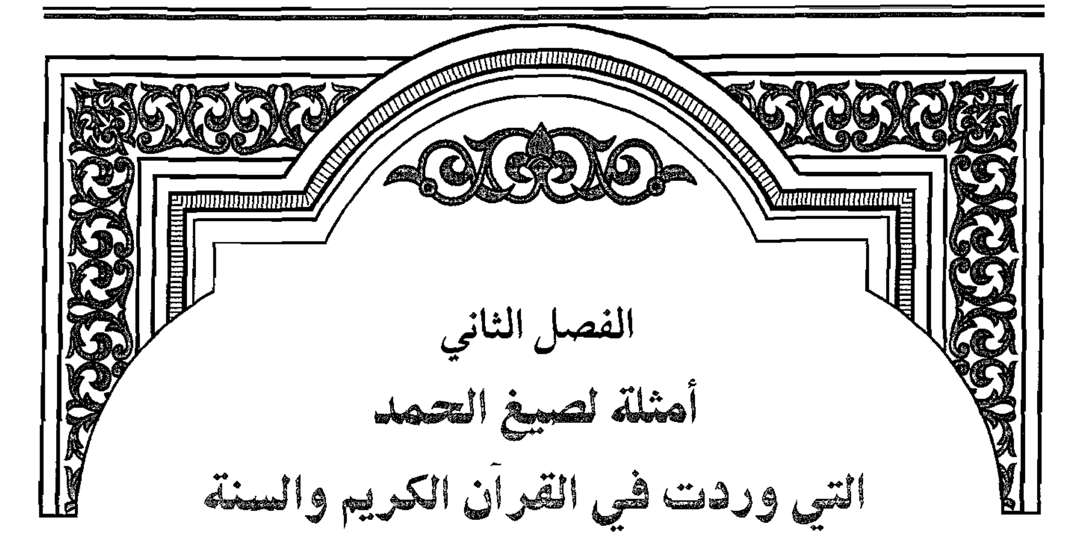
الحمد الأول لله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ كل ما خلق لنا ؛ فهو المحمود الأول ؛ لذا جاءت فلله الحمد مقدمة حسب ما اقتضاه السياق العام للآيات في السورة[١] .

وأيضاً جاءت بصيغة (الحمد لله)[٢] ولم يقل : (الحمد للخالق أو الرازق أو غير ذٰلك من أسمائه) ، لأن اسم « ٱلله » هو الاسم العلم له ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ولو جاءت بأي اسم آخر غير العلم ؛ لدل علىٰ أنه تعالىٰ استحق الحمد فقط بالنسبة لهٰذا الاسم خاصة ، فلو قال (الحمد للقادر) لفهمت علىٰ أنه يستحق الحمد للقدرة فقط ، لٰكن عند ذكر الذات (ٱلله) فإنها تعني أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته ، لا لصفة من صفاته فقط .

✍ ✍ ✍

(١) انظر روح المعاني (٢٦ / ٣)
(٢) انظر الباب الثاني من الرسالة(٣٣ ـ ٣٩) .





الفصل الثاني
أمثلة لصيغ الحمد
التي وردت في القرآن الكريم والسنة

وكما أن لكل ذكر صيغاً وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فكذٰلك الحمد له صيغ متعددة ، وسأقوم بذكر بعض هٰذه الصيغ علىٰ سبيل التمثيل والحصر :

الصيغ القرآنية للحمد :

أولاً : صيغة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وهي الأكثر في القرآن الكريم ، حيث وردت ثلاثاً وعشرين مرة ، وقد سبق الكلام عنها في الفصل الأول من الباب الثاني تفصيلاً .

ثانياً : صيغة ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ﴾ ووردت مرة واحدة في « سورة الجاثية » .

ثالثاً : صيغة ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ ووردت أربع مرات في سور « القصص » « والروم » « سبأ » « التغابن » .

رابعاً : صيغة الأمر بالحمد المسبوق بقل ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، ووردت ست مرات في القرآن الكريم في سورة « الإسراء » « المؤمنون » « آيتي النمل » « العنكبوت » « ولقمان » .

خامساً : صيغة الأمر بالتسبيح المقرون بالحمد ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ ﴾ ووردت أربع عشرة مرة في سور القرآن الكريم ، وجاء بعضها بالإفراد وبعضها

بالجمع ، وهي في سور « البقرة » « الحجر » « الإسراء » « طه » « الفرقان » « غافر » « ق » « الطور » « النصر » .

سادساً : صيغة ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ ووردت مرة واحدة في « سورة التوبة » .

سابعاً : صيغة الاستجابة بحمد ٱلله ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ وقد وردت مرة واحدة كذٰلك في سورة « الإسراء » .

الصيغ النبوية للحمد :

أولاً : صيغة (سمع ٱلله لمن حمده) ، (ربنا ولك الحمد) وقد وردت في الرفع من الركوع .

ثانياً : صيغة (سبحانك اللهم وبحمدك) وقد وردت في دعاء الاستفتاح .

ثالثاً : صيغة (سبحان ربي العظيم وبحمده) ، و(سبحان ربي الأعلىٰ وبحمده) وردت الأولىٰ في الركوع والثانية في السجود .

رابعاً : صيغة (إن الحمد والنعمة) وقد وردت في التلبية للحج والعمرة .

خامساً : صيغة (الحمد لله) وقد وردت كثيراً ، ومنها علىٰ سبيل المثال : عند الأكل ، ولبس الثوب وبعد العطاس وركوب الدابة والنوم وبعده ، وغير ذٰلك كثير .





الفصل الثالث
صيغة الحمد بين الخبرية والإنشائية

المبحث الأول : هل صيغة الحمد خبرية أم إنشائية ؟

وقد حصل حول هٰذه المسألة كلام كثير في كونها خبرية أم إنشائية ، فهناك من العلماء من يرىٰ أنها خبرية ، ولا تحتمل الإنشاء لا لفظاً ولا معنىٰ ،

يقول القليوبي[1] : « صيغة الحمد فيها إشارة إلىٰ أنه يعتبر فيها قصد الثناء لأنها (خبرية لفظاً ومعنىٰ) ويحتمل أن المراد أنه يقع بها الثناء ، فلا حاجة إلىٰ قصد ، وهو المتعين لحصول الحمد بها »[2] ؛ ويقول سليمان الجمل[3] : « وجملة الحمد (خبرية لفظاً ومعنىٰ) لأن الحمد لغة : الثناء باللسان والأخبار بأنه مالك أو مستحق لجميع المحامد ثناء عليه ـ جل وعلا ـ »[4] .

وممن يرىٰ خبريتها جلال الدين المحلي يقول : « (الحمد لله) جملة خبرية قصد بها الثناء علىٰ ٱلله بمضمونها علىٰ أنه تعالىٰ مالك لجميع الحمد من

---

(١) شهاب الدين أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي ، ت ١٠٦٩ هـ ، اكتفاء القنوع (١ / ١٠٠) .

(٢) حاشية قليوبي لشهاب الدين أحمد القليوبي (١ / ٥) .

(٣) هو الشيخ أبو داود سليمان الجمل المصري الشافعي ، فهرس الفهارس للكتاني (١ / ٣٠٠) .

(٤) الجمل على شرح المنهج (لزكريا الأنصاري) تأليف سليمان الجمل (١ / ١٨) .

الخلق أو مستحق لأن يحمدوه »[١] .

وهناك من يرىٰ أنها خبرية لفظاً إنشائية معنىً ، يقول محمد الرملي[٢] : « وجملة الحمدلة (خبرية لفظاً إنشائية معنىً) ، والحمد اللفظي : الثناء باللسان علىٰ الجميل الاختياري علىٰ جهة التبجيل سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل »[٣] .

ويقول الصاوي : « وجملة الحمد (خبرية لفظاً إنشائية معنىٰ) ، وكانت اسمية للدلالة علىٰ الثبوت والدوام ، واقتداء بالكتاب العزيز ، وأصل (الحمد لله) أحمد حمد ٱلله ، فحذف الفعل لدلالة المصدر عليه فبقي (حمدَ لله) ، ثم عدل من النصب إلىٰ الرفع لدلالة الثبوت والدوام ، فصار (حمدُ لله) ثم أدخلت الألف واللام لقصد الاستغراق ، أو الجنس ، أو العهد »[٤] .

وجاء في مرقاة المفاتيح : « (نحمده) الحمد له بالجملة الاسمية الدالة علىٰ الثبوت والدوام ، سواء حمد أو لم يحمد ، فهو إخبار متضمن للإنشاء »[٥] .

وفي الإقناع قوله : « وجملة : (الحمد لله) خبرية لفظاً إنشائية معنىٰ لحصول الحمد بالتكلم بها مع الإذعان لمدلولها ، ويجوز أن تكون موضوعة شرعاً للإنشاء »[٦] .

---

(١) تفسير الجلالين (١ / ٢) .

(٢) أحمد بن محمد الرملي الأنصاري ولد سنة ٩١٩ هـ وتوفي سنة ١٠٠٤ هـ .

(٣) غاية البيان شرح زبدة ابن رسلان لمحمد بن أحمد الرملي الأنصاري (١ / ٣) .

(٤) بلغة السالك لأحمد الصاوي (١ / ٨) .

(٥) مرقاة المفاتيح للقاري (١ / ٤٨ ـ ٤٩) .

(٦) الإقناع للشربيني (١ / ٨) .

ويقول ابن شهاب الدين الشهير بالشافعي الصغير : « وجملة : (الحمد لله) خبرية لفظاً إنشائية معنىً لحصول الحمد بها مع الإذعان لمدلولها ، وقيل : إنها خبرية لفظاً ومعنىً ، ويجوز أن تكون موضوعة شرعاً للإنشاء [1] .

ومنهم من جوز الوجهين فيها ، أي : رأىٰ بأنها يمكن أن تكون خبرية أو إنشائية ، يقول العدوي : قوله : « (والحمد لله) معطوف علىٰ قوله : الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته ، إما لكونهما خبريتين لفظاً ومعنىً ، أو إنشائيتين معنىً خبريتين لفظاً »[2] .

والذي ترجح عندي في ذٰلك ، ومما استعرضته من كلام العلماء حول ذٰلك هو أنها : (خبرية لفظاً لا معنىً) ، وذٰلك يتضح من سياق الصيغة نفسها ، فقولك (الحمد لله) هو إخبار بأن جميع المحامد لله تبارك وتعالىٰ ، فقد سبق أن ذُكر بأن الألف واللام فيها هي للاستغراق ؛ الذي يقتضي الإخبار عن المحمود ، وهو ٱلله ـ عز وجل ـ ثم من كونها إنشائية المعنىٰ ، حينما ننظر في كونها جملة دعائية ، والدعاء لا يحتمل الصدق أو الكذب لأنه من جمل الإنشاء ، فمن ذٰلك يتبين كون جملة الحمد (خبرية لفظاً إنشائية معنىً) ، وٱلله أعلم .

وسواء كانت الصيغ علىٰ ما سبق بيانه ـ خبرية علىٰ الإطلاق ، أو إنشائية علىٰ الإطلاق ، أو بين ذٰلك ـ فإن مما يلفت نظر الباحث عدم مجيء الأمر مباشرة من ٱلله ـ عز وجل ـ بالحمد مثلما ورد أمره (بتسبيحه أو شكره أو استغفاره) ، وهو أمر فيما يبدو للمتأمل له أبعاده القريبة ، والبعيدة المتصلة بأن ٱلله ـ عز وجل ـ هو المستحق للحمد علىٰ الإطلاق ، وله مجامع الحمد

---

(1) نهاية المحتاج للشافعي الصغير (١ / ٢٦ ـ ٢٧) .

(2) حاشية علي العدوي (٢ / ٦٦٨) .

كلها ، فالفضل منه وإليه ، فليس هناك كائن مخلوق يمنُّ علىٰ ٱلله ـ عز وجل ـ وليس هناك أحد مستحقاً للنعمة التي هو فيها ، وأنها واجبة علىٰ ٱلله ـ عز وجل ـ سواء كانت هـٰذه النعمة محسوسة أو معقولة ، وإنما الأمر محض رحمة وإحسان من ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ، فهو السابق بالنعم والرحمات والأفضال من غير سابقة من أحد كائناً من كان .

ولعلنا نستشف الأبعاد التربوية والأخلاقية والعقدية من مجيء صيغ (الحمد) بصيغةٍ واحدة ، سواء كانت خبرية لفظاً ومعنىٰ ، أو خبرية لفظاً لا معنىٰ ، وعدم مجيء هـٰذه الصيغ في قالب إنشائيٍّ أَلْبَتَّةَ في كتاب ربنا .

وإذا تأملنا السور التي وردت فيها صيغة (الحمد) في كل من سور (الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر) ، فإننا نجد : أن هـٰذه السور قد افتتحت بحمد ٱلله ، وهو حمد يشمل حمده علىٰ سائر نعمه المتصلة بالإنسان والكون والظلمة والنور والنبات والحيوان وصفات ٱلله ، وهـٰذا كله قد سبق الإشارة إليه[١] .

المبحث الثاني : صيغ الحمد لفظاً ومعنىً :

الخبر : هو ما كان له نسبة تفهم من الخبر أو من الواقع[٢] ، أو ما احتمل الصدق أوالكذب لذاته ، واحترز بقولهم : (لذاته) لتخرج الأخبار التي لا تحتمل الكذب ، كقولنا : (ٱلله ربنا) وقولنا : (لله الحمد) ، وقولنا : (الواحد أكبر من النصف) ، وغير ذٰلك من الأخبار الأكيدة .

الإنشاء : هو ما لا يحتمل صدقاً أو كذباً ، أو هو الكلام الذي ليس لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه[٣] ، وله عدة أقسام ـ ليس هـٰذا غرضنا ـ ، لـٰكن

---

(١) انظر الباب الثاني من الرسالة (٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩) .

(٢) انظر علوم البلاغة للمراغي ٤٣ .

(٣) المصدر السابق ٦١ .

الذي يهمنا من أقسامه هو : (الأمر) الذي سيدخل معنا في صيغ الحمد ، وهي على النحو التالي :

صيغ خبرية لفظاً ومعنىً :

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] فقوله : (له الحمد) جملة خبرية لفظاً ومعنىً ، وذلك لأنها إخبار بأن الحمد له سبحانه ، فكان تقديم الجار والمجرور دليلاً على الإخبار بأن الحمد له ـ سبحانه وتعالى ـ .

ونظير ذلك كل الآيات التي جاءت مسبوقة بالجار والمجرور مثالها آية الجاثية : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٦] ، وغيرها من الآيات في ذلك .

صيغ خبرية لفظاً لا معنىً :

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وهذه الصيغة وإن كان فيها خلاف بين العلماء ، لكن الذي ترجح عندي هو كونها خبرية لفظاً لا معنىً ، وفي الفصل السابق ما يغني من توضيح حول ذلك لمن أراد الاستزادة .

ويدخل في ذلك جميع الصيغ الواردة في القرآن على شاكلة آية الفاتحة ، والله أعلم .

صيغ خبرية في المعنى دون اللفظ :

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء : ١١١] ، وبيان ذلك هو أن الجملة فيها أمر ، والأمر كما سبق من أقسام الإنشاء ، فقوله : (قل) فعل أمر دل على أن الجملة إنشائية ، ثم قوله : (الحمد لله) جملة خبرية لا تحتمل الكذب ، وذلك على اعتبار أنها إخبار بأن المستحق للحمد هو الله ـ تبارك وتعالى ـ ، فمن ذلك يتبين لنا بأن جملة : (قل الحمد لله) هي من صيغ الخبر

في المعنىٰ دون اللفظ ؛ لأن اللفظ أمر وهو من أقسام الإنشاء .

ويدخل في ذٰلك جميع صيغ الحمد التي سبقت بالأمر ، إما بـ : (قل) أو الأمر بالتسبيح المقرون بالحمد . واللّٰه أعلم .

وصيغ الحمد كثيرة من غير الصيغ التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وذٰلك مما جاء في كلام بعض الصالحين ؛ الذين أثنوا به علىٰ ربهم ـ عز وجل ـ بما فُتح عليهم ، فجاؤوا بها علىٰ نسق يشبه السحر في عبارات جميلة جعلت القلوب منها تخشع والعيون علىٰ إثرها تدمع ، وليس ذٰلك مستغرباً ، فقد قال حبيبنا ﷺ : « إن من البيان لسحراً »[1] ، ثم لم يتوقف الناس عند ذٰلك ، بل صاغوا من روائع شعرهم ما يتضمن الحمد في عبارات جميلة موافقة لما جاء في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وكلام الصالحين ، وسأذكر هنا نماذج من ذٰلك الشعر علىٰ سبيل التمثيل ، ومما وجدته من خلال قراءتي في الكتب حيث انتقيت منها ما يلي :

١ ـ يقول أبو نواس[2] عندما حج وصاغ التلبية في أبيات شعرية جميلة في قصيدة طويلة :

لبيك إن الحمد لك ... والملك لا شريك لك
ما خاب عبد سألك ... أنت له حيث سلك

٢ ـ ويقول أبو العتاهية[3] رحمه الله :

(١) أخرجه البخاري باب : الخطبة (٥ / ١٩٧٦) برقم : (٤٨٥١) .

(٢) هو الحسن بن هانئ الحكمي ، ولد بالأهواز ، سمع الحديث . ومدح الخلفاء والوزراء ، وله أشعار في المجون والخمور ، توفي سنة ١٥٩ هـ . انظر سير أعلام النبلاء (٩ / ٢٧٩ ـ ٢٨١) .

(٣) هو الأديب الصالح ، ورأس الشعراء ، أبو إسحاق إسماعيل بن قاسم بن سويد العنزي ، نزل بغداد ، لقب بأبي العتاهية لاضطراب فيه ، سار شعره لجودته وحسنه وعدم تقعره ، قال في المواعظ والزهد فأجاد ، توفي رحمه الله ببغداد سنة ٢١١ هـ وله ثلاث وثمانون سنة . انظر سير=

فالحمد لله الذي هو دائم أبداً وليس لما سواه دوام
والحمد لله الذي لجلاله ولحلمه تتصاغر الأحلام
والحمد لله الذي هو لم يزل لا تستقل بعلمه الأفهام

٣ - ويقول الشيخ عبد العزيز الدِّيريني[1] رَحِمَهُ اللَّهُ :

لك الحمد عاملنا بما أنت أهله وسامح وسلمنا فأنت المسلم

٤ - ويقول لسان الدين ابن الخطيب[2] رَحِمَهُ اللَّهُ :

الحمد لله الذي مصداقه في كل شيء أنه خلاقه
الحمد لله الذي دليله في كل شيء واضح سبيله
والحمد لله الذي من جحده فإنما ينكر رباً أوجده
والحمد لله الذي من أنكره فإنما ينكر رباً صوره

٥ - ويقول الأمير الصنعاني[3] رَحِمَهُ اللَّهُ :

= أعلام النبلاء (١٠ / ١٩٥ - ١٩٨) .

(١) عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الديريني ، الشيخ الزاهد ، والقدوة العارف ، صاحب المصنفات والنظم الكثيرة ، نظم عدداً من كتب الفقه والتفسير ، كان حسن الأخلاق ، سليم الباطن ، ولد سنة ٦١٢ هـ ، وتوفي سنة ٦٩٤ هـ . انظر طبقات الشافعية الكبرى (٨ / ١٩١ - ٢٠٨) .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني ، أبو عبد الله ، لسان الدين ابن الخطيب ، ولد سنة ٧١٣هـ ، وقرأ القرآن والقراءات والعربية ، وتأدب ، وأخذ المنطق والحساب والطب وبرز فيه ، وكان يلقب بذي الوزارتين ، سعى فيه بعض حساده فقتل سنة ٧٧٦هـ رَحِمَهُ اللَّهُ . انظر الدرر الكامنة (٤ / ٨٨ - ٩٣) .

(٣) السيد محمد بن إسماعيل بن صلاح الحسيني الصنعاني المعروف بالأمير ، صاحب التصانيف ، ولد سنة ١٠٩٩هـ بكحلان ، ثم انتقل إلى صنعاء سنة ١١٠٧ هـ ، وأخذ عن علمائها ، ورحل إلى مكة والمدينة ، وقرأ الحديث على علمائها ، وبرع في جميع العلوم وتفرد برئاسة العلم في صنعاء ، توفي سنة ١١٢٨ هـ رَحِمَهُ اللَّهُ . انظر البدر الطالع =

لك الحمد حمداً طيب اللفظ والمعنىٰ لـك الحمـد حمـداً دائمـاً أبـداً منّـا
لك الحمد إذ علمتني الحمدَ والثنا ولـولاك لـم أعـرفـه لفظـاً ولا معنـىٰ

هٰذا غيض من فيض ، ولو أردت الإطالة ؛ لطال بنا المقام ، ولٰكن أتيت بأمثلة علىٰ ذٰلك ، فلله الحمد والمنة علىٰ ما وفق وهدىٰ .

✍ ✍ ✍

= (٢ / ١٣٣ ـ ١٣٩) .



الباب الخامس

أزمنة الحمد ومواطنه
والحمد بداية الأمر ونهايته وأعداده





وفي هٰذا الباب سأتناول أزمنة الحمد ومواطنه المكانية ، ثم أعرج بالحديث علىٰ الحمد بداية الأمر ونهايته ، ثم أختم بالحديث عن أعداد الحمد المقيدة والمطلقة .

وجاء الباب علىٰ النحو التالي :

أولاً : أزمنة الحمد :

وقد قمت بجمع أغلب وأشهر أزمنة الحمد ، وأقصد بالزمانية ما يكون الحمد في زمن معين دون اعتبار للمكان الذي يقال فيه الحمد ، وقد يكون هٰذا الزمن ساعة أو نهاراً ، كذٰلك قد يكون الحمد في ذٰلك الزمان ركناً أو واجباً أو مسنوناً ، وقد فصلت في ذٰلك ، ولله الحمد والمنة .

ثانياً : مواطن الحمد المكانية :

وهٰذا الفصل قد جمعت منه المواطن المكانية قدر الإمكان ، وفرقت بينها وبين الزمانية ، وذٰلك ببيان أن الحمد يكون في ذٰلك المكان دون غيره ودون اعتبار للزمان ، وقد يجد القارئ أن ثمة تشابهاً بين المواطن الزمانية والمكانية ، لٰكن نقول : إن الفرق بينهما هو أن الزماني ـ كما سبق ـ هو اختصاص بساعة أو يوم أو غيره ، أما الموطن المكاني فهو اختصاص بذٰلك المكان دون اعتبار للساعة أو اليوم أو غيره ، وما كان فيها تشابه شديد في ذٰلك ، فللقارئ أن يحكم بما يراه لأن لكلٍّ وجهة نظر تخصه ، لٰكن الغاية هو الجمع ـ قدر الإمكان ـ للمواطن التي يذكر فيها الحمد .

ثالثاً : الحمد بداية الأمر ونهايته :

وقد قمت في هٰذا الفصل بذكر البعد الزمني للحمد ، وأنه كان بداية الأمر ونهايته ، وهو بداية للخلق ونهاية المطاف لمن حققه وهي الجنة ، ثم ذكرت أن كل أمر ذي بال لابد أن يفتتح بالحمد[1] ـ كما أخبر النبي ﷺ كذٰلك من البركة أن يختم ذٰلك الأمر بالحمد ، وذكرت الدليل علىٰ ذٰلك الصلاة التي تفتتح بالحمد ، وتختتم به ، وما كان ذٰلك إلا لبيان فضل الحمد ، وما يضفيه من بركة علىٰ من لزمه في بداية كل أمر خير ونهايته .

رابعاً : أعداد الحمد :

وكما أن للحمد مواطن زمانية ومكانية وبداية ونهاية ، فله كذٰلك أعداد جاءت السنة بتقييدها ، وله كذٰلك أعداد ليس لها حصر ، وقد قمت بتقسيم هٰذه الأعداد ؛ فوجدتها علىٰ النحو التالي :

منها : ما يردده المسلم مرة واحدة ، وذكرت عليه أدلة من السنة النبوية .

ومنها : ما يردده المسلم ثلاث مرات ، ودللت عليه .

ومنها : ما يردده المسلم سبع مرات ، وذكرت له دليلاً واحداً ، وهو قراءة الفاتحة علىٰ من لُدغ سبع مرات ، وذٰلك مذكور في قصة أبي سعيد الخدري ـ رضي ٱلله عنه ـ .

ومنها : ما يردده المسلم عشر مرات ، وذكرت الأدلة عليه ، وما يعود علىٰ المسلم من النفع في ذٰلك .

ومنها : ما يردده المسلم ثلاثاً وثلاثين مرة ، وهٰذا العدد عادة ما يكون بعد الصلوات المفروضة وعند النوم .

---

(١) سبق تخريجه ، الفصل الأول ص : ١٦ .

ومنها : ما يردده المسلم مئة مرة ، وهٰذا لا يكون في الغالب إلا في أذكار الصباح والمساء .

ومنها : ما فيه مضاعفة لمن قاله ، فالواحدة بعشر ، والعشر بمئة ، والمئة بألف ، وٱلله يضاعف لمن يشاء .

ومنها : ماليس له عد أو حصر ، وذٰلك لمن قال : (سبحان ٱلله وبحمده عدد خلقه . . . الحديث) .

✍ ✍ ✍





الفصل الأول
أزمنة الحمد

وللحمد أزمنة يتأكد في بعضها ، ويستحب في الأخرىٰ ، وسأقوم في هـٰذا الفصل ـ إن شاء ٱلله ـ بذكر هـٰذه الأزمنة علىٰ سبيل الأمثلة لا علىٰ سبيل الحصر ، لأنني لو أردت حصر تلك الأزمنة لطال الكلام ، فحمد ربنا ليس له عد ولا حصر ، فهو الذكر الذي بدأ ٱلله به كلامه في القرآن ، ومدح به نفسه في الأزل قبل أن يمدحه به أحد ، وأتىٰ به علىٰ صيغة الاستغراق ـ كما سبق ـ ولم يكلف به أحداً مباشرةً كغيره من الأذكار ، كذٰلك لم يأذن لأحد أن يُذكر به ، أو يمدح به نفسه ، أو غيره بصيغة من صيغ الحمد ، فقد ذم في كتابه من فعل ذٰلك بقوله : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٨٨] فقد بين ٱلله في هـٰذه الآية حال هـٰؤلاء الذين يستحمدون لأنفسهم علىٰ أمور لم يفعلوها ، فمن هنا يتبين أن الحمد والثناء لربنا ـ وحده ـ في كل وقت وفي كل مكان ، حمداً يليق به كما يحب ربنا لنفسه الحمد من نفسه ، وكما رغب ذٰلك من خلقه ، فلربنا الحمد أولاً وآخراً ، وفي كل وقت .

وسأبدأ بذكر هـٰذه الأزمنة مستشهداً لكل زمن منها بآية من كتاب ربنا ، أو حديث من أحاديث نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو بفعل من أفعال سلفنا الصالح :

وأهم هـٰذه الأزمنة عند الصلاة ، وذٰلك في مواطن متعددة ، وهي :

الأول : عند قراءته الفاتحة ، وهي أم الكتاب ، وقد بدأها ربنا ـ تبارك

وتعالىٰ - بالحمد لنفسه ، وكان سبب الحمد في أولها ؛ لأن الفاتحة توسل وثناء علىٰ ٱلله ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللهُ : « وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين ، وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده »[١] ، وأن كل حمد في القرآن مرتبط بها ، ولا تصح صلاة المسلم إلا بقراءة هٰذه السورة ؛ فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[٢] وفي هٰذا الحديث يبين لنا النبي ﷺ أهمية الحمد في الصلاة من أهمية قراءة الفاتحة .

وقد سماها النبي ﷺ السبع المثاني ، فقد روىٰ أبو سعيد بن المعلىٰ[٣] قال : كنت أصلي في المسجد ، فدعاني رسول ٱلله ﷺ فلم أجبه ، فقلت : يا رسول ٱلله إني كنت أصلي ، فقال : « ألم يقل ٱلله : ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ؟! » ، ثم قال لي : لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل : لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ، قال : « الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته »[٤] . وقد فُصلت الفاتحة وبُين فضل قراءتها ووجوب ذٰلك علىٰ الإمام والمأموم في السنة ، فقد روىٰ أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « من صلىٰ صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج (ثلاثاً) غير تمام » . فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام فقال : اقرأ

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣١) .

(٢) صحيح البخاري ، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها (١ / ٢٦٣) برقم (٧٢٣) .

(٣) أبو سعيد بن المعلى الأنصاري المدني يقال : اسمه رافع بن أوس ، وقيل : الحارث ، ويقال : ابن نفيع ، صحابي ، مات سنة ثلاث وسبعين ، وقيل : غير ذلك . انظر تقريب التهذيب لابن حجر (١ / ٦٤٤) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب ما جاء في فاتحة الكتاب (٤ / ١٦٢٣) برقم : (٤٢٠٤) .

بها في نفسك ؛ فإني سمعت رسول ٱلله ﷺ يقول : « قال ٱلله تعالىٰ : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قال ٱلله تعالىٰ : حمدني عبدي وإذا قال : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال ٱلله تعالىٰ : أثنىٰ علي عبدي ، وإذا قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال : مجدني عبدي ، وقال مرة : فوض إلي عبدي ، فإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ قال : هٰذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال : هٰذا لعبدي ولعبدي ما سأل »[(١)] . ومن هٰذا الحديث يتبين لنا أهمية قراءة الفاتحة ، وفضل الحمد فيها ، حيث ذكر ـ سبحانه وتعالىٰ ـ : أن من حمد ٱلله عند قراءته للفاتحة ؛ فإن ذٰلك يكون كالخطاب بينه وبين ربه ، حيث يرد عليه ربه ـ عز وجل ـ بقوله : حمدني عبدي ، فهٰذا فضل عظيم لكل من قرأ هٰذه السورة العظيمة بتدبر وخشوع لله ، واستشعر هٰذا الفضل العظيم من الرب الكريم ؛ حين يرد عليه بهٰذا القول ، وأي شهادة أصدق من هٰذه الشهادة لهٰذا العبد الضعيف ، لٰكنه لفضله ولكرمه رد عليه ليبين له أنه الكريم الرحمٰن الودود المتقرب لعباده كلما تقربوا منه ، وليس ثمة تقرب أفضل من أن يثني العبد علىٰ ربه بهٰذا الثناء العظيم في هٰذه السورة العظيمة .

الثاني : عند الرفع من الركوع ، والحمد هنا هو ثناء علىٰ ٱلله بأن وفقه لهٰذه المرتبة العظيمة ، والذي فيه تعظيم لله ، فإذا رفع المصلىٰ رأسه من الركوع قال : (ربنا ولك الحمد) ، فقد روىٰ البخاري عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « . . . . إنما جُعل الإمام ليؤتم به ، فإذا صلىٰ قائماً فصلوا قياماً ، فإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع فارفعوا ، وإذا قال : سمع ٱلله لمن

---

(١) أخرجه الإمام مسلم عند باب : وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها . (١ / ٢٩٦) برقم (٣٩٥) .

حمده ، فقولوا : ربنا ولك الحمد . . . »[(١)] وذكر الحمد هنا دليل علىٰ فضله ، ولو تفكرنا في هـٰذا القول قليلاً لوجدنا معنىً عظيماً في ذٰلك ، وهو أن المصلي يقول إذا كان إماماً أو منفرداً : (سمع ٱلله لمن حمده) وفي هـٰذا تأكيد بأن ٱلله سيسمع حمد من حمده ، والسماع هنا بمعنىٰ القبول ، فمن قال : (ربنا ولك الحمد) وفي رواية : (ربنا لك الحمد) خالصاً من قلبه تقبل ٱلله منه ذٰلك ؛ لأن التأكيد قد سبقها ؛ فالقبول حاصل بإذن ٱلله ، تبارك وتعالىٰ .

وهناك بعض الزيادات علىٰ هـٰذا القول والتحميد صدرت من بعض الصحابة ـ رضوان ٱلله عليهم أجمعين ـ سمعها النبي ﷺ فأقرها ، واستحسنها منهم ، وأثنىٰ عليها . وقد أفرد الإمام البخاري لها باباً أسماه (باب فضل : ربنا ولك الحمد) من ذٰلك ما رواه عن رفاعة بن رافع الزرقي[(٢)] قال : كنا يوماً نصلي وراء النبي ﷺ ، فلما رفع رأسه من الركعة قال : سمع ٱلله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمداً طيباً مباركاً فيه ، فلما انصرف قال : من المتكلم ؟ قال : أنا قال : رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول »[(٣)] .

وهـٰذه الزيادة من هـٰذا الصحابي الجليل هي إلـٰهام من ٱلله ـ عز وجل ـ له ليقره النبي ﷺ عليها ، ولتكون سنة يعمل بها إلىٰ يوم القيامة ، وزيادة في أجر من أراد الزيادة ، فأجرها لا يعرف ، فقد تبادرتها الملائكة دون أن تعرف

---

(١) أخرجه البخاري باب : إنما جعل الإمام ليؤتم به (١ / ٢٤٤) برقم (٦٥٧) .

(٢) رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان أبو معاذ الزرقي ، شهد بدراً ، روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر الصديق وعبادة بن الصامت ، وعنه ابناه عبيد ومعاذ وابن أخيه يحيى بن خلاد بن رافع وابنه علي بن يحيى ، مات في أول خلافة معاوية ، قال ابن عبد البر : وشهد مع علي الجمل وصفين ، وقال ابن قانع : مات سنة إحدى أو اثنتين وأربعين . تهذيب التهذيب (٣ / ٢٤٣) .

(٣) أخرجه البخاري باب : فضل : ربنا ولك الحمد (١ / ٢٧٥) برقم : (٧٦٦) .

أجرها ، فأرجأها ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ إلىٰ يوم القيامة حتىٰ يكافئ هٰذا الصحابي ، وكل من قالها بما يستحقه من ربه ـ عز وجل ـ يوم يلقونه وهو راض عنهم غير غضبان ، وما هٰذا إلا من حسن الثناء علىٰ ٱلله ـ عز وجل ـ بهٰذا الثناء العظيم ، والحمد له بالحمد الطيب المبارك .

وجاء في صحيح مسلم عن عبد ٱلله بن أبي أوفىٰ[1] ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : كان رسول ٱلله ﷺ يدعو بهٰذا الدعاء « اللهم ربنا لك الحمد ملء السمٰوات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد »[2] وهٰذا الثناء من النبي ﷺ لربه فيه دليل علىٰ ما يستحقه ربنا من الحمد والشكر ؛ حمداً يملأ السمٰوات والأرض ، وأي شيء يريده ربنا .

الثالث : عند دعاء الاستفتاح ، وهو قول المصلي : « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالىٰ جدك ولا إلٰه غيرك » ، فقد روىٰ ابن ماجه وغيره عن أبي سعيد الخدري ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : كان رسول ٱلله ﷺ يستفتح صلاته يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالىٰ جدك ولا إلٰه غيرك »[3] وهٰذا الدعاء ـ كما قلنا ـ هو استفتاح الصلاة ، ولننظر إلىٰ هٰذا الدعاء العجيب الذي فيه التنـزيه والتقديس والتحميد لله ، ثم العلو والعظمة له بأنه الواحد الأحد الذي ليس ثمة إلٰه غيره ، ومن استشعر هٰذا الدعاء وعرف

---

(١) عبد ٱلله بن أبي أوفى ، واسمه علقمة بن خالد بن الحارث بن أبي أسيد بن رفاعة بن ثعلبة بن هوازن بن أسلم الأسلمي ، أبو معاوية ، وقيل : أبو إبراهيم ، وبه جزم البخاري ، وقيل : أبو محمد ، له ولأبيه صحبة ، توفي سنة سبع وثمانين ، وكان آخر من مات بها من الصحابة ، الإصابة (٤ / ١٨) .

(٢) صحيح مسلم باب : ما يقول إذا رفع من الركوع (١ / ٣٤٦) برقم : (٤٧٦) .

(٣) أخرجه الحاكم باب : التأمين ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١ / ٣٦٠) وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (١ / ٢٦٤) ؛ وأبو داود باب : بَاب من رَأَى الاسْتِفْتَاحَ بِسُبْحَانَكَ اللهم وبحمدك (١ / ٢٠٦) وقال الألباني : حديث صحيح ، انظر صحيح سنن أبي داود للألباني (١ / ١٣٥) .

معناه أصبح خاشعاً في صلاته ، منكسراً بين يدي ربه ؛ الذي مدحه بهٰذا الثناء العجيب ، والذي له العلو والعظمة .

وبما أن الحمد متضمن في هٰذا الدعاء تبين أنه من أعظم الأدعية في أعظم فرض ، وفي أسمىٰ الأوقات التي يلتقي فيها المؤمن مع ربه متجرداً عن الدنيا وما فيها من لغو ، في سكون وتدبر لما يتلىٰ من آيات ، ولما يقال من أذكار ، فمن عظم الصلاة عَظُمَ الحمد الذي كان في أكثرها .

الرابع : في الركوع والسجود عند التسبيح ، فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ كان (إذا ركع قال : « سبحان ربي العظيم وبحمده ثلاثاً » وإذا سجد قال : « سبحان ربي الأعلىٰ وبحمده ثلاثاً » [1] وفي هٰذه الروايات زيادة قوله (وبحمده) وفيها تعظيم للحمد في الركوع والسجود ، والتي هي أقرب ما يكون فيها العبد من ربه ـ عز وجل ـ ، وبما أن الحمد مفتاح للصلاة كذٰلك هو خاتم لها ، فتفتتح الصلاة بدعاء الاستفتاح ـ كما سبق ذكره ـ وتختتم بالصلاة علىٰ النبي ﷺ وذٰلك عند قول المصلي : (إنك حميد مجيد) ، ومعنىٰ حميد : مبالغة في التحميد ، وأنه الموصوف بهٰذه الصفة ، وقد سلف الحديث عن اقتران هاتين الصفتين مع بعضهما البعض بما فيه الكفاية ، ولله الحمد والشكر علىٰ ذٰلك .

الخامس : عند الأذكار التي تقال بعد الصلوات الخمس ، فقد حث النبي ﷺ عليها ، وهي أن يسبح المصلي ٱلله ثلاثاً وثلاثين ، ويحمده ثلاثاً وثلاثين ، ويكبره ثلاثاً وثلاثين ، ثم يقول تمام المئة : (لا إلـٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير) . روىٰ

---

(١) رواه أبو داود ، باب : ما يقوله الرجل في ركوعه وسجوده (١ / ٢٣٠) ، والبيهقي في الكبرى باب ما يقال في الركوع (٢ / ٨٦) ؛ والدارقطني باب : صفة ما يقول المصلي عند ركوعه وسجوده (١ / ٣٤١) ؛ وقال الألباني : صحيح الإسناد ، انظر صحيح أبي داود للألباني(١ / ١٦٨) .

أبو هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ عن رسول ٱلله ﷺ قال : « من سبح ٱلله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد ٱلله ثلاثاً وثلاثين ، وكبر ٱلله ثلاثاً وثلاثين ؛ فتلك تسعة وتسعون ، وقال تمام المئة لا إلـٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »[1] ، ولو أمعنا النظر في الذكر بعد الصلاة لوجدنا : أن للحمد فيه النصيب الأكبر ، فهو يقال ثلاثاً وثلاثين مرة كغيره من التسبيح والتكبير لـٰكنه يزيد عليهما عند قولنا : « لا إلـٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير » ، فذكر الحمد هنا ، وبيان فضله هو دليل شرف منزلته .

وكذٰلك قول المصلي بعد صلاة الفجر : « لا إلـٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، بيده الخير ، وهو علىٰ كل شيء قدير » عشر مرات ، فقد جاء الحث عليها ، وذٰلك قبل أن يتكلم المصلي أي كلمة مع أحد ، وقبل أن يثني رجله ـ في إحدىٰ الروايات ـ ، أي : وهو باق علىٰ جلسة الصلاة ، روىٰ الترمذي عن أبي ذر ـ رضي ٱلله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « من قال دبر صلاة الفجر وهو ثانٍ رجله قبل أن يتكلم : لا إلـٰه الا ٱلله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، بيده الخير ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، عشر مرات كتب ٱلله له بكل واحدة قالها منهن حسنة ، ومحي عنه سيئة ، ورفع بها درجة ، وكان له بكل واحدة قالها عتق رقبة ، وكان يومه ذٰلك في حرز من كل مكروه ، وحُرِسَ من الشيطان ، ولم ينبغ لذنب أن يدركه في ذٰلك اليوم إلا الشرك بٱلله »[2] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم عند باب : استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان فضله (١ / ٤١٨) برقم : (٥٩٧) .

(٢) رواه الترمذي (بَاب ما جاء في فَضْلِ التَّسْبِيحِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ) وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح (٥ / ٥١٥) رقم (٣٤٧٠) وصححه الألباني ، انظر السلسلة الصحيحة (١ / ٢٢٩) .

ولنتدبر هـٰذا الحديث العظيم ، وما فيه من الفوائد التي تعود علىٰ المسلم المداوم عليه ، وهي :

أولاً : أنه يُكتب له عشر حسنات ، والله يضاعف لمن يشاء .

ثانياً : يُمحىٰ عنه عشر سيئات ، فبكل واحدة تمحىٰ سيئة .

ثالثاً : يُرفع بها درجة ، فبالعشر مرات يرفع عشر درجات .

رابعاً : كان له بكل واحدة قالها عتق رقبة ، أي : كأنه أعتق عشر رقاب .

خامساً : يكون بها في حرز من كل مكروه ، فلا يصيبه في ذٰلك اليوم أذىٰ بإذن الله تعالىٰ .

سادساً : وتكون له كالحارس من أن يقربه شيطان ، ولو لم تكن إلا هـٰذه لكفىٰ .

سابعاً : لا ينبغي لذنب أن يحبط عمله إلا أن يقع في الشرك بالله ، فهو محبط لكل الأعمال .

ولا أظن : أن مسلماً صاحب عقل وبصيرة يسمع مثل هـٰذا العطاء العظيم مقابل هـٰذا الذكر ؛ الذي لا يتجاوز الدقائق المعدودة ثم يتوانىٰ عنه ، وليعلم كل مسلم فضل الله علىٰ عباده حيث يجازي علىٰ العمل القليل : الخير الكثير ، فحري بنا أن نتقرب إلىٰ ربنا بالطاعات ؛ حتىٰ ننال منه الأجر علىٰ ذٰلك ، ونكون ممن أحبهم الله فيمن أحب .

وبهـٰذا تبين لي أزمنة الحمد في الصلاة ، والمتأمل في هـٰذه الأزمنة علىٰ كثرتها يجد أن الصلاة من أولها إلىٰ منتهاها وما بعدها هي حمد لله ، واعتراف له بالفضل علىٰ كل حال .

السادس : ما يردده المسلم في التلبية إذا أحرم بالحج أو العمرة ، وهو قوله : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، وفي هـٰذه التلبية العظيمة التي فيها كمال

الإخلاص والتوحيد لله ـ عز وجل ـ وفيها كذٰلك الاستجابة لنداء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، نجد أن صيغة الحمد جاءت مؤكدة حيث سبقتها (إن) التي تعني أن جميع المحامد لله ـ تبارك وتعالىٰ ـ . روىٰ عبد ٱلله بن عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ : أن تلبية رسول ٱلله ﷺ : « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك »[1] .

وذكر الحمد في التلبية له عدة معانٍ ، وهي :

أولاً : أن الحمد حق لربنا لا يشاركه فيه أحد ، كما أنه لا يشاركه في الألوهية أحد .

ثانياً : اقترانه مع النعمة والملك فيه دليل علىٰ أن المنعم هو ٱلله ، وليس غيره ، وأن المالك هو ٱلله وليس غيره ، كذٰلك المحمود هو ٱلله وليس غيره .

ثالثاً : جاء الحمد سابقاً للنعمة ؛ ليدلنا علىٰ أن ربنا محمود قبل أن نحمده ، وقبل أن يخلق عباده ، وينعم عليهم ، وكذٰلك بعد أن خلقهم وأنعم عليهم ، ويدل كذٰلك علىٰ أن الحمد ليس علىٰ النعمة ، فقط بل هو ثناء ومدح لله بما هو أهله .

رابعاً : جاء الحمد بعد التلبية وتنزيه ٱلله عن الشريك لنستدل بذٰلك أن الحمد ليس علىٰ النعمة فقط ، بل يحمد علىٰ أنه رب لنا ، وليس معه شريك في ربوبيته وألوهيته سبحانه .

السابع : الحمد بعد العطاس ، والعطاس هو « ريح محتقنة تخرج وتفتح السد من الكبد ، وهو دليل جيد للمريض مؤذن بانفراج بعض علته »[2] ، وقد كان العرب يتشاءمون منه ، ويعتقدون : أن فيه الضر ، ويكره أحدهم أن يعطس ، حيث كان بعضهم يحبس العطاس حتىٰ لا يخرج منه ؛ لما يعتقده من

---

(١) صحيح البخاري ، باب/ التلبية (٢ / ٥٦١) برقم : (١٤٧٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٢ / ٢٦٣) .

اعتقاد فاسد بأن فيه الداء ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ليس العطاس داءً ، وإنما هو أمر يحبه ٱلله ، وهو نعمة يستوجب عليها الحمد من العبد[١] .

أما المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول عن سبب العطاس بأنه : « يرتفع من قعر المعدة إلىٰ منتهاها بخاران ، أحدهما حار يابس ، والآخر حار رطب ، فينعقدان ، فيمنعان الفكر ، ويتولد عنهما علل شتىٰ ، وذكر أن هـٰذا المنعقد إن ملك قمة الرأس ووسط الهامة ؛ أعقبه داء البيضة ، وإن برد منه حجاب الدماغ أو سخن أو ترطب وهاجت منه أرياح ؛ أحدث العطاس »[٢] .

وهـٰذا كلام جيد لبيان سبب العطاس الذي يسبب خروج هـٰذا البخار المنعقد ؛ ليتأكد بعده حمد ربنا علىٰ هـٰذه النعمة العظيمة ، وعند حمده لله يستحب لكل من سمعه أن يشمته بقوله : (يرحمك ٱلله) . روىٰ أبو هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « إذا عطس أحدكم ؛ فليقل : الحمد لله ، وليقل له أخوه أو صاحبه : يرحمك ٱلله ، فإذا قال : له يرحمك ٱلله ؛ فليقل : يهديكم ٱلله ويصلح بالكم »[٣] ، وقد نهىٰ رسول ٱلله ﷺ عن تشميت من لم يحمد ٱلله ، فقد عطس رجلان عند النبي ﷺ فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر ، فقال الرجل : يا رسول ٱلله شمَّت هـٰذا ولم تشمِّتني ، قال رسول ٱلله ﷺ : « إن هـٰذا حمد ٱلله ولم تحمد ٱلله »[٤] .

ويقول النبي ﷺ : « إن ٱلله يحب العطاس ويكره التثاؤب ؛ فإذا عطس فحمد ٱلله ، فحق علىٰ كل مسلم سمعه أن يشمته ، وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان . . »[٥] .

---

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) الآداب الشرعية للمقدسي (٢ / ٣٥١) .

(٣) صحيح البخاري ، باب إذا عطس كيف يشمت (٥ / ٢٢٩٨) برقم (٥٨٧٠) .

(٤) المرجع السابق ، بَاب لا يُشَمَّتُ الْعَاطِسُ إذا لم يَحْمَد اللَّهَ (٥/ ٢٢٩٨) برقم (٥٨٧١) .

(٥) المرجع السابق ، باب : ما يستحب من العطاس وما يكره من التثاؤب (٥ / ٢٢٩٧) برقم=

فسبب العطاس هو وجود أبخرة محتقنة في الدماغ ، فهي في حالة منعها من الخروج قد تسبب أضراراً جسدية ، فالعطاس نعمة عظيمة من ٱلله لطرد هٰذه الأبخرة من الجسم ؛ لذٰلك كان الحمد لله تعالىٰ علىٰ هٰذه النجاة !

ومما سبق يتبين لي الحكمة العظيمة من قولنا : (الحمد لله) بعد العطاس ، حيث إن فيه العديد من الفوائد للجسم ، وفي منعه العديد من الأضرار ، فكان خروج العطاس خيراً في جميع الأحوال ، وكان الحمد عليه اعترافاً بالنعمة للخالق ، عز وجل .

الثامن : الحمد عند القيام في صلاة التهجد في ثلث الليل ، فإن الحمد في ذٰلك الوقت مندوب له اقتداءً بالنبي ﷺ ، فعن ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السمٰوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السمٰوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، وقولك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إلٰه إلا أنت ، أو لا إلٰه غيرك »[1] . والمتأمل لهٰذا الحديث يجد : أن النبي ﷺ قد حمد ٱلله بمحامد عظيمة ؛ لأنه ـ سبحانه ـ أهل لتلك المحامد ، فقد حمده علىٰ أنه نور السمٰوات والأرض ، وشاهد ذٰلك ما ورد في سورة النور عند قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [النور : ٣٥] ، ثم حمده بأنه الإلٰه الحق ، وما وعد به فهو حق من لقائه وجنته وناره في ذٰلك اليوم العظيم الذي لا منجىٰ ولا ملجأ فيه إلا إليه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فمن داوم علىٰ طاعة ربه ، واعترف له

= (٥٨٦٩) .

(١) صحيح البخاري ، باب : الدعاء إذا انتبه من الليل (٥ / ٢٣٢٨) برقم (٥٩٥٨) .

بالفضل الجزيل كان من الناجين في ذٰلك اليوم ، ومن أعرض فسيكون عقابه أليماً ، والعياذ بٱلله .

التاسع : الحمد بعد الفراغ من الطعام والشراب ، وهـٰذا أدب من آداب الأكل والشرب ؛ التي كانت من عادة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد وردت صيغ كثيرة لحمده ﷺ أذكر بعضها منها على سبيل المثال ، وهي : ما رواه أبو أمامة : أن النبي ﷺ إذا أكل ورفع الطعام من أمامه قال : « الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ، ولا مودع ، ولا مستغنىٰ عنه ربنا » [١] ، وقال مرة إذا رفع مائدته قال : (الحمد لله الذي كفانا وأروانا غير مكفي ولا مكفور) وقال مرة : (الحمد لله ربنا غير مكفي ولا مودع ولا مستغنىٰ عنه ربنا) [٢] .

وفي هـٰذه المحامد دليل علىٰ أن المتفضل هو ٱلله ، والمنعم هو ٱلله ، وأنه لا يمكن الاستغناء عن فضله أبداً .

ومن ألفاظ الحمد التي وردت عن النبي ﷺ بعد الطعام ، ما رواه ابن حبان وغيره عن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي ٱلله عنه ـ : أن النبي ﷺ كان (إذا أكل أو شرب قال : الحمد لله الذي أطعم ، وسقىٰ ، وسوغه ، وجعل له مخرجاً » [٣] .

ونلاحظ في هـٰذه الصيغة أن الحمد لله علىٰ فضله بنعمة الإطعام ، فسوغ هـٰذا الطعام ، وجعله هنيئاً طيباً ، ثم بعد ذٰلك جعل له مخرجاً يخرج منه الزائد ، وفي هـٰذا إشارة إلىٰ أن خروج الزائد نعمة عظيمة تستحق الحمد

---

(١) المرجع السابق / باب ما يقول إذا فرغ من طعامه (٥ / ٢٠٧٨) برقم (٥١٤٢) .

(٢) المرجع السابق / باب ما يقول إذا فرغ من طعامه (٥ / ٢٠٧٨) برقم (٥١٤٢) .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢ / ٢٣) والنسائي في الكبرى (٤ / ٢٠١) وأبو داود (٣ / ٣٦٦) والطبراني في الكبير (٤ / ١٨٢) كلهم عند باب ما يقال من دعاء بعد الطعام ، وقال الألباني : صحيح الإسناد . انظر صحيح سنن أبي داود (٧٣٠) .

والشكر ؛ لأن في بقائه أذىً كبيراً علىٰ الإنسان .

ونكتة الحمد بعد الطعام هي اعتراف من العبد لربه بأن هيأ له جميع الأسباب من إنزال المطر ، وتهيئة الأرض ، والنار ، والزوجة ، وغيرها حتىٰ وصل الطعام إليه سائغاً .

العاشر : عند افتتاح الخطب والدروس ، وما كان الحمد هنا إلا ليعترف المسلم لربه بالفضل ؛ بأن هيأه للدعوة إليه عن طريق الخطبة ، أو المحاضرة ، أو الدرس .

وقد كان ﷺ يفتتح خطبه بالحمد ، روىٰ الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : (كانت خطبة النبي ﷺ يوم الْجُمُعَةِ يَحْمَدُ اللَّهَ ، وَيُثْنِي عليه ، ثُمَّ يقول علىٰ إِثْرِ ذٰلك وقد عَلا صَوْتُهُ . . .)[(١)] . والمسلمون ـ في القديم والحديث ـ يقتدون بنبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في استفتاح خطب الجمعة بالحمد ، وكذٰلك في دروسهم ومحاضراتهم الدينية .

الحادي عشر : عند النوم والاستيقاظ منه ، وكان سبب الحمد هنا هو أنه اعتراف لله بفضله ، حيث حفظ المسلم ، وعافاه حتىٰ عاد إلىٰ فراشه سالماً معافىٰ من الأذىٰ . فالمسلم المقتدي بنبيه ﷺ تراه يتتبع أفعاله في كل وقت ؛ لعلمه أن البركة في فعلها ، وأن تركها حسرة ، وقد كان هديه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند النوم أن يضع يده اليمنىٰ تحت خده الأيمن ، ثم يقول : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا ، فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ له ولا مُؤْوِيَ »[(٢)] ، وكان يقول إذا أخذ مضجعه : « اللهم بِاسْمِكَ أَحْيَا ، وَبِاسْمِكَ أَمُوتُ »[(٣)] . وإذا اسْتَيْقَظَ قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَحْيَانَا بَعْدَ

(١) أخرجه الإمام مسلم عند باب/ تخفيف الصلاة والخطبة (٢ / ٥٩٢) برقم (٨٦٧) .

(٢) أخرجه الإمام مسلم باب/ ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤ / ٢٠٨٥) برقم : (٢٧١٥) .

(٣) المرجع السابق (٤ / ٢٠٨٣) برقم : (٢٧١١) .

ما أَمَاتَنَا ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ »[١] .

الثاني عشر : وكان من هديه ﷺ عند لبس الثوب الجديد : أنه يحمد ٱلله ويثني عليه ، روىٰ معاذ بن أنس عن أبيه ـ رضي ٱلله عنه ـ : أن رسول ٱلله ﷺ قال : « . . . وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فقال : الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي كَسَانِي هـٰذا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ من غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي ولا قُوَّةٍ ؛ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ »[٢] .

الثالث عشر : ما يقوله المسلم إذا ركب دابته ، سواء كانت حيواناً أو غيره ، روىٰ الترمذي عن عَلِيِّ بن رَبِيعَةَ قال : شَهِدْتُ عَلِيًّا أُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا ، فلما وَضَعَ رِجْلَهُ في الرِّكَابِ قال : بِسْمِ اللَّهِ (ثَلاثًا) ، فلما اسْتَوَىٰ علىٰ ظَهْرِهَا قال : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، ثُمَّ قال : « سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لنا هـٰذا وما كنا له مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إلىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » ثُمَّ قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ (ثَلاثًا) وَاللَّهُ أَكْبَرُ (ثَلاثًا) سُبْحَانَكَ إني قد ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لي ؛ فإنه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنت » ثُمَّ ضَحِكَ ، قلت : من أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قال : رأيت رَسُولَ ٱللهِ ﷺ صَنَعَ كما صَنَعْتُ ، ثُمَّ ضَحِكَ ، فقلت : من أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ يا رَسُولَ ٱللهِ ؟ قال : « إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ من عَبْدِهِ إذا قال : رَبِّ اغْفِرْ لي ذُنُوبِي ؛ إنه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُكَ »[٣] .

الرابع عشر : كان من هدي النبي ﷺ أنه يحمد ٱلله إذا رأىٰ ما يسره ، وإذا رأىٰ ما يكره ، تقول أم المؤمنين عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ : كان رسول ٱلله ﷺ إذا رَأَىٰ ما يُحِبُّ ؛ قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ

---

(١) المرجع السابق (٤ / ٢٠٨٣) برقم : (٢٧١١) .

(٢) رواه أبو داود في كتاب اللباس (٤ / ٤٢) ، والحاكم في كتاب اللباس ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٤ / ٢١٣) ، وقال الألباني : حديث حسن ، صحيح سنن أبي داود (٢ / ٧٦٠) .

(٣) أخرجه الترمذي ، باب : ما يقول إذا ركب الناقة ، وقال : هذا حديث حسن صحيح (٥ / ٥٠١) ، وصححه الألباني ، انظر صحيح سنن أبي داود (٢ / ٤٩٣) .

الصَّالِحَاتُ »[١] وإذا رَأَىٰ ما يَكْرَهُ ؛ قال : « الْحَمْدُ للهِ علىٰ كل حَالٍ »[٢] .
فالحمد دليل علىٰ أن ٱلله محمود علىٰ كل حال .

الخامس عشر : رؤية أهل البلاء ، فيسلم من ذٰلك البلاء مَنْ حمد ٱلله ، وسأله المعافاة منه ، روىٰ ابن ماجه عن ابن عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « من فَجِئَهُ صَاحِبُ بَلاءٍ فقال : الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاكَ بِهِ ، وَفَضَّلَنِي علىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً ؛ عُوفِيَ من ذٰلك الْبَلاءِ كَائِنًا ما كان »[٣] ، فملازمة الحمد هنا تنجي من البلاء .

السادس عشر : عند تجدد النعم ؛ كما فعل داود وسليمان عليهما السلام في قولهما :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] ، وكان النبي ﷺ يسجد لله شكراً علىٰ تجدد النعم ، رُوي : (أَنَّهُ كان إذا جَاءَهُ أَمْرُ سُرُورٍ ، أو بُشِّرَ بِهِ ، خَرَّ سَاجِدًا شَاكِرًا لِلَّهِ)[٤] .

وفي هٰذا بيان أن النبي ﷺ لم تكن لتلهيه النعم وتجددها عن شكر وحمد

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه باب : فضل الحامدين (٢ / ١٢٥٠) ؛ والحاكم في المستدرك كتاب : الدعاء والتكبير والتهليل ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، (١ / ٦٧٧) ، وقال الألباني : حديث حسن ، صحيح سنن ابن ماجه (٢ / ٣١٩) .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه باب : فضل الحامدين (٢ / ١٢٥٠) ؛ والحاكم في المستدرك كتاب : الدعاء والتكبير والتهليل ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، (١ / ٦٧٧) ، وقال الألباني : حديث حسن ، صحيح سنن ابن ماجه (٢ / ٣١٩) .

(٣) رواه ابن ماجه ، بَاب : ما يَدْعُو بِهِ الرَّجُلُ إذا نَظَرَ إلى أَهْلِ الْبَلاءِ (٢/ ١٢٨١) ، وحسنه الألباني ، صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٣٣٧) .

(٤) رواه أبو داود ، باب : سجود الشكر (٣/ ٨٩) ؛ والدارقطني كتاب النوادر (٤/ ١٤٧) ، وصححه الألباني ، صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥٣٤) .

مسديها ، تبارك وتعالىٰ ، بل إنه كان يطبق ذٰلك الشكر والحمد عملياً ، فقد كان يخر ساجداً لربه علىٰ أن منَّ عليه بهٰذه النعمة ؛ ليكون ذٰلك اعترافاً له ، ثم ليتعلم أصحابه كيفية الثناء علىٰ الخالق ، عز وجل ، وليكون ذٰلك ديدن حياتهم .

السابع عشر : ما يقال عند إسلام الكافر ، روىٰ البخاري عن أنس ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : كان غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النبي ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النبي ﷺ يَعُودُهُ ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فقال له : « أَسْلِمْ » فَنَظَرَ إلىٰ أبيه وهو عِنْدَهُ فقال له : أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ ، فَأَسْلَمَ ، فَخَرَجَ النبي ﷺ وهو يقول : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَنْقَذَهُ من النَّارِ »[(١)] .

الثامن عشر : الحمد عند المصيبة وخاصة مصيبة فقد الابن ، والموفق مَنْ ثبته ٱلله عند هٰذه المصيبة العظيمة وهداه لحمده والاسترجاع ، روىٰ الترمذي وابن حبان عن أبي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : « إذا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ ، قال ٱلله لِمَلائِكَتِهِ : قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : نعم ، فيقول : قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ ؟ فَيَقُولُونَ : نعم ، فيقول : مَاذَا قال عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ ، فيقول ٱلله : ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا في الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ »[(٢)] . ولو تفكر المسلم في عظم هٰذه المصيبة ، ثم تفكر فيما أعد ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ له من العطاء العظيم وهو : (بيت في الجنة) وذٰلك مقابل عمل يسير ، وهو : حمد ٱلله واسترجاعه ؛ لهان عليه ذٰلك المصاب .

---

(١) أخرجه البخاري عند بَاب/ إذا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هل يُصَلَّى عليه ، وَهَلْ يُعْرَضُ على الصَّبِيِّ الإِسْلامُ (١ / ٤٥٥) برقم (١٢٩٠) .

(٢) أخرجه الترمذي عند باب : فضل المصيبة إذا احتسب ، وقال عنه : هذا حديث حسن غريب (٣ / ٣٤١) ؛ وابن حبان عند ذكر بناء ٱلله جل وعلا بيت الحمد في الجنة لمن استرجع وحمد ٱلله عند فقد ولده (٧ / ٢١٠) ؛ وقال الألباني : حديث حسن ، انظر صحيح الترمذي (١ / ٢٩٨)

التاسع عشر : الحمد عندما يرزق المسلم مولوداً على الكبر ، وذلك ما حصل لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام عندما وهبه الله إسماعيل وإسحاق عليهما السلام بعد أن طعن في السن ، وظن : أنه لن يُرزق الولد ، فجاءته البشارة من الله عن طريق الملائكة ، عندها قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] ، فقد قابل هذه النعمة بحمد ربه ؛ الذي قد شرفه بسماعه لدعائه بذلك .

العشرون : وقد جاء في القرآن الكريم بيان لبعض أوقات الحمد ، وهو ما يكون في أول النهار وآخره ، ومما جاء في ذلك ، قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه : ١٣٠] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [ق : ٣٩] .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [غافر : ٥٥] ، وقد خص النبي ﷺ هذه الأوقات بالذكر ، وحث على حمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها بقوله : « من قال حين يُصْبحُ وَحِينَ يُمْسِي سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِئَةَ مَرَّةٍ لم يَأْتِ أَحَدٌ يوم الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جاء بِهِ إلا أَحَدٌ قال مِثْلَ ما قال أو زَادَ عليه »[1] . وقال : « من قال سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »[2] ، والأحاديث والآيات في ذلك كثيرة لا تحصى . وقد ذكر أبو السعود كلاماً نفيساً حول تخصيص الحمد في هذه الأوقات حيث قال : (وتخصيصها بتلك الأوقات للدلالة على أن ما يحدث فيها من آيات قدرته ،

---

(١) أخرجه الإمام مسلم عند بَاب فَضْلِ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ وَالدُّعَاءِ (٤ / ٢٠٧١) برقم (٢٦٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري باب فضل التسبيح (٥ / ٢٣٥٢) برقم (٦٠٤٢) .

وأحكام رحمته ونعمته ؛ شواهد ناطقة بتنزهه تعالىٰ ، واستحقاقه الحمد ، وموجبة لتسبيحه وتحميده)[1] .

الحادي والعشرون : كما جاء في القرآن تخصيص الحمد بوقت معين ، وهو ما يكون بعد إهلاك الظالمين ، قال تعالىٰ : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٤٥] ، وقوله عن نوح عليه السلام : ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون : ٢٨] وهٰذا وإن كان من سنة الأمم السابقة إلا أنه يعتبر شرعاً لنا عند زوال الطغاة ؛ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ؛ الذين في بقائهم الخطر علىٰ من التزم بشرع ٱلله .

يقول النسفي رحمه الله : « ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة ، وأنه من أجلِّ النعم ، وأجزل القِسَمِ ، أو احمدوا ٱلله علىٰ إهلاك من لم يحمد ٱلله »[2] .

الثاني والعشرون : حمد ٱلله في الدنيا والآخرة بصفة عامة ، وذٰلك يعني أن حمد ٱلله علىٰ الإطلاق ، فلا ينقطع بأي حال من الأحوال ، فقد جاءت هٰذه الآيات وهي قوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص : ٧٠] ، وقوله : ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ : ١] دليل علىٰ الحمد المطلق الذي ليس له زمن معين ، بل في كل أوقات الحياة وكذٰلك في الآخرة .

الثالث والعشرون : عند دنو الأجل يستحب أن يُكثر من الحمد ، وذٰلك ما حدث للنبي ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر : ١ ـ ٣] ، تقول السيدة عائشة ـ رضي ٱلله عنها وعن أبيها ـ :

---

(١) تفسير أبي السعود (٧ / ٥٥) .

(٢) تفسير النسفي (١ / ٣٢٣) .

كان رسول اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قبل أَنْ يَمُوتَ : « سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » ، قالت : قلت يا رَسُولَ اللَّهِ : ما هٰذه الْكَلِمَاتُ التي أَرَاكَ أَحْدَثْتَهَا تَقُولُهَا ، قال : « جُعِلَتْ لي عَلامَةٌ في أُمَّتِي إذا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا » ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلىٰ آخِرِ السُّورَةِ[١] .

الرابع والعشرون : ما يقال من دعاء عند ختام المجلس ؛ لأن في ذٰلك الخير في جميع الأحوال ، فإن كان كلامه خيراً ؛ زاد بهٰذا الدعاء خيراً ، وإن شابت كلامه شائبة كان هٰذا الدعاء كفارة له ، تقول عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ : ما كان رسول ٱلله ﷺ يقوم من مجلس إلا قال : « سبحانك اللهم ربي وبحمدك ، لا إلٰه إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » ، فقلت له : يا رسول ٱلله : ما أكثر ما تقول هٰؤلاء الكلمات إذا قمت ، قال : « لا يقولهن من أحد حين يقوم من مجلسه إلا غفر له ما كان منه في ذٰلك المجلس »[٢] .

وقال مرة : « من قال سبحان ٱلله وبحمده سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إلٰه إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » ، فقالها في مجلس ذكر كانت كالطابع يطبع عليه ، ومن قالها في مجلس لغو كانت كفارته »[٣] .

الخامس والعشرون : وكان من هديه ﷺ أنه يحمد ربه عندما يرجع من سفر سواء كان من غزو أو حج أو عمرة ، وكان حمده أن أعاده ٱلله إلىٰ بلده سالماً غانماً . روىٰ البخاري : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان إذا قَفَلَ من غَزْوٍ أو حَجٍّ

---

(١) متفق عليه ، واللفظ للإمام مسلم عند بَاب ما يُقَالُ في الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ (١ / ٣٥١) ، برقم (٤٨٤) .

(٢) أخرجه الحاكم كتاب : الدعاء والتكبير والتهليل ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١ / ٦٧٤) ، والنسائي في الكبرى باب : ما يقول إذا جلس في مجلس (٦ / ٢٠٦) ؛ وقال الألباني : حديث صحيح ، انظر السلسلة الصحيحة (١ / ١٦٣) .

(٣) أخرجه النسائي ، باب : ما يقول إذا جلس في مجلس كثر فيه لغطه (٦ / ١١٢) ، وصححه الألباني ، السلسلة الصحيحة (١ / ١٦٣) .

أو عُمْرَةٍ يُكَبِّرُ علىٰ كل شَرَفٍ من الأرض ثَلاثَ تَكْبِيرَاتٍ ، ثُمَّ يقول : « لا إِلَهَ إلا ٱللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له ، له الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وهو علىٰ كل شَيْءٍ قَدِيرٌ ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ ، صَدَقَ ٱللهُ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ » [١] .

السادس والعشرون : ما يكون في الآخرة بعد انقضاء الحساب ودخول آخر أهل الجنة الجنة ، تدخل علىٰ الرجل زوجتاه من الحور العين فتقولان : الحمد لله الذي أحياك لنا ، وأحيانا لك ، روىٰ الإمام مسلم في الحديث الطويل عن خروج آخر رجل من النار قال : « . . . . وَيُذَكِّرُهُ ٱللهُ : سَلْ كَذَا وَكَذَا ، فإذا انْقَطَعَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ قال ٱللهُ : هو لك وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ ، قال : ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ فَتَدْخُلُ عليه زَوْجَتَاهُ من الْحُورِ الْعِينِ فَتَقُولانِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَحْيَاكَ لنا وَأَحْيَانَا لك ، قال : فيقول : ما أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ ما أُعْطِيتُ » [٢] .

---

(١) أخرجه البخاري باب/ ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو (٢ / ٦٣٧) ، برقم (١٧٠٣) .

(٢) أخرجه الإمام مسلم باب/ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فيها (١ / ١٧٥) ، برقم (١٨٨) .





الفصل الثاني
المواطن المكانية للحمد

وكما أن للحمد أزمنة يتأكد في بعضها ، ويستحب في الآخر ، كذٰلك له مواطن مكانية يستحب فيها ؛ لما له من الخير العظيم الذي يناله من أثنىٰ به علىٰ ربه ، سبحانه وتعالىٰ ، والمواطن المكانية قد تصلح أن تكون زمانية لمن أراد أن يسمي ذٰلك الموطن زمانياً ، لٰكنني ذكرتها في المواطن المكانية ، وذٰلك لأن الحمد لله يكون في ذٰلك الموطن المكاني دون اعتبار للوقت ، وهٰذا بخلاف الزمانية فهي تكون في ذٰلك الزمان دون اعتبار للمكان ، وهٰذا ما قد يفرق بينهما وإن كان هناك تشابه .

الموطن الأول : هو ما يكون من دعاء الحجاج علىٰ صعيد عرفات ، قال رسول ٱلله ﷺ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون عشية عرفة : لا إلٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير »(١) ، وهٰذا الموطن وإن جاز فيه أن يكون زمانياً ، لٰكن أحببت أن يكون مكانياً لتخصيصه بمكان معين ، وهو صعيد عرفات ، فلا اعتبار للزمن وإنما المعنيُّ هو المكان .

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى باب : أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة (٥ / ١١٧) ؛ والترمذي باب : في دعاء يوم عرفة (٥ / ٥٧٢) ، وحسنه الألباني ، السلسلة الصحيحة (٤ / ٦ ـ ٧) .

الموطن الثاني : إذا صعد الحاج أو المعتمر على الصفا والمروة ، فقد كان من هديه ﷺ أن يحمد ربه عليهما ، روى جابر بن عبد ٱلله - رضي ٱلله عنهما - في الحديث الطويل الذي يذكر فيه حجة النبي ﷺ فقال : (.... ثُمَّ خَرَجَ من الْبَابِ إلى الصَّفَا ، فلما دَنَا من الصَّفَا قَرَأَ ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ ٱلله بِهِ ، فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقِيَ عليه ؛ حتى رَأَى الْبَيْتَ ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، فَوَحَّدَ ٱللهَ ، وَكَبَّرَهُ ، وقال : لا إِلَـٰهَ إلا ٱلله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له ، له الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وهو على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لا إِلَـٰهَ إلا ٱلله وَحْدَهُ أَنْجزَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، ثُمَّ دَعَا بين ذٰلك ، قال مِثْلَ هـٰذا ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ نَزَلَ إلى الْمَرْوَةِ حتى إذا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ في بَطْنِ الْوَادِي سَعَى حتى إذا صَعِدَتَا مَشَى حتى أتى الْمَرْوَةَ ، فَفَعَلَ على الْمَرْوَةِ ؛ كما فَعَلَ على الصَّفَا .....) (١) .

الموطن الثالث : الحمد في السوق حيث يكون الناس في غفلة شديدة عن ذكر ٱلله ، فقد أشغلتهم الدنيا والمكاسب عن ذٰلك ، فمن وفقه ٱلله لحمده في ذٰلك المكان نال من الأجر ما ٱلله به عليم ، روى عمر بن الخطاب - رضي ٱلله عنه - : أن رسول ٱلله ﷺ قال : « من قال في السُّوقِ : لا إِلَـٰهَ إلا ٱلله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له ، له الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وهو حَيٌّ لا يَمُوتُ ، بيده الْخَيْرُ ، وهو على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ ، كَتَبَ ٱلله له أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ ، وَمَحَا عنه أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ ، وَبَنَى له بَيْتًا في الْجَنَّةِ » (٢) . وهـٰذا الذكر لا يكون إلا في

---

(١) رواه الإمام مسلم باب : حجة النبي ﷺ (٢ / ٨٨٨) ، برقم (١٢١٨) .

(٢) أخرجه الترمذي ، باب : ما يقول إذا دخل السوق وقال : فيه عمرو بن دينار ، وهو شيخ بصري ، وقد تكلم فيه بعض أصحاب الحديث من غير هذا الوجه (٥ / ٤٩١) ، وكذلك ابن ماجه باب/ الأسواق ودخولها (٢ / ٧٥١) ، والحاكم في كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتحميد ، وقال : هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (١ / ٧٢٢) ، وقال الألباني : حديث حسن ، انظر صحيح سنن ابن ماجه للألباني =

مكان واحد وهو السوق ، فمن حافظ عليه في ذٰلك الموطن نال من الحسنات الشيء الكثير ، وَمُحِيَ عنه من السيئات الشيء الكثير كذٰلك .

الموطن الرابع : ما تلهج به الملائكة حملة عرش الرحمـٰن ، فهم في تسبيح وحمد لربهم ، ثم استغفار لمن تاب من المؤمنين ، والدعاء لهم ، وقد جاء ذٰلك عند قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧] ، وما كان من ذكر في ذٰلك الموطن العظيم من هـٰؤلاء الملائكة الكرام ؛ لهو دليل علىٰ فضل ذٰلك الذكر ، وعلو مكانته عند ٱلله ، عز وجل .

مواطن الحمد المكانية في الآخرة : وللحمد ستة مواضع يكون فيها من قيام الناس من قبورهم ، وحتىٰ استقرارهم في دار النعيم ، جعلنا ٱلله من أهل تلك المحامد في تلك المواطن العظيمة إلىٰ أن نستقر في دار كرامته ، إنه ولي ذٰلك والقادر عليه ! وهـٰذه المواطن[١] هي :

أولاً : إذا خرج المؤمنون من قبورهم ؛ ففي ذٰلك المكان يحمدون ربهم ، روىٰ الطبراني في الأوسط عن ابن عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « ليس علىٰ أهل لا إلـٰه إلا ٱلله وحشة في قبورهم ولا منشرهم ، وكأني أنظر إلىٰ أهل لا إلـٰه إلا ٱلله وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن »[٢] ، ولا يحمد ٱلله في ذٰلك المكان إلا من ثبته ٱلله ؛ لأن الخروج من القبور من أشد ما يلقاه

= (٢ / ٢١) .

(١) انظر تفسير السمرقندي (٣ / ٧٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩ / ١٨١) ، وابن حجر في المطالب العالية (١٢ / ٢٧٤) ، وهذه الرواية وإن كان في سندها نظر ، لكنها تتقوى بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

الإنسان لهول ذٰلك الموقف ، أجارنا ٱلله منه !

ثانياً : في موقف الحساب ، وذٰلك حين ينادىٰ : ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يسٓ : ٥٩] ، فعندما يتميز المؤمن من الكافر تلهج ألسنة المؤمنين بحمد ربهم ، ويقولون : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون : ٢٨] ، فهم يحمدون ٱلله علىٰ أن نجاهم من الوقوع فيما وقع فيه غيرهم ، ثم لم يكن مصيرهم كمصيرهم .

ثالثاً : بعد مجاوزتهم للصراط ، وخاصة من كانوا أضعف الناس مروراً عليه ، فتصيب النار جوانبهم ، وعندما يجتازونه يحمدون ٱلله علىٰ أن نجاهم من النار في ذٰلك المكان ، روىٰ الحاكم عن عبد ٱلله بن مسعود ـ رضي ٱلله عنه ـ عن رسول ٱلله ﷺ في الحديث الطويل عن ذكر مرور الناس علىٰ الصراط « . . . . قال فيخلصوا ، فإذا خلصوا ؛ قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد الذي أراناك لقد أعطانا ٱلله ما لم يعط أحداً . . . . »[(١)] .

رابعاً : إذا دنوا من باب الجنة واغتسلوا بماء الحياة ، ونظروا إلىٰ الجنة ، وفي ذٰلك المكان يحمدون ٱلله علىٰ أن هداهم لهٰذا ، قال تعالىٰ : ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، فمن شدة فرحهم بالجنة ، وما أعده ٱلله لهم فيها تحركت ألسنتهم بحمد ربهم علىٰ ذٰلك العطاء العظيم .

خامساً : إذا دخلوا الجنة واستقبلتهم الملائكة بالسلام والتحية ، قالوا : ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر : ٧٤] ، وهٰذا الحمد يكون في الجنة ، وهو من المواطن المكانية للحمد .

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه عند تفسير سورة مريم ، وقال عنه : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٢ / ٤٠٨) ؛ والطبراني في الكبير (٩ / ٣٥٩) ؛ والإمام أحمد في مسنده (١ / ٣٩١) .

سادساً : إذا استقروا في الجنة وعرف كل منهم منزله وسكن فيه يكون ذلك المكان موطناً للحمد ، حيث يقول كل واحد منهم ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر : ٣٤ ـ ٣٥] ، فهو اعتراف منهم بأن ما نالوه من الخير الذي هم فيه ؛ إنما هو من فضل ٱلله ، وليس بأعمالهم ، فأعمالهم لا تبلغهم عشر معشار ما هم فيه من النعيم المقيم .

سابعاً : ومن أعظم المواطن المكانية للحمد ما يكون يوم العرض الأكبر ، حينما يقوم نبينا ﷺ فيسجد بين يدي مولاه ؛ فيحمده بمحامد كثيرة ، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « . . . فَأَقُومُ بين يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لا أَقْدِرُ عليه الآنَ ، يُلْهِمُنِيهِ ٱلله ، ثُمَّ أَخِرُّ له سَاجِدًا فَيُقَالُ لي : يا محمد ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لك ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ : رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيُقَالُ : انْطَلِقْ ، فَمَنْ كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ من بُرَّةٍ أو شَعِيرَةٍ من إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ منها ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ، ثُمَّ أَرْجِعُ إلىٰ رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ، ثُمَّ أَخِرُّ له سَاجِدًا فَيُقَالُ لي : يا محمد ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لك ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ : أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيُقَالُ لي : انْطَلِقْ فَمَنْ كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ منها ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ، ثُمَّ أَعُودُ إلىٰ رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ، ثُمَّ أَخِرُّ له سَاجِدًا فَيُقَالُ لي : يا محمد ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لك ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ : يا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيُقَالُ لي : انْطَلِقْ فَمَنْ كان في قَلْبِهِ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ من مِثْقَالِ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ من النَّارِ ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ » [1] .

---

(١) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم عند باب : أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١ / ١٨٣) ، برقم (١٩٣) .





الفصل الثالث
الحمد بداية الأمر ونهايته

وفي هٰذا الفصل سأتعرض للبعد الزماني للحمد في أول الأمر ونهايته ، فلو أمعنا النظر لوجدنا : أن ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قد افتتح الخلق بالحمد ، وختمه به كذٰلك ، قال ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ : افتتح ٱلله الخلق بالحمد فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ، وختمه بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : بين الخلائق ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] .

والمتأمل في هٰذه الآيات ، وفي كلام ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ يجد أن بداية الأمر فيما يخص العباد هو خلق السمٰوات والأرض ، ثم نهايته فيمن عرف حقيقة هٰذا الأمر الذي من أجله وجدت هٰذه المخلوقات العظام ، فاستقام علىٰ طاعة ربه ، فانتهىٰ به المطاف إلىٰ دار الكرامة والخلود ؛ ليحمد ٱلله مع من حمد في ذٰلك المكان ، ويكون بذٰلك ختاماً للأمر الذي كان عليه أول الحمد .

ويلحظ المتأمل : أن الحمد وإن كان بداية للأمر ونهاية له ؛ لٰكنه كان مقسماً بين ذٰلك وذٰلك بتقسيم القرآن الكريم له ، يقول الآلوسي رحمه الله : « ثم إنه لما كانت نعمه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مما تفوت الحصر ، ولا يحيط بها نطاق

---

(١) انظر تفسير البغوي (٢ / ٨٣) .

العد ، إلا أنها ترجع إجمالاً إلىٰ إيجاد وإبقاء في النشأة الأولىٰ ، وإيجاد وإبقاء في النشأة الآخرة ، وأُشِيرَ في الفاتحة ـ التي هي أم الكتاب ـ إلىٰ الجميع ، وفي الأنعام إلىٰ الإيجاد الأول ، وفي الكهف إلىٰ الإبقاء الأول ، وفي سبأ إلىٰ الإيجاد الثاني ، وفي فاطر إلىٰ الإبقاء الثاني ، ابتدأت هـٰذه الخمس بالتحميد . ومن اللطائف : أنه سبحانه وتعالىٰ جعل في كل ربع من كتابه الكريم المجيد سورة مفتتحة بالتحميد . . . »(١) . ومن كلام الآلوسي نلاحظ : أنه يرىٰ أن للحمد بداية ونهاية وتقسيماً بين ذٰلك ، ويرىٰ أن كل ذٰلك مجموع في أول الفاتحة عند قوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، أي : أن هـٰذه الآية شملت جوانب الحياة بأكملها ، والآخرة بدوامها .

والحمد ليس له بداية أو نهاية ، وإنما حدد فيما سبق بما يخص العباد ، لـٰكنه في ذات ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ليس له ذٰلك ، فربنا ـ عز وجل ـ قد أثنىٰ علىٰ نفسه من قديم الأزل وحمِدها قبل خلق السمـٰوات والأرض ، ولا يزال الحمد له أبد الآبدين .

ومما يدل علىٰ ذٰلك قوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فعبارة الحمد دالة علىٰ استغراق جميع المحامد لله ، جل وعلا ، فقد أثنىٰ علىٰ نفسه ، ولم يأمر أحداً مباشرة بالثناء عليه بالحمد ، ثم يكون الأمر في النهاية ليس له حد ، كذٰلك من هـٰذه الآية ، فهو محمود أبد الآبدين من نفسه ومن خلقه ، فعباده الذين رضي عنهم ورضوا عنه ، وأسكنهم جنته قد حمدوه علىٰ ذٰلك عند نهاية الأمر ، لـٰكنهم لا يزالون في حمد له كلما أكلوا ، أو شربوا ، أو تنعموا ، حمداً علىٰ الدوام .

ويكون الحمد بداية كل أمر ذي بال ونهايته ، يقول النبي ﷺ : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ ٱللهِ فَهُوَ أَقْطَع »(٢) ، أي : ناقص البركة . والحديث

---

(١) تفسير الآلوسي (٧ / ٧٩) .

(٢) صحيح ابن حبان ، باب/ ما جاء في الابتداء بحمد الله تعالى (١ / ١٧٤) ؛ والنسائي في =

يتقوىٰ بطرقه المتعددة ، ثم بالحال التي يجب أن تبدأ بها الخطبة ، يقول ابن حجر : (فالابتداء بالحمد ، واشتراط التشهد خاص بالخطبة ؛ بخلاف بقية الأمور المهمة ، فبعضها يبدأ فيه بالبسملة تامة)[1] .

ويتبين مما سبق : أن من أراد البركة في كلامه وفعله فليبدأ ذٰلك بالحمد ، ومن هٰذه الأمور علىٰ سبيل المثال : عند النوم ، ولبس الثوب ، والخطب ، والدروس ، والنكاح ، وغيرها من الأمور الكثيرة ؛ التي يستحب أن تبدأ بالحمد لتحصل البركة فيها من ٱلله .

والحمد مطلوب في نهاية كل أمر ذي بال كالأكل والشرب والاستيقاظ من النوم وختام الدعاء والدروس والخطب ، وغير ذٰلك مما يستحب الحمد في نهايته ؛ ليحصل للحامد القبول لما تكلم به أو فعله عندما يختمه بالحمد . فأي فعل أو قول بدايته ونهايته حمد كان فيه ـ بإذن ٱلله ـ البركة والقبول من ٱلله ، ثم كان له قبول عند الناس ، وتأثير فيهم .

ومما يدل علىٰ أن الحمد بداية كل أمر ذي بال ونهايته ، وأنه مما ينبغي للمسلم أن يبدأ به ويختم ؛ ما نجده من أمر الصلاة ، حيث إنها آكد الأعمال علىٰ كل مسلم ، فهي مفتتحة بالحمد في دعاء الاستفتاح وفي قراءة الفاتحة ومختتمة بالحمد في الصلاة الإبراهيمية ، وعند الأذكار بعد الصلاة ، وهٰذا لنعلم أن الحمد يعطي الأمر بركة وقبولاً من ٱلله .

= الكبرى باب/ ما يستحب من الكلام عند الحاجة (٦ / ١٢٧) ؛ وابن ماجه باب/ خطبة النكاح (١ / ٦١٠) ؛ والبيهقي في الكبرى باب/ ما يستدل به على وجوب التحميد في خطبة الجمعة (٣ / ٢٠٨) ؛ والدارقطني كتاب الصلاة (١ / ٢٢٩) ، جميعهم عن أبي هريرة .

(١) فتح الباري (٨ / ٦٥) .





الفصل الرابع

أعداد الحمد

والحمد كغيره من الأذكار الواردة في القرآن والسنة ، منها ما هو مطلق ليس له عد ولا حد ، وليس له زمان أو مكان ، فكلما زاد المؤمن منه زاد رفعة ومكانة عند ٱلله ، ومنها ما هو مقيد بعدد معين يستحب للمؤمن التقيد بهٰذه الأعداد تأسياً بالنبي ﷺ لينال الحسنيين الأجر من ٱلله ، والاقتداء بالنبي ﷺ ويكون يوم القيامة مرافقاً له وقريباً من مجلسه ، والحديث في هٰذا الفصل يتصل بالحمد المقيد بعدد ، وبالحمد المطلق ، وسوف يكون الحديث عن الأعداد المقيدة بصفة أوسع ، ومما جاء في ذٰلك :

أ ـ الحمد المقيد بعدد :

أولاً : ما جاء فيه الحث علىٰ قوله مرةً واحدةً :

وهو الأكثر في السنة المحمدية ، وسوف أذكر من ذٰلك علىٰ سبيل المثال : ما يكون بعد الأكل والشرب ، فينبغي للمسلم بعد أكله وشربه أن يحمد ٱلله تعالىٰ ، وكذٰلك قبل النوم وبعده ، ودليل ذٰلك قوله ﷺ : « الْحَمْدُ للهِ الذي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا ، فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ له ولا مُؤْوِيَ » (١) ، وكان يقول إذا أخذ مضجعه : « اللهم بِاسْمِكَ أَحْيَا وَبِاسْمِكَ

(١) أخرجه الإمام مسلم/ ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤ / ٢٠٨٥) ، برقم (٢٧١٥) .

أَمُوتُ »[١] . وإذا اسْتَيْقَظَ قال : « الْحَمْدُ للهِ الذي أَحْيَانَا بَعْدَ ما أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ »[٢] .

وكذلك بعد العطاس يستحب للمسلم أن يحمد ٱلله مرة واحدة ، وبعد لبس الثوب الجديد ، وبعد الخروج من الخلاء ، وغير ذلك كثير ، ولكنني ذكرت بعض الأمثلة ، ومن أراد المزيد فليرجع إلىٰ مواطن الحمد ، ففيها الكثير من ذلك .

ثانياً : ما جاء الحث علىٰ ترديده ثلاث مرات :

وقد جاء الحث عليه ، وبيان فضل من ردده ، ومن ذلك عند ركوب الدابة تردد أذكار ، ومن بينها الحمد الذي يقال ثلاث مرات في موطنين من مواطن الركوب ، ودليل ذلك : الحديث المروي عن علي بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ والذي ذكر في فصل سابق[٣] .

وفي الركوع والسجود يردد الحمد ثلاث مرات ، فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ : « إذا ركع قال سبحان ربي العظيم وبحمده (ثلاثاً) ، وإذا سجد قال سبحان ربي الأعلىٰ وبحمده (ثلاثاً) »[٤] .

وهي من الكلام الذي اصطفاه ٱلله لملائكته ، فقد سأل أبو ذر ـ رضي ٱلله عنه ـ النبي ﷺ قال : قلت : يا رَسُولَ ٱللهِ أي الْكَلَامِ أَحَبُّ إلىٰ ٱللهِ ، عز وجل؟

---

(١) المرجع السابق (٤ / ٢٠٨٣) ، برقم (٢٧١١) .

(٢) المرجع السابق (٤ / ٢٠٨٣) ، برقم (٢٧١١) .

(٣) انظر صفحة ٢٢٤ من هذه الرسالة .

(٤) رواه أبو داود ، باب : ما يقوله الرجل في ركوعه وسجوده (١ / ٢٣٠) ، والبيهقي في الكبرى باب ما يقال في الركوع (٢ / ٨٦) ؛ والدارقطني باب/ صفة ما يقول المصلي عند ركوعه وسجوده (١ / ٣٤١) ؛ وقال الألباني : صحيح الإسناد ، انظر صحيح أبي داود للألباني(١ / ١٦٨) .

قال : « ما اصْطَفَاهُ لِمَلائِكَتِهِ سُبْحَانَ ٱللهِ وَبِحَمْدِهِ ثَلَاثاً تَقُولُهَا »[(١)] .

ومن ترديد الحمد ثلاث مرات ، ما يقال أول النهار من أذكار ، ويستحب كذٰلك آخره ، فقد روىٰ الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللهُ عن ابن عَبَّاسٍ ـ رضي ٱلله عنهما ـ عن جُوَيْرِيَةَ ـ رضي ٱلله عنها ـ : أَنَّ النبي ﷺ خَرَجَ من عِنْدِهَا بُكْرَةً حين صلىٰ الصُّبْحَ وهي في مَسْجِدِهَا ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَىٰ ، وَهِيَ جَالِسَةٌ ، فقال : « ما زِلْتِ علىٰ الْحَالِ التي فَارَقْتُكِ عليها » قالت : نعم ، قال النبي ﷺ : « لقد قلت بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ لو وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ : سُبْحَانَ ٱللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ، وَرِضَا نَفْسِهِ ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ »[(٢)] .

ثالثاً : ما جاء في ترديد الحمد سبع مرات :

ومن الأعداد المقيدة في السنة ما جاء من ترديد للحمد ، وبالأصح (لسورة الحمد) سبع مرات ، وذٰلك ما رواه الترمذي والإمام أحمد عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : بَعَثَنَا رسول ٱللهِ ﷺ في سَرِيَّةٍ ، فَنَزَلْنَا بِقَوْمٍ فَسَأَلْنَاهُمْ الْقِرَىٰ فلم يَقْرُونَا ، فَلُدِغَ سَيِّدُهُمْ فَأَتَوْنَا فَقَالُوا : هل فِيكُمْ من يَرْقِي من الْعَقْرَبِ ؟ قلت : نعم ، أنا وَلَٰكِنْ لا أَرْقِيهِ حتىٰ تُعْطُونَا غَنَمًا ، قال : ، فَإِنَّا نُعْطِيكُمْ ثَلاثِينَ شَاةً ، قَالَ : فَقَرَأْتُ عليه (الْحَمْدُ للهِ) سَبْعَ مَرَّاتٍ فَبَرَأَ ، وَقَبَضْنَا الْغَنَمَ ، قال : فَعَرَضَ في أَنْفُسِنَا منها شَيْءٌ ، فَقُلْنَا : لا تَعْجَلُوا حتىٰ تَأْتُوا رَسُولَ ٱللهِ ﷺ قال : فلما قَدِمْنَا عليه ذَكَرْتُ له الذي صَنَعْتُ ، قال : « وما عَلِمْتَ أنها رُقْيَةٌ ؟! اقْبِضُوا الْغَنَمَ ، وَاضْرِبُوا لي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ »[(٣)] ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥ / ١٧٦) ، رواه مسلم دون أن يذكر العدد (٤ / ٢٠٩٣) ، برقم (٢٧٣١) .

(٢) رواه الإمام مسلم ، باب : التسبيح أول النهار وعند النوم (٤ / ٢٠٩٠) برقم (٢٧٢٦) .

(٣) أخرجه الترمذي عند باب : ما جاء في أخذ الأجر على التعويذ ، وقال : حديث حسن (٥ / ٥٠١) ؛ وابن حبان باب : الإباحة للمرء أخذ الأجرة على الرقية (١٣ / ٤٧٦) ؛ =

ورواه البخاري دون ذكر العدد [١] .

رابعاً : ما جاء في ترديد الحمد عشر مرات :

وذٰلك : ما رواه الحاكم والترمذي عن أنس بن مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : جاءت أم سليم إلىٰ النبي ﷺ فقالت : يا رسول ٱلله علمني شيئاً أدعو به في صلاتي ، فقال : « سبحي ٱلله عشراً ، واحمدي ٱلله عشراً ، وكبري ٱلله عشراً ، ثم سلي ٱلله ما شئت يقول : نعم نعم » [٢] .

يقول الغزالي رَحِمَهُ ٱللهُ : « ولا تظنن : أن هٰذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهٰذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب ، فـ(سبحان ٱلله) كلمة تدل علىٰ التقديس ، و(لا إله إلا ٱلله) كلمة تدل علىٰ التوحيد ، و(الحمد لله) كلمة تدل علىٰ النعمة من الواحد الحق ، فالحسنات بإزاء هٰذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين » . ويفهم من كلام الغزالي : أن المؤمن لابد أن يكون حاضر القلب عند ذكره لربه .

وكذٰلك ما رواه ابن حبان وابن ماجه والترمذي ـ واللفظ له ـ عن عبد ٱلله بن عمرو ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : قال رسول اللَّهِ ﷺ : « خَلَّتَانِ لا يُحْصِيهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إلا دخل الْجَنَّةَ ، ألا وَهُمَا يَسِيرٌ ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ ، يُسَبِّحُ ٱللهَ في دُبُرِ كل صَلاةٍ عَشْراً ، وَيَحْمَدُهُ عَشْراً ، وَيُكَبِّرُهُ عَشْراً ،

= والنسائي باب : الشرط في الرقية (٤ / ٣٦٤) ؛ وابن ماجه باب : أجر الرقية (٢ / ٧٢٩) ؛ والإمام أحمد بن حنبل (٣ / ١٠) ، وصححه الألباني ، صحيح سنن ابن ماجه (٢ / ٧) .

(١) أخرجه البخاري باب : ما يعطى من الرقية (٥ / ٢١٦٩) ، برقم (٥٤١٧) .

(٢) أخرجه الترمذي باب : ما جاء في صلاة التسبيح (٢ / ٣٤٧) ؛ والحاكم عند باب : التامين ، وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (١ / ٣٨٥) ، وقال الألباني : حسن الإسناد ، انظر صحيح سنن الترمذي له (١ / ١٤٩) . (٤) إحياء علوم الدين (بيان حد الشكر وحقيقته) (٤ / ٨٢) .

قال : فَأَنَا رأيت رَسُولَ ٱللهِ ﷺ يَعْقِدُهَا بيده ، قال : فَتِلْكَ خَمْسُونَ وَمِئَةٌ بِاللِّسَانِ ، وَأَلْفٌ وخمسمئة في الْمِيزَانِ ، وإذا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ تُسَبِّحُهُ وَتُكَبِّرُهُ وَتَحْمَدُهُ مِئَةً ، فَتِلْكَ مِئَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ في الْمِيزَانِ ، فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ في الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وخمسمئة سَيِّئَةٍ » قالوا : وكيف لا يحصيهما ، قال : « يَأْتِي أَحَدَكُمْ الشَّيْطَانُ وهو في صَلاتِهِ ، فيقول : اذكر كَذَا اذكر كَذَا حتىٰ ينتقل ، فَلَعَلَّهُ لا يَفْعَلُ ، وَيَأْتِيهِ وهو في مَضْجَعِهِ فلا يَزَالُ يُنَوِّمُهُ حتىٰ يَنَامَ »[1] .

وذكر ابن حبان : أنه يباح للمرء أن يزيد عند القيام لصلاة الليل من التسبيح والتحميد ، فقد روىٰ عَنْ عَاصِمِ بْنِ حُمَيْدٍ[2] أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قُلْتُ : مَا كَانَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يَسْتَفْتِحُ بِهِ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ ؟ قَالَتْ : لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ ، كَانَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يَسْتَفْتِحُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي يَبْدَأُ فَيُكَبِّرُ عَشْراً ، ثُمَّ يُسَبِّحُ عَشْراً ، وَيَحْمَدُ عَشْراً ، وَيُهَلِّلُ عَشْراً ، وَيَسْتَغْفِرُ عَشْراً ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي عَشْراً وَيَعُوذُ بِٱللهِ مِنْ ضِيقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَشْراً »[3] .

---

(١) أخرجه الترمذي باب : ما جاء في التسبيح أدبار الصلاة ، وقال : هذا حديث حسن صحيح (٥ / ٤٧٨) ، وابن حبان(٥ / ٣٥٤) ؛ وابن ماجه باب : ما يقال بعد التسليم (١ / ٢٩٩) ، وقال الألباني : صحيح الإسناد ، انظر صحيح سنن ابن ماجه (١ / ١٥٢) .

(٢) عاصم بن حميد السكوني ، من أهل اليمن ، يروى عن معاذ بن جبل وعوف بن مالك وعائشة عداده في أهل الشام ، روى عنه أهلها وأزهر بن سعيد ومالك بن دينار . الثقات (٥ / ٢٣٥) .

(٣) رواه ابن حبان باب : ذكر الإباحة للمرء أن يزيد فيما وصفنا من التكبير والتسبيح والتحميد عند افتتاح صلاة الليل (٦ / ٣٣٧) ، والنسائي في الكبرى عند ذكر ما يستفتح به القيام (١ / ٤١٥) ، والإمام أحمد من حديث السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ (٦ / ١٤٣) ؛ وأبو داود باب/ ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (١ / ٢٠٣) ؛ وقال الألباني : صحيح الإسناد ، صحيح سنن أبي داود (١ / ١٤٦) .

وروىٰ الترمذي عن أبي ذر - رضي ٱلله عنه - : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : « من قال في دُبُرِ صَلاةِ الْفَجْرِ وهو ثانٍ رِجْلَيْهِ قبل أَنْ يَتَكَلَّمَ لا إِلَـٰهَ إلا ٱلله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له ، له الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وهو علىٰ كل شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كتب له عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، وَمُحِيَتْ عنه عَشْرُ سَيِّئَاتٍ ، وَرُفِعَ له عَشْرُ دَرَجَاتٍ ، وكان يَوْمَهُ ذٰلك في حِرْزٍ من كل مَكْرُوهٍ ، وَحُرِسَ من الشَّيْطَانِ ، ولم يَنْبَغِ لِذَنْبٍ أَنْ يُدْرِكَهُ في ذٰلك الْيَوْمِ إلا الشِّرْكَ بِٱللهِ »[1] .

خامساً : ما جاء في ترديد الحمد ثلاثاً وثلاثين مرة :

وذٰلك ما يكون بعد الصلوات الخمس ، حيث يردد المسلم الحمد ثلاثاً وثلاثين مرة ، ويسبح ، ويكبر كذٰلك ، روىٰ البخاري عن أبي هريرة - رضي ٱلله عنه - قال : جاء الفقراء إلىٰ النبي ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا ، والنعيم المقيم ، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون ، قال : « ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من سبقكم ، ولم يدرككم أحد بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله : تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » فاختلفنا بيننا فقال بعضنا نسبح ثلاثاً وثلاثين ، ونحمد ثلاثاً وثلاثين ، ونكبر أربعاً وثلاثين ، فرجعت إليه فقال : تقول : سبحان ٱلله والحمد لله وٱلله أكبر ؛ حتىٰ يكون منهن كلهن ثلاثاً وثلاثين)[2] .

وكذٰلك عندما يأخذ الإنسان مضجعه يردد الحمد بهـٰذا العدد ، طلبت

---

(١) أخرجه الترمذي باب : ما جاء في فَضْلِ التَّسْبِيحِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ ، وقال : حديث حسن غريب صحيح (٥ / ٥١٥) ؛ والنسائي في الكبرى (٦ / ٣٧) ؛ وأبو داود باب : ما يقول إذا أصبح (٤ / ٣١٩) ؛ وابن ماجه باب : ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى (٢ / ١٢٧٢) ؛ وصححه الألباني ، صحيح سنن أبي داود (٣ / ٩٥٧) .

(٢) أخرجه البخاري باب : الذكر بعد الصلاة (١ / ٢٨٩) ، برقم (٨٠٧) .

السيدة فاطمة ـ رضي ٱلله عنها ـ من النبي ﷺ خادماً ، قالت : . . . فجاء النبي إلينا وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبت لأقوم ، فقال : « علىٰ مكانكما » ، فقعد بيننا حتىٰ وجدت برد قدميه علىٰ صدري ، وقال : « ألا أعلمكما خيراً مما سألتماني : إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعاً وثلاثين ، وتسبحان ثلاثاً وثلاثين ، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين ؛ فهو خير لكما من خادم »[1] .

ما جاء في ترديد الحمد مئة مرة ، ومن أعداد الحمد التي جاءت في السنة النبوية ، أن يُردد الحمد مئة مرة ، وقد يظن الظان : أن هـٰذا العدد كبير فيكسل عنه ، لـٰكنه في الحقيقة يسير لمن يسره ٱلله له ، ولو أمعن أحدنا النظر في ترديد الحمد أو غيره من الأذكار مئات المرات ؛ لوجد أنه لا يأخذ من وقته الشيء الكثير ، فنجد أن أحدنا يضيع الساعات الطوال في أمور قد تكون مباحة ، وقد تكون محرمة ، وهي وزر عليه يوم يلقىٰ ربه ـ عز وجل ـ لـٰكن من عرف حقيقة الذكر ، وعلم : أنه سيُحفظ به في الدنيا والآخرة لردده مئات بل آلاف المرات ، لـٰكن الشيطان حريص كل الحرص علىٰ أن يصدّ المسلم عن كل ما ينفعه عند ربه .

ومما ورد في ترديد الحمد مئة مرة ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، واللفظ لمسلم ، عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ : أن النبي ﷺ قال : « من قال : لا إِلَـٰهَ إلا ٱلله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له ، له الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وهو علىٰ كل شَيْءٍ قَدِيرٌ في يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ كانت له عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ له مِئَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عنه مِئَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ له حِرْزًا من الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذٰلك حتىٰ يُمْسِيَ ، ولم يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جاء بِهِ إلا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ من ذٰلك ، وَمَنْ قال : سُبْحَانَ ٱللهِ وَبِحَمْدِهِ في يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كانت مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري باب : مناقب علي بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ (٣ / ١٣٥٨) ، برقم (٣٥٠٢) .

(٢) رواه البخاري باب : فضل التهليل (٥ / ٢٣٥٢) ، برقم (٦٠٤٠) ؛ ومسلم باب : فضل=

وكذلك ما يقوله المسلم من أذكار في الصباح والمساء ، فقد روى مسلم والنسائي في الكبرى وأحمد عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول اللَّهِ ﷺ : « من قال حين يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي : سُبْحَانَ ٱللهِ وَبِحَمْدِهِ مِئَةَ مَرَّةٍ ؛ لم يَأْتِ أَحَدٌ يوم الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جاء بِهِ إلا أَحَدٌ قال مِثْلَ ما قال ، أو زَادَ عليه »[1] .

ومما يتصل بقول المسلم : (سبحان ٱلله العظيم وبحمده) مئة مرة ، رواية ابن حبان وأبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ (سُبْحَانَ ٱللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ) مِئَةَ مَرَّةٍ ، وَإِذَا أَمْسَىٰ كَذَلِكَ لَمْ يُوَافِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلائِقِ بِمِثْلِ مَا وَافَىٰ »[2] .

وروى الإمام أحمد عن أُمِّ هَانِئ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ ـ رضي ٱلله عنها ـ قالت : مَرَّ بي ذَاتَ يَوْمٍ رسول اللَّهِ ﷺ فقلت : يا رَسُولَ ٱللهِ ! إني قد كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ ـ أو كما قالت ـ فمرني بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ وأنا جَالِسَةٌ ! قال : سبحي ٱللهَ مِئَةَ تَسْبِيحَةٍ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِئَةَ رَقَبَةٍ تُعْتِقِينَهَا من وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، واحمدي اللَّهَ مِئَةَ تَحْمِيدَةٍ تَعْدِلُ لَكِ مِئَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ تَحْمِلِينَ عليها في سَبِيلِ ٱلله ، وكبري ٱللهَ مِئَةَ تَكْبِيرَةٍ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِئَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةٍ مُتَقَبَّلَةٍ ، وهللي ٱللهَ مِئَةَ تَهْلِيلَةٍ ـ قال ابن خَلَفٍ : أَحْسِبُهُ قال : تَمْلأُ ما بين السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَلاَ يُرْفَعُ

= التهليل والتسبيح والدعاء (٤ / ٢٠٧١) ، برقم (٢٦٩١) .

(١) رواه مسلم باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٤ / ٢٠٧١) ، برقم (٢٦٩٢) ، والنسائي باب : ما يقول إذا أمسى (٦ / ١٤٦) ، وأحمد ؛ مسند أبي هريرة (٢ / ٣٧٥) .

(٢) رواه ابن حبان عند ذكر الشيء الذي إذا قاله الإنسان حين يصبح لم يواف في القيامة أحد بمثل ما وافى (٣ / ١٤٢) ، وأبو داود باب : ما يقول إذا أصبح (٤ / ٣٢٤) ، والطبراني في الأوسط (٣ / ٣٤) ، وقال الألباني : صحيح الإسناد ، انظر صحيح سنن أبي داود للألباني (٣ / ٩٥٩) .

يَوْمَئِذٍ لأَحَدٍ عَمَلٌ إلا أن يأتي بِمِثْلِ ما أَتَيْتِ بِهِ) [(١)] .

سادساً : ما جاء في مضاعفة ترديد الحمد :

روىٰ النسائي عن ابن عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : « من قال : سبحان ٱلله وبحمده كتب ٱلله له بها عشراً ، ومن قالها عشراً كتب ٱلله له بها مئة ، ومن قالها مئة كتب ٱلله له بها ألفاً ، ومن زاد زاد ٱلله له ، ومن استغفر غفر ٱلله له »[(٢)] .

وروىٰ الإمام أحمد عن رجل من أهل صنعاء قال : كنا بِمَكَّةَ ، فَجَلَسْنَا إلىٰ عَطَاءٍ الخراساني إلىٰ جَنْبِ جِدَارِ الْمَسْجِدِ ، فلم نَسْأَلْهُ ، ولم يُحَدِّثْنَا ، قال : جَلَسْنَا إلىٰ ابن عُمَرَ مِثْلَ مَجْلِسِكُمْ هـٰذا فلم نَسْأَلْهُ ولم يُحَدِّثْنَا ، قال : فقال : مالكم لاَ تَتَكَلَّمُونَ وَلاَ تَذْكُرُونَ اللَّهَ ؟ قُولُوا : (ٱللهُ أَكْبَرُ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، وَسُبْحَانَ ٱللهِ وَبِحَمْدِهِ) بِوَاحِدَةٍ عَشْراً وَبِعَشْرٍ مِئَةً ، من زَادَ زَادَهُ ٱلله ، وَمَنْ سَكَتَ غَفَرَ له ، ألا أُخْبِرُكُمْ بِخَمْسٍ سَمِعْتُهُنَّ من رسول ٱللهِ ﷺ ؟ قَالُوا : بَلَىٰ ، قال : (من حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ من حُدُودِ ٱللهِ فَهُوَ مُضَادُّ ٱللهِ في أَمْرِهِ ، وَمَنْ أَعَانَ علىٰ خُصُومَةٍ بِغَيْرِ حَقٍّ فَهُوَ مُسْتَظِلٌّ في سَخَطِ ٱللهِ حتىٰ يَتْرُكَ ، وَمَنْ قَفَا مُؤْمِناً أو مُؤْمِنَةً حَبَسَهُ ٱلله في رَدْغَةِ الْخَبَالِ ـ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ ـ ، وَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ أُخِذَ لِصَاحِبِهِ من حَسَنَاتِهِ لاَ دِينَارَ ثَمَّ وَلاَ دِرْهَمَ ، وَرَكْعَتَا الْفَجْرِ حَافِظُوا عَلَيْهِمَا فَإِنَّهُمَا مِنَ الْفَضَائِلِ) [(٣)] .

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى باب : ثواب من سبح ٱلله مئة تسبيحة وتحميدة وتكبيرة (٦ / ٢١١) ، وابن ماجه باب : فضل التسبح (٢ / ١٢٥٢) ، قال الألباني : حسن الإسناد ، انظر الصحيحة(٣ / ٣٠٢) .

(٢) رواه النسائي في الكبرى ذكر حديث كعب بن عجرة في المعقبات (٦ / ٤٧) ، وعن الزيادة في الحديث ، قال الألباني : إسناده صحيح ، انظر الصحيحة (١ / ٧٩٨) .

(٣) رواه الإمام أحمد (٢ / ٨٢) ؛ والبيهقي في الكبرى ، باب : ما جاء في الشفاعة بالحدود (٨ / ٣٣٢) ، وقال الألباني : صحيح الإسناد ، السلسلة الصحيحة/ ٧٩٨ برقم (٤٣٧) .

ب - ما ليس له عد ولا حصر :

وقد جاء ذكرٌ للحمد بما ليس له عد ولا حصر ، ولا يعلم عدد ذٰلك إلا ٱلله - تبارك وتعالىٰ - وذٰلك ما جاء في رواية الإمام مسلم عن ابن عَبَّاسٍ - رضي ٱلله عنهما - عن جُوَيْرِيَةَ - رضي ٱلله عنها - أَنَّ النبي ﷺ خَرَجَ من عِنْدِهَا بُكْرَةً حين صلىٰ الصُّبْحَ ، وهي في مَسْجِدِهَا ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَىٰ وَهِيَ جَالِسَةٌ فقال : ما زِلْتِ علىٰ الْحَالِ التي فَارَقْتُكِ عليها ؟ قالت : نعم ، قال النبي ﷺ : « لقد قلتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ لو وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ : سُبْحَانَ ٱللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ »[(١)] ، وهٰذا الحديث وإن كان قد سبق ذكره عند ترديد الحمد ثلاث مرات ، وذٰلك في ترديد لفظة الحمد ، لٰكنه في هٰذا الموضع يكون في العدد الذي لا حصر له ، أي : أحمد ربي بعدد خلقه ، ولا يعلم عدد الخلق إلا الخالق ، عز وجل ، وكذٰلك لا يعلم أحد زنة عرش الرحمٰن ، كما أنه لا حد ولا حصر لمداد كلماته ، تبارك وتعالىٰ .

وروىٰ الحاكم عن أبي أمامة - رضي ٱلله عنه - عن رسول ٱلله ﷺ قال : « ما من عبد قال : الحمد لله عدد ما خلق ٱلله ، والحمد لله ملء ما خلق ٱلله ، والحمد لله عدد ما في السمٰوات والأرض ، والحمد لله عدد ما أحصىٰ كتابه ، والحمد لله عدد كل شيء ، وسبحان ٱلله مثلهن » قال : فأعظم رسول ٱلله ﷺ ذٰلك[(٢)] .

---

(١) رواه الإمام مسلم عند باب : التسبيح أول النهار وعند النوم (٤ / ٢٠٩٠) ، برقم (٢٧٢٦) .

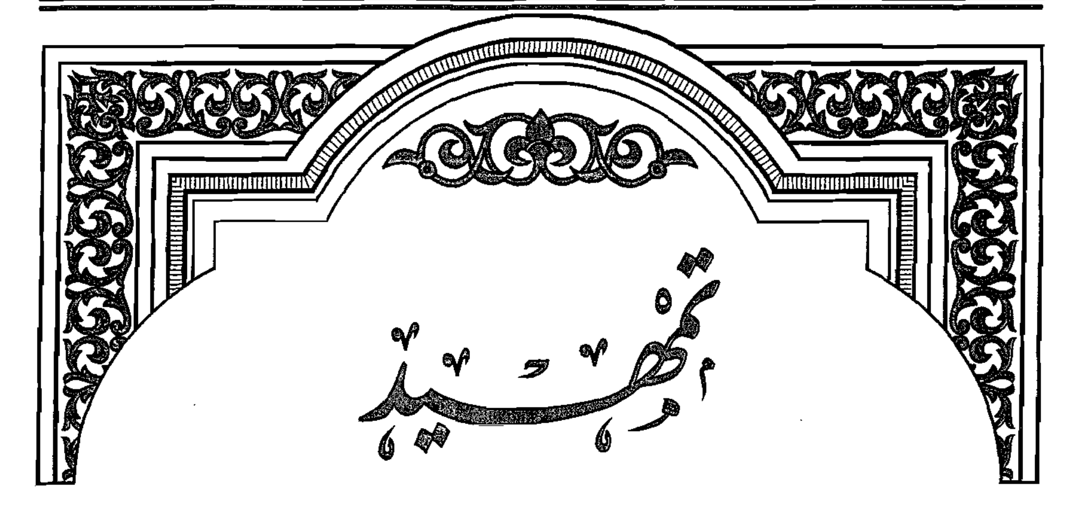
(٢) أخرجه الحاكم عند كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (١ / ٦٩٤) ؛ والطبراني في الكبير (٨ / ٢٣٨) ؛ والإمام أحمد بن حنبل (٥ / ٢٤٩) ؛ قال الألباني : صحيح وله عدة طرق ، انظر السلسلة الصحيحة (٦ / ١٥٧) .



الباب السادس

آثار الحمد





وسيكون الحديث في هٰذا الباب عن الآثار التي تعود علىٰ الشخص الحامد ، وما يترتب علىٰ ترك الحمد من نتائج وخيمة ؛ لذٰلك جاءت فصول هٰذا الباب علىٰ النحو التالي :

الفصل الأول : آثار الحمد المترتبة علىٰ القيام به :

ومن خلال البحث وجدت أن الآثار يمكن تقسيمها إلىٰ ما يلي :

أولاً : آثار دنيوية ، وهي ما يجدها المسلم المحافظ علىٰ حمد ربه في يومه وليلته من الخيرات والبركات .

ثانياً : آثار أخروية ، وهٰذه قد جاء ذكرها في النصوص الشرعية من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية .

ثالثاً : بعض الآثار المستنبطة من غير النصوص ، وهٰذه الآثار وإن كان لها شاهد من نص قرآني أو حديث ، لٰكنها ليست مستنبطة من ذٰلك النص ، وإنما هو شاهد لها ، فهي آثار يلمسها المسلم من واقعه ومن مداومته لحمد ربه خاصة في بعض الأوقات وبعض المواطن ، أو ما يراها صاحب البصيرة علىٰ بعض الحامدين لربهم ، وذٰلك من واقع حالهم .

الفصل الثاني : الآثار المترتبة علىٰ إهمال الحمد :

والحمد كغيره من الأذكار تكون له آثار تعود بالخير علىٰ القائم به ، وفي

المقابل فإن للحمد آثاراً مترتبة علىٰ تركه تنعكس علىٰ حال المهمل ، والتارك له .

والملاحظ : أن معظم هٰذه الآثار هي عكس ما يجده المداوم علىٰ الحمد ، بمعنىٰ أن من قام بالحمد فله كذا من الخير ، ومن لم يقم به فسيحرم ذٰلك الخير .

الفصل الثالث : العلاقة المترتبة بين الحامد والمحمود :

وفي هٰذا الفصل سيكون الحديث حول العلاقة بين الحامد والمحمود ، حيث يلاحظ من خلال التزام الحامد بالحمد للمحمود : أن ثمة علاقة وطيدة بينهما ، لٰكنها لابد أن تكون شرعيتها حسب ذٰلك المحمود ، فهي تنقسم إلىٰ قسمين هما :

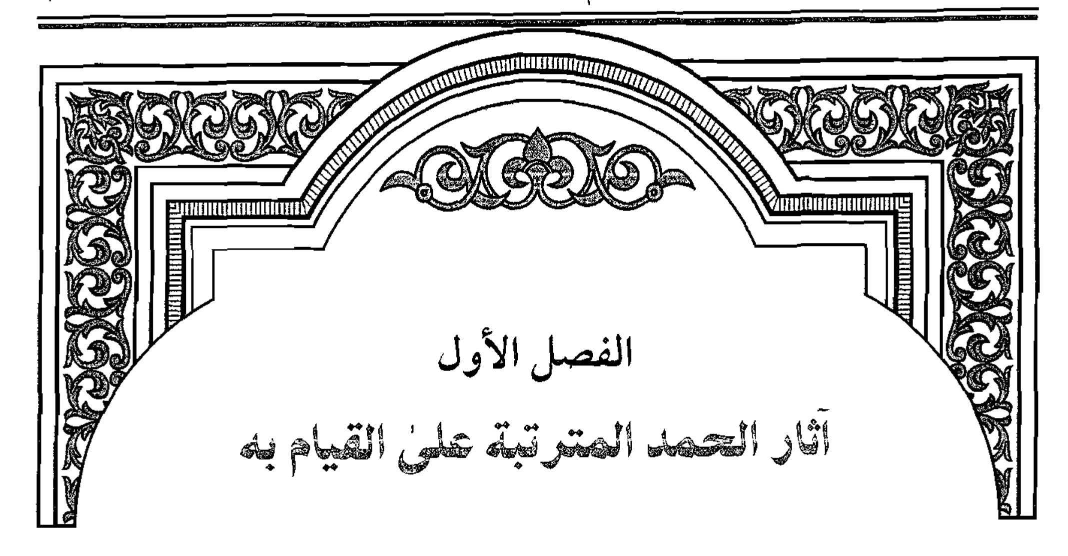
أ ـ العلاقة بين العبد وربه :

وهٰذه العلاقة تكون حسب ما يرتضيه الرب ـ عز وجل ـ من الحمد الذي ليس له حد ولا حصر ، لذاته ولأفعاله ، ويجب أن يلاحظ أن ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ ليس بحاجة لحمد أحد أو ثنائه ، وإنما المحتاج هو العبد ليرفع من قدره عند ربه .

ب ـ العلاقة بين العباد :

والأمر في هٰذا يختلف عن سابقه ، وذٰلك : أن حمد العباد لا يكون لذات الشخص ، وإنما لفعله كي لا يقع الحامد في المحذور ، وليكون هٰذا الحمد من أجل حاجة المحمود له ؛ ليشد من أزره ويرفع معنويته لأداء عمل ما ، أو الاستمرار فيه بجد ونشاط ، وليحذر المحمود من طلب الحمد لنفسه دون أن يكون أهلاً لذٰلك الحمد أو الثناء ؛ لأن عاقبته ستكون وخيمة !





الفصل الأول
آثار الحمد المترتبة علىٰ القيام به

وللحمد آثار وفضائل من ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ، يلمسها العبد المؤمن المداوم عليه في الدنيا ، ويلقىٰ بها ٱلله راضياً عنه يوم القيامة ، وقد سبق الحديث عما جاء من حمد في القرآن الكريم ، لـٰكنني هنا سأركز الحديث عن الآثار والفضائل الواردة في السنة النبوية . ومن هـٰذه الآثار :

أ ـ الآثار التي تكون في الدنيا :

الأول : أنه يتوصل به إلىٰ حمد ٱلله بمحامد الخلق جميعاً ، روىٰ الحاكم عن أنس بن مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « من قال إذا أوىٰ إلىٰ فراشه : الحمد لله الذي كفاني وآواني ، الحمد لله الذي أطعمني وسقاني ، الحمد لله الذي منَّ عليَّ فأفضل ، اللهم إني أسألك بعزتك أن تنجيني من النار ، فقد حمد ٱلله بجميع محامد الخلق كلهم »[1] ، وأي فضل وخير أعم من هـٰذا الخير ؟ ! فما أعظمك ربنا تكلفنا اليسير لننال به الأجر

---

(١) أخرجه الحاكم عند كتاب : الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد (١ / ٧٣٠) ؛ وابن حبان ، باب : ذكر ما يستحب للمرء أن يحمد الله جل وعز على ما كفاه وآواه عند إرادته النوم (١٢ / ٣٤٩) ؛ وأبو داود باب : ما يقال عند النوم (٤ / ٣١٣) ؛ وصححه الألباني دون الزيادة الأخيرة ، انظر صحيح سنن أبي داود للألباني (٣ / ٩٥٤) .

الكبير ! لـٰكن الموفق هو من وفقه ٱلله ، ونعوذ بٱلله من أن نخيب ، أو أن نفتر عن ذكر ربنا !

الثاني : أنه يوصل المؤمن لشكر ربه علىٰ أعظم نعمة ، وهي نعمة الإسلام ، روىٰ المقدسي عن أنس بن مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : سمع النبي ﷺ رجلاً يقول : (الحمد لله بالإسلام) فقال رسول ٱلله ﷺ : « إنك لتحمد ٱلله علىٰ نعمة عظيمة »[(١)] . صدق رسول ٱلله ﷺ ، وأي نعمة أعظم من نعمة الإسلام ؟ ! فهو النور لمن اهتدىٰ به ، وهو الصراط الموصل إلىٰ جنات الخلود .

وكان عبد الملك بن مروان يقول : (ما قال عبد كلمة أحب إليه ، وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول : الحمد لله الذي أنعم علينا ، وهدانا للإسلام) [(٢)] .

الثالث : أن للحمد أثراً في الاستعانة علىٰ فعل الخير ودفع الشر ، فعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي ٱلله عنه ـ عَنِ النبي ﷺ: أنه قال : « عَجِبْتُ لِلْمُسْلِمِ إذا أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ ٱللهَ وَشَكَرَ ، وإذا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ احْتَسَبَ وَصَبَرَ ، الْمُسْلِمُ يُؤْجَرُ في كل شيء حتىٰ في اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إلىٰ فيه »[(٣)] . وله شاهد من حديث

---

(١) أخرجه المقدسي في كتابه (الأحاديث المختارة) ، وقال إسناده صحيح (٥ / ٢٤٧) .

(٢) كتاب الشكر ، ابن أبي الدنيا (١ / ٨) .

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى عندما يقول إذا أصابته مصيبة (٦ / ٢٦٣) ، والطبراني في الأوسط (٦ / ١٧٩) ، والبيهقي في الكبرى باب : ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر على جميع ما يصيبه من الأمراض والأوجاع والأحزان لما فيها من الكفارات والدرجات ، وفيه زيادة : (إلى في امرأته) (٣ / ٣٧٥) ، وأحمد في مسند سعد بن أبي وقاص (١ / ١٧٣) ، والبزار ، وقال : ولا نعلمه يروى عن سعد بإسناد صحيح إلا من هذا الوجه (٤ / ٢٨) ، ورواه الإمام مسلم بغير لفظة « الحمد » باب : المؤمن أمره كله خير (٤ / ٢٢٩٥) ، برقم (٢٩٩٩) .

الإمام مسلم قال : قال رسول ٱللهِ ﷺ : « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ ، إن أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فكَانَ خَيْراً له ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فكَانَ خَيْراً له »(١) .

ورویٰ الإمام أحمد عن أبي هُرَيْرَةَ قال : سمعت رَسُولَ ٱللهِ ﷺ يقول : « إن ٱللهَ عز وجل يقول : إن عبدي الْمُؤْمِنَ عندي بِمَنْزِلَةِ كل خَيْرٍ ، يحمدني وأنا أَنْزِعُ نَفْسَهُ من بَيْنِ جَنْبَيْهِ »(٢) .

وشاهد ذٰلك ما رواه ابن حبان والنسائي عن ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : لَمَّا حُضِرَتْ بِنْتٌ لِرَسُولِ ٱلله ﷺ صَغِيرَةٌ ، فَأَخَذَهَا رسول ٱللهِ ﷺ فَضَمَّهَا إِلىٰ صَدْرِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عليها فَقَضَتْ ، وَهِيَ بين يَدَيْ رسول ٱللهِ ﷺ فَبَكَتْ أُمُّ أَيْمَنَ ، فقال لها رسول اللّهِ ﷺ : « يا أُمَّ أَيْمَنَ أَتَبْكِينَ وَرَسُولُ ٱللهِ ﷺ عِنْدَكِ » فقالت : مالي لا أَبْكِي وَرَسُولُ ٱللهِ ﷺ يَبْكِي ؟ فقال رسول ٱللهِ ﷺ : « إني لَسْتُ أَبْكِي ، وَلَـٰكِنَّهَا رَحْمَةٌ » . ثُمَّ قال رسول ٱللهِ ﷺ : « الْمُؤْمِنُ بِخَيْرٍ علىٰ كل حَالٍ ، تُنْزَعُ نَفْسُهُ من بَيْنِ جَنْبَيْهِ وهو يَحْمَدُ ٱللهَ عز وجل »(٣) .

ومن هـٰذه الأحاديث نلمس فضل ٱلله ورحمته لعباده المؤمنين ، وليس ذٰلك لغيرهم .

يقول ابن تيمية : (وإذا كان قضاء ٱلله للمؤمن خيراً أم شراً ، فكلاهما من نعم ٱلله عليه ، وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلىٰ الصبر ، أما نعمة الضراء فاحتياجها إلىٰ الصبر ظاهر ، وأما نعمة السراء فتحتاج إلىٰ الصبر علىٰ الطاعة فيها ، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء ، كما قال بعض السلف : ابتلينا

(١) أخرجه مسلم بَاب/ الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ (٤ / ٢٢٩٥) ، برقم (٢٩٩٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسند أبي هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ (٢ / ٣٤١) ، وقال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، انظر مجمع الزوائد (١٠ / ٩٦) .

(٣) أخرجه ابن حبان ، ذكر البيان بأن تواتر البلايا على المسلم قد لا تبقي عليه سيئة يناقش عليها في العقبىٰ (٧ / ١٧٦) ؛ والنسائي في المجتبى ، البكاء على الميت (٤ / ١٢) .

بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر) [(١)] .

الرابع : أن للحمد أثراً في منع بعض الأوجاع . أخرج البخاري في الأدب المفرد والحاكم عن علي بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : (من قال عند عطسة سمعها : الحمد لله رب العالمين علىٰ كل حال ما كان ؛ لم يجد وجع الضرس ولا الأذن أبداً) [(٢)] .

الخامس : ومن آثار الحمد علىٰ سيدنا نوح عليه السلام : أنه جعله يسمىٰ ﴿ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾ ، روىٰ البخاري في « التاريخ الكبير » والطبراني في « الدعاء » عن سعد بن مسعود الثقفي ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : (كان نوح عليه السلام إذا لبس ثوباً أو أكل طعاماً حمد ٱلله فسمي عبداً شكوراً) [(٣)] . وإذا كان هـٰذا الفعل من نبي قد اصطفاه ربه ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فداوم علىٰ حمد ربه ، فحري بنا أن نقتفي أثره ، ونلتزم حمد ربنا في كل أمور حياتنا .

السادس : أن الحمد يكون عوناً للمؤمن أن لا يقع في البلاء ، روىٰ ابن ماجه والترمذي ـ واللفظ له ـ عن عُمَرَ بن الخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : « من رَأَىٰ صَاحِبَ بَلاءٍ فقال : الْحَمْدُ للهِ الذي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاكَ بِهِ ، وَفَضَّلَنِي علىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً إلا عُوفِيَ من ذٰلك الْبَلاءِ كَائِناً ما كان ما عَاشَ » [(٤)] ، يقول النووي : « ينبغي أن يقول هـٰذا الذكر سراً بحيث

---

(١) انظر كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير (١٤ / ٣٠٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد باب : من سمع العطسة يقول : الحمد لله (١ / ٣١٩) ، يقول ابن حجر : وهذا موقوف ورجاله ثقات ، انظر فتح الباري (١٠ / ٦٠٠) ، والحاكم في المستدرك ، كتاب الرقى والتمائم (٤ / ٤٥٩) .

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٥٠) ، والطبراني في « الدعاء » باب : الثياب (١ / ١٤٣) .

(٤) أخرجه الترمذي باب : ما يقول إذا رأى مبتلى ، وقال : حسن غريب (٥ / ٤٩٣) ، وابن ماجه باب : ما يدعو به الرجل إذا رأى أهل البلاء (٢ / ١٢٨١) ، وقال الهيثمي : إسناده=

يسمع نفسه ، ولا يسمعه المبتلىٰ لئلا يتألم قلبه بذٰلك ، إلا أن تكون بليته معصية ، فلا بأس أن يسمعه ذٰلك إن لم يخف من ذٰلك مفسدة »[١] .

وجاء في كتاب (المدخل) : « يحتاج من رأىٰ مبتلىٰ إلىٰ ثلاثة أشياء :

أحدها : أن يمتثل السنة بالدعاء الوارد في ذٰلك ـ يعني : الحديث السابق ـ ولا شك أن الابتلاء في الدين أعظم من الابتلاء في البدن ، سيما إذا انضاف إلىٰ ذٰلك تعلق حق الغير به ، فهو أعظم في الابتلاء »[٢] .

الثاني : أنه يتعين عليه الشكر لله تعالىٰ علىٰ سلامته مما قيل فيه ، أي : أن يقال فيه هـٰذا الدعاء .

الثالث : أنه يتعين عليه الشكر في أن ٱلله تعالىٰ سلمه مما وقع أخوه فيه .

السابع : أن الحمد أفضل من ذكر الليل مع النهار ، روىٰ الحاكم وأحمد والطبراني ـ واللفظ له ـ عن أبي أُمَامَةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : رآني النبي ﷺ وأنا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ ، فقال : « ما تَقُولُ يا أَبَا أُمَامَةَ ؟ » قلت : أَذْكُرُ ٱللهَ ، قال : «أفلا أَدُلُّكَ علىٰ ما هو أَكْثَرُ من ذِكْرِكَ ٱللهَ اللَّيْلَ مع النَّهَارِ ؟ ! تَقُولُ : الْحَمْدُ للهِ عَدَدَ ما خَلَقَ وَالْحَمْدُ للهِ مِلْءَ ما خَلَقَ وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ ما في السَّمَـٰوَاتِ وما في الأَرْضِ ، وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ ما أَحْصَىٰ كِتَابُهُ ، وَالْحَمْدُ للهِ مِلْءَ ما أَحْصَىٰ كِتَابُهُ ، وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ كل شَيْءٍ ، وَالْحَمْدُ للهِ مِلْءَ كل شَيْءٍ ، وَتُسَبِّحُ ٱللهَ مِثْلَهُنَّ ، ثُمَّ قال : تُعَلِّمُهُنَّ عَقِبَكَ من بَعْدَكَ »[٣] .

= حسن ، (١٠ / ١٣٨) . وكذلك حسنه الألباني ، انظر صحيح ابن ماجه للألباني (٢ / ٣٣٧) .

(١) كتاب الأذكار للنووي (١ / ٢٣٩) .

(٢) كتاب المدخل لمحمد بن محمد العبدري الشهير بابن الحاج (٣ / ١٧٤) .

(٣) أخرجه الحاكم في كتاب الدعاء والتكبير (١ / ٦٩٤) ، وأحمد (٥ / ٢٤٩) ، والطبراني في الكبير (٨ / ٢٣٨) ، وقال الهيثمي : إسناده حسن (١٠ / ٩٣) . وصححه الألباني ، انظر الصحيحة(٦ / ١٥٧) .

الثامن : من آثار الحمد العظيمة : أن لفظة الحمد للمؤمن خير له من النعمة التي أُعطيها . روىٰ ابن ماجه عن أنس ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « ما أَنْعَمَ ٱلله علىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً ، فقال : الْحَمْدُ للهِ إلا كان الذي أَعْطَاهُ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ »[(١)] .

ومعناه : من أعطي نعمة ثم أعطي علىٰ إثرها هـٰذه الكلمة حتىٰ نطق بها ؛ لكانت هـٰذه الكلمة أفضل من النعمة التي أخذها ، لأن الدنيا فانية ، والكلمة باقية ، قال تعالىٰ : ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٦] .

الآثار التي تكون في الآخرة :

وكما أن للحمد آثاراً في الدنيا ، فكذٰلك له يوم القيامة آثار أعظم من ذٰلك ، وهي :

الأول : أن أول من يدعىٰ إلىٰ الجنة هم من أكثر الحمد علىٰ كل حال ، روىٰ الطبراني عَن ابن عَبَّاسٍ ـ رضي ٱلله عنهما ـ عَنِ النبي ﷺ قال : « أَوَّلُ من يُدْعَىٰ إلىٰ الْجَنَّةِ الْحَمَّادُونَ ؛ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ ٱللهَ علىٰ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ »[(٢)] .

والذي يلزم من ذٰلك هو أن تحمد ٱلله وأنت راضٍ بقضائه ، خيراً كان أم شراً ، نقل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللهُ عن أحمد بن أبي الحواري[(٣)] قال : « ذاكرت

---

(١) أخرجه الحاكم كتاب الدعاء والتكبير والتهليل (١ / ٦٩٥) ؛ وابن ماجه باب : فضل الحامدين (٢ / ١٢٥٠) ؛ والطبراني في الأوسط (٢ / ٩٣) ؛ وحسنه الألباني ، انظر صحيح سنن ابن ماجه للألباني (٢ / ٣١٩) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢ / ١٩) ، وقال الهيثمي : وفيه قيس بن الربيع ، وثقه شعبة والثوري وغيرهما ، وضعفه يحيى القطان وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح ؛ ورواه البزار بنحوه ، وإسناده حسن ؛ مجمع الزوائد (١٠ / ٩٥) .

(٣) أحمد بن أبي الحواري : عبد الله بن ميمون أبو الحسن ، زاهد دمشق ، روى عن ابن عيينة وأبي معاوية ، وعنه أبو داود وابن ماجه والباغندي ومحمد بن خريم ، مات ٢٤٦ هـ ، =

أبا سليمان في الخبر المروي (أول من يدعىٰ إلىٰ الجنة الحمادون) فقال : ويحك ! ليس هو أن تحمده علىٰ المصيبة وقلبك يتعصىٰ عليك ، إذا كنت كذلك فارجع إلىٰ الصابرين ، إنما الحمد أن تحمده وقلبك مُسلِّم راض »[١] .

الثاني : أن الحمد سبب في زيادة الموازين يوم القيامة ، علاوة علىٰ حب ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ له ، أخرج الشيخان عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ علىٰ اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ في الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إلىٰ الرحمـٰن : سُبْحَانَ ٱللهِ الْعَظِيمِ ، سُبْحَانَ ٱللهِ وَبِحَمْدِهِ »[٢] .

وأخرج مسلم عن أبي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسـول ٱللهِ ﷺ : « الطُّهُـورُ شَطْـرُ الإِيمَـانِ ، وَالْحَمْـدُ للهِ تَمْـلأُ الْمِيـزَانَ ، وَسُبْحَانَ ٱللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلآَنِ أو تَمْلأُ ما بين السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَالصَّلاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لك أو عَلَيْكَ ، كُلُّ الناس يَغْدُو ، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أو مُوبِقُهَا »[٣] .

الثالث : أنه سبب لبناء بيت للعبد المؤمن في الجنة ، روىٰ الترمذي وابن حبان عن أبي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : « إذا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قال ٱلله لِمَلائِكَتِهِ : قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : نعم ، فيقول : قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ ؟ فَيَقُولُونَ : نعم ، فيقول : مَاذَا قال عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ ! فيقول ٱلله : ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتاً في الْجَنَّةِ ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ »[٤] ، ويا لله ما أعظم هـٰذه المصيبة ! وما أشدها علىٰ النفس !

= الكاشف (١ / ١٩٧) .

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٢٠٩) .

(٢) أخرجه البخاري باب : فضل التسبيح (٥ / ٢٣٥٢) ، برقم (٦٠٤٣) ؛ ومسلم باب : فضل التسبيح والتهليل والدعاء (٤ / ٢٠٧٢) ، برقم (٢٦٩٤) .

(٣) أخرجه مسلم كتاب : الطهارة ، باب فضل الوضوء (١/ ٢٠٣) ، برقم (٢٢٣) .

(٤) أخرجه الترمذي باب : فضل المصيبة إذا احتسب ، وقال : هذا حديث حسن غريب =

لولا رحمة ٱلله بالعبد ، فما فقد الولد بالأمر الهين علىٰ النفس ، وما كان هـٰذا الحوار الذي دار بين ربنا ـ عز وجل ـ وبين ملائكته ، ثم ما أعده ٱلله لهـٰذا العبد ؛ إلا ليدلنا علىٰ أن الأمر جلل ، وأنه قليل من يثبت في مثل هـٰذه المواقف العصيبة ؛ لذٰلك كان ثمن هـٰذا الثبات المجمَّلِ بالحمد والاسترجاع هو بيت في دار الكرامة والخلود . اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ، وجملنا بالصبر علىٰ لأوائها ، ورضِّ قلوبنا بحمدك ؛ لكي نلقاك وأنت راض عنا ، غير غضبان ، يا أرحم الراحمين !

الرابع : أنه يجعل العباد يوم القيامة من أفضل عباد ٱلله ، روىٰ أحمد عن مُطَرِّفٍ[١] ، قال : قال لي عِمْرَانُ بن حُصَين ـ رضي ٱلله عنه ـ : (إني لأُحَدِّثُكَ بِالْحَدِيثِ الْيَوْمَ لِيَنْفَعَكَ ٱللهُ ـ عز وجل ـ بِهِ بَعْدَ الْيَوْمِ ، اعلم : أن خَيْرَ عِبَادِ ٱللهِ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ يوم الْقِيَامَةِ الْحَمَّادُونَ ، وَاعْلَمْ أنه لَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ من أَهْلِ الإِسْلَامِ يُقَاتِلُونَ علىٰ الْحَقِّ ، ظَاهِرِينَ علىٰ من ناوأهم حتىٰ يُقَاتِلُوا الدَّجَّالَ)[٢] . وهـٰذا الأثر قد سبق له شواهد كثيرة ، ومنها : (أن الحمادون أول من يدعىٰ إلىٰ الجنة)[٣] ، وغيره كثير .

الخامس : وبالحمد ينال النبي ﷺ لواء الحمد يوم القيامة ، روىٰ

= (٣/ ٣٤١) ، وابن حبان عند / ذكر بناء الله جل وعلا بيت الحمد في الجنة لمن استرجع وحمد ٱلله عند فقد ولده (٧ / ٢١٠) ، وقال الألباني : حسن الإسناد ، انظر الصحيحة (٣ / ٣٩٨) .

(١) مطرف بن عبد ٱلله بن الشخير ، أبو عبد ٱلله العامري البصري ، قال يحيى القطان : مات مطرف بعد الطاعون الجارف ، وكان الطاعون الجارف سنة سبع وثمانين . انظر التاريخ الكبير (٧ / ٣٩٦) .

(٢) رواه أحمد موقوفاً علىٰ عمران بن حصين (٤ / ٤٣٤) ، وقال الهيثمي : وهو شبه المرفوع ، ورجاله رجال الصحيح (١٠ / ٩٥) ، ورواه الطبراني مرفوعاً إلى النبي ﷺ (١٨ / ١٢٤) ، وصححه الألباني ، انظر السلسلة الصحيحة (٤ / ١١٢) .

(٣) سبق تخريجه ص : ١٩٦ .

الترمذي عن أَنَسِ بن مَالِكٍ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱللهِ ﷺ : « أنا أَوَّلُ الناس خُرُوجاً إذا بُعِثُوا ، وأنا خَطِيبُهُمْ إذا وَفَدُوا ، وأنا مُبَشِّرُهُمْ إذا أَيِسُوا ، لِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي ، وأنا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ علىٰ رَبِّي ولا فَخْرَ ! »[1] ، وروىٰ أيضاً عن أبي سَعِيدٍ الخدري ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱللهِ ﷺ : « أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم الْقِيَامَةِ ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ ولا فَخْرَ ، وما من نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إلا تَحْتَ لِوَائِي ، وأنا أَوَّلُ من تَنْشَقُّ عنه الأَرْضُ ولا فَخْرَ ! »[2] .

فلمّا كان ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ أحمدَ الخلائق لله ، وأكملَهم قياماً بحمده أُعطي لواءَ الحمد ، ليأوي إلىٰ لوائه الحامدون لله من الأولين والآخرين ، وإلىٰ هٰذا أشار ﷺ عندما قال في الحديث : « وما من نبيٍّ يومئذ آدم فمَن سواه إلّا تحت لوائي » ، وهو لواءٌ حقيقيٌّ يحمله النبيُّ ﷺ يوم القيامة بيده ، وينضمُّ إليه جميعُ الحمّادين من الأولين والآخرين ، وأقربُ الخلق إلىٰ لوائه أكثرُهم حمداً لله ، وذِكراً له ، وقياماً بأمره ، وأمّتُه ﷺ هي خيرُ الأمم ، وهم الحمّادون الذين يحمدون ٱلله علىٰ السرّاء والضرّاء .

السادس : والحمد من الكلام الذي اصطفاه ٱلله لملائكته ، روىٰ مسلم عن أبي ذَرٍّ ـ رضي ٱلله عنه ـ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ : أَيُّ الْكَلامِ أَفْضَلُ ؟ قال : « ما اصْطَفَىٰ ٱلله لِمَلائِكَتِهِ أو لِعِبَادِهِ : سُبْحَانَ ٱللهِ وَبِحَمْدِهِ »[3] .

---

(١) أخرجه الترمذي باب : فضل النبي ﷺ ، وقال : حديث حسن غريب (٥ / ٥٨٥) ؛ والدارمي باب : ما أعطي النبي ﷺ (١ / ٣٩) ؛ قال الألباني : صحيح الإسناد ، السلسلة الصحيحة (٤ / ٩٩) .

(٢) المرجع السابق ، باب : فضل النبي ﷺ ، وقال : حديث حسن غريب(٥ / ٥٨٧) ، ابن ماجه باب : ذكر الشفاعة (٢ / ١٤٤٠) ؛ وقال الألباني : صحيح الإسناد ، صحيح سنن ابن ماجه (٢ / ٤٣٠) . وله روايتان صحيحتان أيضاً ذكرهما الألباني ، انظر الصحيحة (٤ / ٩٩) .

(٣) أخرجه مسلم باب : فضل سبحان ٱلله وبحمده (٤ / ٢٠٩٣) ، برقم (٢٧٣١) .

السابـع : قول : (الحمد لله) أفضل من قول : (لا إلـه إلا ٱلله) ، يقول ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قولنا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أفضل عند المحققين (من لا إلـه إلا ٱلله) لوجهين : **أحدهما** : ما خرجه النسائي وأحمد عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ـ رضي ٱلله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « إن ٱلله اصطفىٰ من الكلام أربعاً (سبحان ٱلله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلا ٱلله ، وٱلله أكبر) فمن قال : (سبحان ٱلله) كتب له عشرون حسنة ، وحطت عنه عشرون سيئة ، ومن قال : (ٱلله أكبر) فمثل ذٰلك ، ومن قال : (لا إلـه إلا ٱلله) فمثل ذٰلك ، ومن قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من قبل نفسه كتب له ثلاثون حسنة ، وحطت عنه ثلاثون سيئة »[1] .

وثـانيـهما : أن التوحيد الذي يقتضيه (لا إلـه إلا ٱلله) حاصل في قولك (رب العـالميـن) وزاد علـىٰ ذٰلـك (الحمـد لله) ، أي : أن كلمـة (رب العالمين) متضمنة لقولك (لا إلـه إلا ٱلله) ، ويزيد بالتحميد فتصبح ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . وأما قول رسول ٱلله ﷺ : « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إلـه إلا ٱلله » ، فإنما ذٰلك للتوحيد الذي يقتضيه ، وقد شاركتها الحمد لله رب العالمين في ذٰلك ، وزادت عليها وهـٰذه يقولها المؤمن لطلب الثواب ، وأما لمن دخل في الإسلام؛ فيتعين عليه: لا إلـه إلا ٱلله »[2] .

ومما سبق نجد : أن قول ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ له أكبر الأثر علىٰ من ردد هـٰذا الذكر العظيم ، وذٰلك لاشتماله علىٰ الحمد ، وعلىٰ توحيد الخالق ـ عز وجل ـ فينال صاحبه أكثر مما يناله من ردد كلمة (لا إلـه إلا ٱلله) .

---

(١) أخرجه النسائي عند ذكر ما اصطفى ٱلله جل ثناؤه من الكلام (٦ / ٢١٠) ، وأحمد في مسند أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما(٢ / ٣١٠) ، وقال الهيثمي في الزوائد : رجاله رجال الصحيح .

(٢) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (١ / ٣٢ ـ ٣٣) .

الثامن : أن العبد يصل بالحمد إلىٰ رضا ٱلله ـ عز وجل ـ جاء في صحيح مسلم عن أَنَسِ بن مَالِكٍ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱللهِ ﷺ : « إِنَّ ٱللهَ لَيَرْضَىٰ عن الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عليها ، أو يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عليها »[١] . فلو لم يكن من أثر للحمد إلا هٰذا لكفىٰ ، وأي فضل وخير من رضا الخالق ـ عز وجل ـ يناله الحامد لربه ؟!

وما أجمل قول أبي فراس الحمداني :

فَلَيْتَكَ تَغْفُو وَالحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَىٰ وَالأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الّذي بَيْني وَبَيْنَكَ عَامِرٌ و بيني وبينَ العالمينَ خرابُ[٢]

التاسع : أن من آثار الحمد أنه أفضل من الدعاء ، فالعبد إذا أراد أن يدعو ربه فمن الأفضل أن يقدم بين دعائه أموراً ، من أهمها : أنه يفتتح الدعاء بالحمد لتحصل له بركة الدعاء وثوابه ، ويكون بذٰلك قد أتىٰ بأفضل الدعاء ، وقد بين النبي ﷺ أفضل الذكر ، وأفضل الدعاء ، رَوَىٰ جَابِرُ بن عبد ٱللهِ ـ رضي ٱلله عنهما ـ يقول : سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إِلَـٰهَ إلا ٱلله ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ للهِ »[٣] ، وفي هٰذا الحديث بيان أن أفضل ما يدعو به المسلم ربه (الحمد) .

---

(١) أخرجه مسلم باب : استحباب حمد ٱلله تعالى بعد الأكل والشرب (٤ / ٢٠٩٥) ، برقم (٢٧٣٤) .

(٢) انظر ديوان أبي فراس الحمداني (١ / ٤٦) .

(٣) أخرجه الحاكم في كتاب الدعاء ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١ / ٦٧٦) ، وابن حبان في ذكر البيان بأن الحمد لله جل وعلا من أفضل الدعاء (٣ / ١٢٦) ، والترمذي عند بَاب ما جاء أَنَّ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِ مُسْتَجَابَةٌ ، وقال : هو حديث حسن غريب (٥ / ٤٦٢) ، والنسائي عند أفضل الذكر وأفضل الدعاء (٦ / ٢٠٨) ، وابن ماجه عند بَاب فَضْلِ الْحَامِدِين (٢ / ١٢٤٩) ، وقال الألباني : حديث حسن ، انظر الصحيحة (٣ / ٤٨٤) .

العاشر : من آثار الحمد العظيمة هي : أن لفظة الحمد للمؤمن خير له من النعمة التي أُعطيها ، روىٰ ابن ماجه عن أنس ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « ما أَنْعَمَ ٱلله علىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً ، فقال : الْحَمْدُ للهِ ؛ إلا كان الذي أَعْطَاهُ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ »[1] .

ومعناه : من أعطي نعمة ثم أعطي علىٰ أثرها هـٰذه الكلمة حتىٰ نطق بها لكانت هـٰذه الكلمة أفضل من النعمة التي أخذها ، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية ، قال تعالىٰ : ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٦] .

الحادي عشر : وبعض ألفاظ الحمد لا يعلم أجرها إلا ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ فقد ادخر الأجر عنده لمن قال ذٰلك ، وسيؤجره عليها يوم يلقاه ، روىٰ البخاري عن رِفَاعَةَ بن رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ قال كنا يَوْماً نُصَلِّي وَرَاءَ النبي ﷺ فلما رَفَعَ رَأْسَهُ من الرَّكْعَةِ قال : « سمع ٱلله لِمَنْ حَمِدَهُ » قال رَجُلٌ وَرَاءَهُ : رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْداً طَيِّباً مُبَارَكاً فيه . فلما انْصَرَفَ قال : « من الْمُتَكَلِّمُ ؟ قال : أنا ، قال : « رأيتُ بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكاً يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ »[2] . فمن علم ذٰلك ، وأيقن به انعكس علىٰ حياته لتكون كلها حمداً لربه حتىٰ يكون يوم لقائه من أسعد الناس برضاه ، وبما أعد له من الأجر الذي لا يعلمه إلا هو ، عز وجل .

الثاني عشر : أن من قام بحمد ربه ـ عز وجل ـ فإنه يتمم عجزه عن شكر ربه الشكر الذي ينبغي له ـ تبارك وتعالىٰ ـ فإن العبد لو أفنىٰ عمره في الثناء علىٰ ربه ـ جل شأنه ـ ما أدىٰ عشر معشار ما لربه عليه من النعم ، ولـٰكنه سبحانه لعظيم لطفه ورحمته يرضىٰ من عباده باليسير ، مع اعترافهم بالعجز والتقصير .

---

(١) أخرجه ابن ماجه باب : فضل الحامدين (٢ / ١٢٥٠) ؛ والطبراني في الأوسط (٢ / ٩٣) ؛ وحسنه الألباني ، انظر صحيح ابن ماجه للألباني (٢ / ٣١٩) .

(٢) أخرجه البخاري باب : الطمأنينة حين يرفع رأسه من الركوع (١ / ٢٧٥) برقم (٧٦٦) .

روىٰ الإمام مسلم عن عَائِشَةَ ـ رضي ٱلله عنها ـ قالت : فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً من الْفِرَاشِ ، فَالْتَمَسْتُهُ ، فَوَقَعَتْ يَدِي علىٰ بَطْنِ قَدَمَيْهِ وهو في الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وهو يقول : « اللهم أَعُوذُ بِرِضَاكَ من سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ من عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أنت كما أَثْنَيْتَ علىٰ نَفْسِكَ »[١] . فهٰذا سيد الخلق أبدىٰ عجزه عن الثناء علىٰ ربه ، فما بالنا نحن المقصرين العاجزين أشد العجز ، وهل في وسعنا أن نشكر ربنا حق شكره ؟! لٰكن من فضله علينا أن وفقنا لعمل يسير في فعله عظيم في أجره ؛ ألا وهو حمده الذي نجبر به هٰذا الضعف الذي نحن فيه .

الثالث عشر : الحمد له أعظم الأثر في مغفرة الذنوب ، فكما أنه له أجراً عند ٱلله قد ادُّخِرَ ، فله مزية ، وهي أنه سبب في نقاء العبد من الذنوب التي وقع فيها .

روىٰ معاذ بن أنس[٢] عن أبيه ـ رضي ٱلله عنهما ـ : أن رسول ٱلله ﷺ قال : « من أَكَلَ طَعَامًا ، ثُمَّ قال : الْحَمْدُ للهِ الذي أَطْعَمَنِي هٰذا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ من غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي ولا قُوَّةٍ ؛ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ ، وَمَنْ لَبِسَ ثَوْباً فقال : الْحَمْدُ للهِ الذي كَسَانِي هٰذا الثَّوْبَ ، وَرَزَقَنِيهِ من غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي ولا قُوَّةٍ ؛ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ »[٣] .

---

(١) أخرجه الأمام مسلم باب : ما يقال في الركوع والسجود (١ / ٣٥٢) ، برقم (٤٨٦) .

(٢) معاذ بن أنس الجهني الأنصاري له صحبة عداده في أهل مصر ، وهو والد سهل بن معاذ بن أنس ، روى عن النبي ﷺ وعن كعب الأحبار وأبي الدرداء ، روى عنه ابنه سهل بن معاذ بن أنس ، انظر تهذيب الكمال (٢٨ / ١٠٥) .

(٣) رواه الترمذي عند باب في دعاء النبي ﷺ وقال عنه : هذا حديث غريب(٥ / ٥٥٨) ، والحاكم كتاب اللباس ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٤ / ٢١٣) ؛ وابن ماجه باب : الاجتماع على الطعام (٢ / ١٠٩٣) ؛ وقال الألباني : حديث حسن : انظر صحيح سنن ابن ماجه للألباني (٢ / ٢٢٨) .

الرابع عشر : أنه سبيل لأن يكتال صاحبه بالمكيال الأوفىٰ ، أو الجريب الأوفىٰ . روىٰ الطبراني عن زَيْدِ بن أَرْقَمَ ـ رضي ٱلله عنه ـ عَنِ النبي ﷺ قال : « من قال في دُبُرِ كل صَلاةٍ : سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ علىٰ الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَقَدِ اكْتَالَ بِالْجَرِيبِ الأَوْفَىٰ مِنَ الأَجْرِ »[1] .

الخامس عشر : أثر الحمد في إجابة الدعاء ، وقد سبق أن ذكرت : أنه ينبغي للمسلم أن يقدم قبل دعائه الحمد والثناء علىٰ ٱلله تبارك وتعالىٰ ، ويختم به ؛ لينال بركة الحمد ، وإجابة الدعوة ، لـٰكنه في هـٰذا الموطن قد اختلف الأمر ، وذٰلك عندما ينتبه العبد من نومه في منتصف الليل ، ثم يحمد ٱلله مع أذكار أخرىٰ ؛ فإن ذٰلك سبب في إجابة ما دعا به في تلك اللحظة ، وما جعل هـٰذا الفضل ، وهـٰذا الجزاء العظيم لهـٰذا الذكر العظيم في هـٰذا الوقت إلا لندرة من يقوم به ، وسبب ذٰلك غفلة الناس عن هـٰذه الأوقات التي يتنزل فيها الرب ـ تبارك وتعالىٰ ـ إلىٰ سمائه الدنيا ، ثم ينادي المستغفرين والتائبين والمحتاجين ، لـٰكنهم في هـٰذا الوقت قليل . جعلنا ٱلله ممن يحظىٰ بهـٰذا الخير الجزيل !

روىٰ البخاري في صحيحه عن عُبَادَة بن الصَّامِتِ ـ رضي ٱلله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « من تَعَارَّ من اللَّيْلِ فقال : لا إِلَـٰهَ إلا ٱلله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له ، له الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وهو علىٰ كل شَيْءٍ قَدِيرٌ ، الْحَمْدُ للهِ وَسُبْحَانَ ٱللهِ ولا إِلَـٰهَ إلا ٱلله ، وَٱللهُ أَكْبَرُ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِٱللهِ » ، ثُمَّ قال : « اللهم اغْفِرْ لي » أو دَعَا اسْتُجِيبَ له ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّىٰ قُبِلَتْ صَلاتُهُ »[2] .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٥ / ٢١١) ، وله شاهد من رواية عبد الرزاق في مصنفه عن علي بن أبي طالب باب : التسبيح والقول وراء الصلاة (٢ / ٢٣٦) . وصححه الألباني من رواية الترمذي ، انظر صحيح سنن الترمذي (١ / ٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري بَاب : فَضْل من تَعَارَّ من اللَّيْلِ فَصَلَّى (١ / ٣٨٧) ، برقم (١١٠٣) .

السادس عشر : أن من آثار الحمد : أنه جمع بين الذكر والشكر ، قال سفيان الثوري : (حمد ٱلله ذكر وشكر ، وليس شيء ذكراً وشكراً غيره)[1] ، فمن قول سفيان يتبين : أن الحمد هو الكلام الذي يجمع بين الذكر والشكر ، وهـٰذه ميزة تجعل الحمد يفضل غيره من الكلام .

وروىٰ الطبري عن عبد ٱلله بن عمرو ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : (إن الرجل إذا قال : (لا إلـٰه إلا ٱلله) فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل ٱلله من أحد عملاً حتىٰ يقولها ، فإذا قال : (الحمد لله) فهي كلمة الشكر التي لم يشكر ٱلله عبد قط حتىٰ يقولها ، فإذا قال : (ٱلله أكبر) فهي تملأ ما بين السماء والأرض ، فإذا قال : (سبحان ٱلله) فهي صلاة الخلائق التي لم يدع ٱلله أحداً من خلقه إلا نوره بالصلاة والتسبيح ، فإذا قال : (لا حول ولا قوة إلا بٱلله) قال : أسلم عبدي واستسلم)[2] .

هـٰذا ومما تنبغي الإشارة إليه ، والتأكيد عليه ـ والحديث حول آثار الحمد ـ أن للحمد آثاراً فاعلة علىٰ المستوىٰ الفردي ، والمستوىٰ الأسري ، والمستوىٰ الاجتماعي (المجتمع) ، وعلىٰ مستوىٰ الأمة كلها ، وسأتحدث عن هـٰذه الآثار فيما يلي :

أ ـ آثار الحمد علىٰ المستوىٰ الفردي :

أولاً : أن الحامد طيب النفس ، كريم الطباع ، وما ذاك إلا أنه يقابل الإحسان بالإحسان .

ثانياً : يجعل المسلم حسن الخلق ، فمن مداومته لحمد ربه جعله يحمد الخلق ؛ ليكون ذٰلك دليلاً علىٰ حسن خلقه وأدبه مع ربه أولاً ، ثم مع إخوانه

---

(١) حلية الأولياء (٧ / ٥٧) .

(٢) انظر تفسير الطبري ، سورة الإسراء (١٥ / ٩٣) ؛ وذكرها عنه ابن حجر في فتح الباري ، باب : فضل التسبيح (١١ / ٢٠٨) ؛ وأبو نعيم في الحلية (٩ / ١٧) .

المؤمنين ، قال علي بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ : (من لم يحمد أخاه علىٰ صدق النية لم يحمده علىٰ حسن الصنيعة) [١] .

ثالثاً : الحامد مقر لربه بالنعمة ، فقد برهن علىٰ ذٰلك الإقرار بالحمد ، والثناء علىٰ المنعم ـ عز وجل ـ وفوض كل خير إليه ، وأنه هو صاحب ذٰلك كله .

رابعاً : نجد : أن المؤمن المداوم علىٰ الحمد في السراء والضراء قانع بما أعطاه ٱلله ، راض بما قسمه له ، فإن وجد خيراً حمد ، وإن وجد غيراً حمد ، فهو متقلب في حمد ربه .

خامساً : سبب في زيادة الخير لمن داوم عليه ، يقول ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

فالحمد شأنُه عظيمٌ ، وثوابُه جزيلٌ ، ويترتّب عليه من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلاّ ٱلله ، وأهله هم الذين خصهم ٱلله يوم القيامة بأعلىٰ المقامات ، وأرفع الرُّتب ، وأعلىٰ المنازل ، فإنّ ٱلله ـ عز وجل ـ يحبُّ المحامدَ ، ويحبُّ من عبده أن يُثنيَ عليه ، ويرضىٰ عن عبده أن يأكلَ الأكْلةَ فيحمده عليها ، ويشربَ الشربَةَ فيحمده عليها ، ليرضىٰ عنه ، وهو ـ تبارك وتعالىٰ ـ الذي منَّ عليهم بالنعمة ، وتفضل عليهم بالحمد ، فهو يبذل نعمه لعباده ، ويطلبُ منهم الثناءَ بها ، وذكرها والحمد عليها ، ويرضىٰ منهم بذٰلك شكراً عليها ، وإن كان ذٰلك كلُّه من فضله عليهم ، وهو غير محتاج إلىٰ شكرهم ، لـٰكنه يحبُّ ذٰلك من عباده ، حيث كان صلاحُ العبد ، وفلاحُه ، وكمالُه فيه ، اللهم لك الحمد بالإسلام ، ولك الحمد بالقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال ، بسطت رزقنا ، وأظهرت أمتنا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا ، فلك

(١) انظر آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي ٤٧ .

الحمد كثيراً كما تنعم كثيراً ، وصرفت شراً كثيراً فلوجهك الجليل الباقي الدائم الحمد !

ب ـ آثار الحمد علىٰ مستوىٰ الأسرة :

أولاً : نجد : أن هٰذه الأسرة تسودها المحبة ، وحسن المعاشرة ؛ لأن إقرارها بالحمد لربها علىٰ كل حالٍ كانت فيها هو دليل جو السعادة التي تعيشه .

ثانياً : ينشأ الصغير في هٰذه الأسرة المكثرة من الحمد علىٰ الحمد ؛ لأنه من كثرة ما يسمع ذٰلك من أفراد أسرة ستمتلئ نفسه بالاعتراف لربه ؛ بما منَّ عليهم من الخير .

ج ـ آثار الحمد علىٰ مستوىٰ المجتمع :

أولاً : المجتمع الحامد لربه تقل فيه المشاكل ، حيث يكون الترابط بين أفراده ترابطاً قوياً ؛ لأن ارتباطهم بربهم قبل ذٰلك كان قوياً ، فانعكس ذٰلك علىٰ حياتهم في مجتمعهم .

ثانياً : يكون هٰذا المجتمع أكثر حفاظاً علىٰ النعم ، خاصة ما يكون من زيادة في المآكل والمشارب ، فنجدهم يبحثون عمن يكون في حاجة لها في مجتمعهم ؛ فيدفعونها إليه حرصاً منهم علىٰ حق الجوار أولاً ، ثم عدم إلقائها في المزابل ، أو ما شابهها ثانياً .

د ـ علىٰ مستوىٰ الأمة :

أولاً : تمسك الأمة الإسلامية بالحمد يجعلها تجتمع علىٰ كلمة واحدة ضد أعدائها ؛ لأن اعتراف الأمة بالحمد لربهم هو اعتراف له بالربوبية والألوهية ؛ التي لا تنبغي أن تكون لمعبود غيره .

ثانياً : تحقق بالحمد معنىٰ قول النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكىٰ منه عضو ؛ تداعىٰ له سائر

الجسد بالسهر والحمىٰ »[١] ، وذٰلك لأن الحامد يتمنىٰ لجميع المسلمين الخير في الدنيا والآخرة ، ويكون في حسرة شديدة إذا رأىٰ أحد إخوانه المسلمين في أي بقعة من العالم في فقر ، وعوز ، وضنك من العيش ، بل تراه يكون مبادراً بكل ما يستطيعه من مساعدة له .

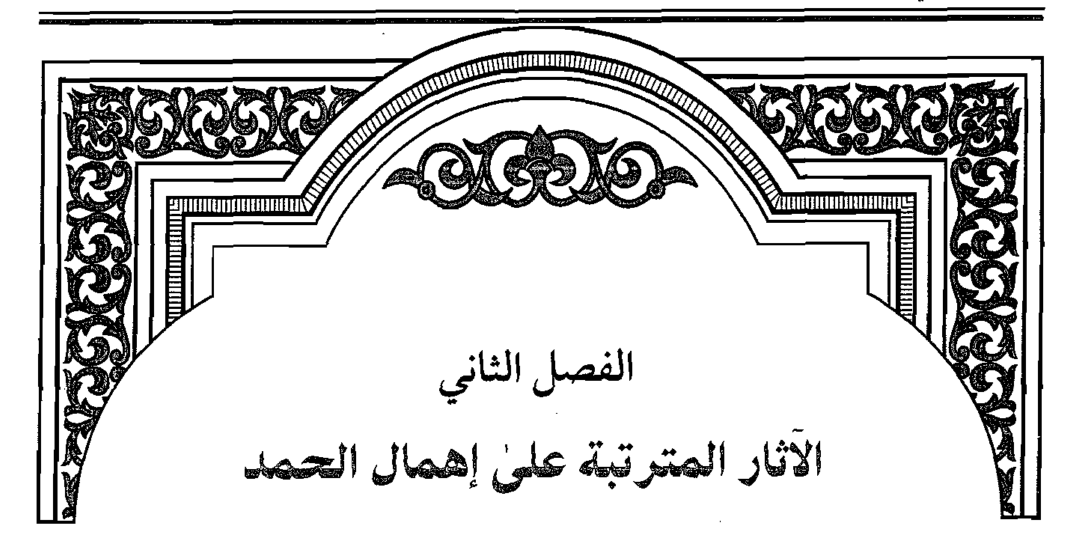
ثالثاً : ترتقي الأمة بأخلاقها ، وسلوكها ، ومبادئها ؛ حينما تكثر من حمدها لربها ؛ لأن الحمد تهذيب للنفس ، وتقويم لكل سلوك معوج في حيات الفرد ، ثم الأسرة ، ثم المجتمع ؛ الذي ينعكس بطبيعة الحال علىٰ مستوىٰ الأمة الإسلامية .

✍ ✍ ✍

---

(١) أخرجه مسلم باب : تراحم المسلمين وتعاطفهم وتعاضدهم (٤ / ١٩٩٩) ، برقم (٢٥٨٥) .





الفصل الثاني
الآثار المترتبة علىٰ إهمال الحمد

وكما أن للحمد آثاراً لمن قام به عادت عليه بالخير العميم في الدنيا والآخرة ، ففي المقابل هناك آثار خطيرة لمن أهمله ، ولم يؤد شكر ربه الشكر الذي ينبغي له ، وسأعرض هـٰذه الآثار ، ونلاحظ أن بعضها ما هو إلا عكس لما سبق ذكره ، أي : أنه من أدىٰ حمد ربه كان له من الأجر كذا ، أما من لم يؤد حمد ربه فإنه سيعود عليه عكس ذٰلك ، ومن هـٰذه الآثار :

الأول : أن تارك الحمد لا يشمت بعد العطاس . روىٰ البخاري عن أنس بن مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : عطس رجلان عند النبي ﷺ فشمَّتَ أحدهما ، ولم يشمِّت الآخر ، فقيل له ، فقال : « هـٰذا حمد ٱلله ، وهـٰذا لم يحمد ٱلله »[1] .

الثاني : والحمد لله علىٰ النعمة أمان لزوالها ، ومن لم يحمده عليها فقد عرضها للزوال ، وقلما نفرت فعادت ، وقيل : (ما زال شيء عن قوم أشد من نعمة لا يستطيعون ردها ! وإنما ثبتت النعمة بشكر المنعَم عليه للمنعِم)[2] ، وفي الحِكَمِ : (من لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد

(١) أخرجه البخاري باب : الحمد للعاطس (٥ / ٢٢٩٧) ، برقم (٥٨٦٧) .

(٢) فيض القدير للمناوي (٣ / ٤١٨) .

قيدها بعقالها)[١] ، وقال الغزالي : (والشكر قيد النعم به تدوم وتبقىٰ ، وبتركه تزول وتتحول)[٢] ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، وقال : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] ، وقال : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] ، فالسيد إذا رأىٰ العبد قام بحق نعمته يمنُّ عليه بأخرىٰ[٣] .

الثالث : تارك الحمد يحرم من رضا ربه الذي يصل إليه الحامد ، وذٰلك في بعض المواطن ، ومنها الحمد علىٰ الأكلة والشربة ، جاء في صحيح مسلم عن أَنَسِ بن مَالِكٍ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱللهِ ﷺ : « إِنَّ ٱللهَ لَيَرْضَىٰ عن الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عليها ، أو يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عليها »[٤] ، فمن لم يحمد ٱلله يحرم من رضاه ؛ الذي هو السعادة في الدنيا والآخرة ؛ لأن المفهوم من الحديث هو ذٰلك .

الرابع : وبترك الحمد في بعض المواطن ، وترك بعض صيغه يحرم الإنسان من الأجر العظيم ؛ الذي لا يعلمه إلا ٱلله ، حيث وفق بعض عباده لصيغة من الحمد نال بها هٰذا الشرف العظيم ، وهي ما رواه البخاري عن رِفَاعَةَ بن رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : كنا يَوْماً نُصَلِّي وَرَاءَ النبي ﷺ ، فلما رَفَعَ رَأْسَهُ من الرَّكْعَةِ قال : « سمع ٱلله لِمَنْ حَمِدَهُ » قال رَجُلٌ وَرَاءَهُ : رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْداً طَيِّباً مُبَارَكاً فيه ، فلما انْصَرَفَ قال : من الْمُتَكَلِّمُ ؟ قال :

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) انظر فيض القدير (٣ / ٤١٨) .

(٤) أخرجه مسلم باب : استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب (٤ / ٢٠٩٥) ، برقم (٢٧٣٤) .

أنا ، قال رأيتُ بِضْعَةً وثَلاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ »[١] . فمن علم ذٰلك الخير وتركه ، حُرِمَ من أجرٍ لا يعلمه إلا ٱلله ـ عز وجل ـ ، لٰكن المحروم من حرمه ٱلله ، والموفق من وفقه ٱلله .

الخامس : ترك الحمد يوصل الإنسان إلىٰ الجزع ، وعدم الرضا بقضاء ٱلله وقدره ، فالمؤمن في جميع أحواله حامد لربه علىٰ الخير وعلىٰ الغِيَرِ ، روىٰ الإمام مسلم قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ ، إن أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً له ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً له »[٢] .

السادس : ترك الحمد عند رؤية المبتلىٰ قد يوقع الإنسان في ذٰلك البلاء ؛ لأن حمد ٱلله علىٰ المعافاة من البلاء عند رؤيته أمان للحامد من الوقوع في ذٰلك البلاء ، ومفهوم المنطوق الذي دل عليه الحديث في رؤية المبتلىٰ ، وهو : « من رَأَىٰ صَاحِبَ بَلاءٍ فقال الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاكَ بِهِ ، وَفَضَّلَنِي علىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً ؛ إلا عُوفِيَ من ذٰلك الْبَلاءِ كَائِناً ما كان ما عَاشَ »[٣] ، إن الحمد صيانة من أن يصاب الحامد بذٰلك البلاء .

السابع : ترك الحمد في الدنيا يحرم الإنسان من الدخول تحت لواء النبي ﷺ يوم القيامة ؛ لأن مفهوم منطوق هٰذا الحديث : « أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم الْقِيَامَةِ ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ ولا فَخْرَ ! وما من نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ

---

(١) أخرجه البخاري باب : الطمأنينة حين يرفع رأسه من الركوع (١ / ٢٧٥) برقم (٧٦٦) .

(٢) أخرجه مسلم بَاب : الْمُؤْمِن أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ (٤ / ٢٢٩٥) ، برقم (٢٩٩٩) .

(٣) أخرجه الترمذي باب : ما يقول إذا رأى مبتلىً ، وقال : حسن غريب (٥ / ٤٩٣) ، وابن ماجه باب : ما يدعو به الرجل إذا رأى أهل البلاء (٢ / ١٢٨١) ، وقال الهيثمي : إسناده حسن ، (١٠ / ١٣٨) ، وكذلك حسنه الألباني ، انظر صحيح سنن ابن ماجه للألباني (٢ / ٣٣٧) .

إلا تَحْتَ لِوَائِي ، وأنا أَوَّلُ من تَنْشَقُّ عنه الأَرْضُ ولا فَخْرَ ! »[١] ، يعني : حرمان الحامد من الدخول تحت هٰذا اللواء .

فلمّا كان ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ أحمدَ الخلائق لله ، وأكملَهم قياماً بحمده ؛ أُعطي لواءَ الحمد ؛ ليأوي إلىٰ لوائه الحامدون لله من الأولين والآخرين ، وإلىٰ هٰذا أشار ﷺ عندما قال في الحديث : « وما من نبيٍّ يومئذ آدم فمَن سواه إلاّ تحت لوائي » ، ومن ذٰلك يفهم : أن تارك الحمد لا يأوي إلىٰ لواء النبي ﷺ يوم القيامة ، ولا أشد من ذٰلك الحرمان ، وسيندم الإنسان علىٰ ذٰلك أشد الندم حين لا ينفع الندم .

الثامن : ومن الأمور المستنبطة من ترك الحمد هو : أن المقترف للذنوب غير حامد لربه ، وما ذاك إلا أنه قد عصىٰ ربه بما أنعم عليه من نعم ، فنراه يسرق بيده ، ويبطش بها أيضاً ، ويمشىٰ إلىٰ المنكر برجله ، ويسمع وينظر إلىٰ الحرام بنعم ٱلله عليه ، وحق هٰذه النعم هو حمد ٱلله ، وشكره عليها ، لٰكنه قابل ذٰلك بالنكران ، والجحود ، واقتراف المعاصي ! ليدلل علىٰ أنه غير حامد لربه ، ولو كان حامداً لأدىٰ حق هٰذه النعم بصيانتها عن الوقوع في الذنوب ، وحمد من وهبه إياها .

التاسع : تارك الحمد في أول الدعاء يكون ممن استعجل ، وحرم بركة الإجابة ، روىٰ الترمذي عن فضالة بن عبيد[٢] يقول : سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته ، فلم يصلّ علىٰ النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « عجل

(١) أخرجه الترمذي باب : فضل النبي ﷺ ، وقال : حديث حسن غريب (٥ / ٥٨٧) ، وابن ماجه باب : ذكر الشفاعة (٢ / ١٤٤٠) ؛ وقال الألباني : صحيح الإسناد ، صحيح سنن ابن ماجه (٢ / ٤٣٠) . وله روايتان صحيحتان أيضاً ذكرهما الألباني ، انظر الصحيحة (٤ / ٩٩) .

(٢) فضالة بن عبيد : شهد أحداً وولي قضاء دمشق ، وعنه أبو علي الجنبي وحنش الصنعاني ومحمد بن كعب ، مات ٥٣ ، الكاشف (٢ / ١٢١) .

هـٰذا » ثم دعاه فقال له ولغيره : « إذا صلىٰ أحدكم ؛ فليبدأ بتحميد ٱلله والثناء عليه ، ثم ليصل علىٰ النبي ﷺ ، ثم ليدع بعد بما شاء »[١] .

العاشر : أن ترك الحمد قد يوقع في الفسق الذي مصيره إلىٰ النار ، وأكثر ما يكون ذٰلك في النساء ، يقول النبي ﷺ : « إن الفساق هم أهل النار ، قالوا : يا رسول ٱلله : وما الفساق ؟ قال : النساء ، قال رجل : يا رسول ٱلله ! ألسن أمهاتنا ، وأخواتنا ، وأزواجنا ؟! قال : بلىٰ ، ولـٰكنهن إذا أعطين لم يشكرن ، وإذا ابتلين لم يصبرن »[٢] ، ومن الحديث نجد أن ترك الشكر والحمد علىٰ العطية قد يهوي بصاحبه إلىٰ النار .

الحادي عشر : إذا لم يحمد الناس بعضهم علىٰ صدق النية ، فذٰلك يجعلهم لا يرضون منهم عملاً ، وإن كان ذٰلك العمل حسناً ، يقول علي بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ : (من لم يحمد أخاه علىٰ صدق النية ؛ لم يحمده علىٰ حسن الصنيعة)[٣] .

الثاني عشر : ترك الحمد من الأسباب التي أدت إلىٰ إهلاك الظلمة ، يقول النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي : أُهلكوا عن آخرهم ، ولم يُترك منهم أحد . ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤] إيذان بوجوب

---

(١) أخرجه الترمذي باب : جامع الدعوات عن النبي ﷺ (٥ / ٥١٧) ، وقال : حسن غريب صحيح ، والحاكم باب : التأمين ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (١ / ٣٥٤) ، وأبو داود باب : الدعاء (٢ / ٧٧) ، وصححه الألباني ، صحيح سنن أبي داود (١ / ٢٧٨) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٤ / ٦٤٧) ، وأخرجه أحمد في مسنده (٣ / ٤٤٤) ، وقال الهيثمي : ورجال الجميع ثقات ، مجمع الزوائد (٤ / ٧٣) .

(٣) آداب الصحبة ، فصل : حمد الإخوان من حسن الصحبة ٤٧ .

(٤) تفسير النسفي (١ / ٣٢٣) . والآية من سورة الأنعام / ٤٥ .

الحمد لله عند هلاك الظلمة ، وأنه من أَجَلّ النعم ، وأجزل القِسَم ، أو احمدوا ٱلله علىٰ إهلاك من لم يحمد ٱلله »[١] ، وبطبيعة الحال فالظلمة لم ينقادوا لأمر ربهم ورسله ، فهم من باب أولىٰ غير حامدين له ، فكان تركهم للحمد من جملة الأسباب ؛ التي عجلت لهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة .

الثالث عشر : ومن لم يحمد ربه علىٰ ما عمل من عمل صالح ، وظن ذٰلك من تلقاء نفسه فحمد نفسه ، فإنه يُحبط عمله . روىٰ الطبري عن عبد العزيز الشامي[٢] عن أبيه ، قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « من لم يحمد ٱلله علىٰ ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه قلّ شكره ، وحبط عمله ، ومن زعم : أن ٱلله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل ٱلله علىٰ أنبيائه » لقوله : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[٣] .

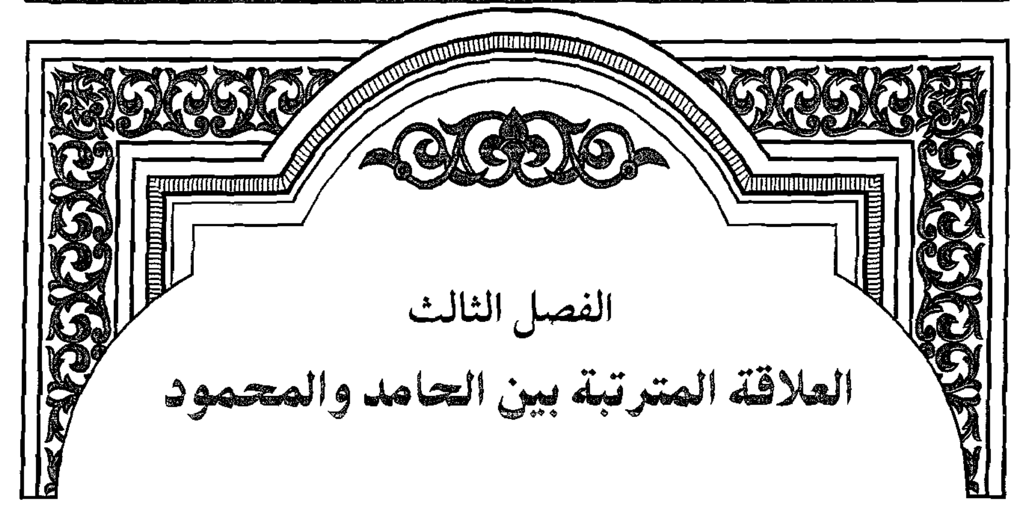
---

(١) تفسير النسفي (١ / ٣٢٣) . والآية من سورة الأنعام / ٤٥ .

(٢) عبد العزيز بن سعيد بن سعد بن عبادة ، ولأبيه صحبة ، يروي عن أبيه ، روى عنه أبو الصباح ، واسمه عبد الغفور بن عبد العزيز الواسطي ، الثقات (٥ / ١٢٥) .

(٣) انظر تفسير الطبري (٨ / ٢٠٦) ، والآية من سورة الأعراف : ٥٤ .





الفصل الثالث
العلاقة المترتبة بين الحامد والمحمود

والعلاقة التي تكون بين الحامد والمحمود تنقسم إلىٰ قسمين ، هما :

الأول : العلاقة بين العبد وربه :

فالعبد هو الحامد والله ـ عز وجل ـ ، هو المحمود ، وعلىٰ هٰذا الأمر كان حمد العباد لربهم قائماً علىٰ مدىٰ معرفتهم به ـ عز وجل ـ ، فكلما رَقِيَ المسلم في معرفة ربه بصفاته وأفعاله زاد في العلاقة التي بينه وبين ربه في كل ما يقربه منه ، وأخص بالذكر هنا الحمد ، والذي هو نوع من المدح لله ـ عز وجل ـ لٰكنه أعم منه ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « والفرق بين الحمد والمدح أن الحمد يتضمن الثناء مع العلم بما يثنىٰ به ، فإن تجرد عن العلم كان مدحاً ، ولم يكن حمداً ، فكل حمد مدح دون العكس »[1] .

ومن المعلوم : أن ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ يحب الثناء ليرفع من درجة من يثني عليه ، وليزيده من فضله ، يقول النبي ﷺ : « . . . ولا أَحَدَ أَحَبُّ إليه الْمِدْحَةُ من اللَّهِ »[2] .

والثناء من العباد علىٰ ربهم عبادة كلفهم بها لبيان تعظيم العبد لربه ؛

---

(١) كتاب الفوائد لابن القيم (٢ / ٣٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري بَاب : قَوْلِ النبي ﷺ لا شَخْصَ أَغْيَرُ من اللَّهِ (٦ / ٢٦٩٨) ، برقم (٦٩٨٠) .

ليتحقق فيه معنىٰ العبودية ؛ التي هي وصف لقب يناله من ربه كما شرَّف به أنبياءه ، فقال عن إمامهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء : ١] .

ومن العلاقة المرتبة علىٰ حمد العبد لربه ذٰلك الشعور الذي يجده المؤمن في قلبه عندما يريد الثناء علىٰ ربه ، والتمجيد له بما هو أهله ، فيصدق ذٰلك الشعور لسانه فيلهج بحمد ربه ، ثم يرتقي في حقيقة الحمد والشكر ، وذٰلك بالتذلل له ، والانكسار بين يديه خاصة عندما يكون في الصلاة ، حيث إن كل عضو منه معترف بحمد ربه ـ عز وجل ـ ، يقول النبي ﷺ : « يصبح علىٰ كل سلامىٰ من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، ويجزئ من ذٰلك ركعتان يركعهما من الضحىٰ »[١] .

ومن العلاقة كذٰلك : أن الحامد لربه تنعكس عليه كل آثار الحمد ـ التي سبق ذكرها في الفصل الأول ـ فيكون بذٰلك في رضاً من ربه ؛ لأنه بحمده قد رضي عنه ربه بما قسمه له ، ليبلغ مرتبة الأبرار الذين سيدخلهم جنته ، حيث قال عنهم : ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة : ٨] ، والحامد لربه هو الذي يخشاه ؛ لأنه بحمده اعترف له بالربوبية الواهبة للنعم ، والألوهية المستحقة للعبادة دون سواه .

الثاني : العلاقة بين العباد :

وهـٰذه العلاقة مغايرة لسابقتها ، والتي هي بين العبد وربه ، حيث إن صيغة الحمد الخاصة بٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ لا ينبغي أن تستعمل لغيره كائناً من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه باب : استحباب صلاة الضحى (١ / ٤٩٨) ، برقم (٧٢٠) .

كان ، فصيغة حمد ربنا هي ما جاءت بلفظ الاستغراق ، وهي (الحمد لله) ، ويلاحظ : أن هٰذه الصيغة الخاصة بحمد ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ تعني : أنَّ جميع أنواع المحامد له ، وبكل ما يستحقه ربنا ـ عز وجل ـ ، لٰكنه لا ينبغي أن يحمد الشخص لذاته مهما كانت منزلته ، لٰكنه يحمد لفعله ، فيقال : (حمدت لك صنيعك) ولا يقال : (أحمدك أو الحمد لك أو الحمد لفلان) ، وكذٰلك يستحب أن يكون المدح والثناء بين البشر علىٰ ما قام به أحدهم من عمل ، وذٰلك أن النفس البشرية تحب الثناء والإطراء ، وما ذاك إلا لنقص فيها تريد تكميله بهٰذا الثناء ، بينما الثناء في حق ربنا ـ عز وجل ـ لا لنقص فيه ـ تعالىٰ عن ذٰلك ـ وإنما لنقص في العبد حتىٰ يرتقي ، وتزداد منزلة عند ربه .

ومن الصيغ التي ذكرت في لغة العرب هي قولهم : (أحمد إليك ٱلله) ومعناها : أشكره عندك ، أو أحمد معك ٱلله ، أو أشكر إليك أياديه ونعمه[1] .

ويقال في الدعاء بعد الأذان : « . . . وابعثه مقاماً محموداً » ، والمقصود بذٰلك هو النبي ﷺ والمقام المحمود هو منزلة لا تنبغي لأحد غيره ، كما أخبر بذٰلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وقيل في معناها : الذي يحمده فيه جميع الخلق لتعجيل الحساب والراحة من طول الموقف ، لٰكن الجمهور علىٰ أنه الشفاعة[2] .

وهناك مما يحرم من المحامد بين البشر هو ما يطلبه بعضهم من الحمد لفعل لم يفعله ، فقد قال تعالىٰ : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٨٨] ، يقول أبو السعود : ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾

---

(١) لسان العرب (٣ / ١٥٦) .

(٢) فتح الباري (١١ / ٤٣٤) .

لشهرة أنهم كانوا يفرحون بما فعلوا من إظهار الإيمان ، وقلوبهم مطمئنة بالكفر ، ويستحمدون إلىٰ المسلمين بالإيمان وهم عن فعله بألف معزل ، وكانوا يظهرون محبة المؤمنين ، وهم في الغاية القاصية من العداوة)[١] .

والمعنيون هم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ثم مع ما هم فيه من ذٰلك يحبون أن يحمدوا علىٰ الإيمان ؛ الذي هو بعيد عنهم بعد المشرقين .

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « هم المرائين المتكثرين بما لم يعطوا »[٢] ، يقول النبي ﷺ : « . . . ومن ادعىٰ دعوىٰ كاذبة ليتكثر بها لم يزده ٱلله إلا قلة . . . »[٣] ، وقال : « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور »[٤] .

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ ﴾ أي : من القبائح والباطل القولي والفعلي ، ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾ أي : بالخير الذي لم يفعلوه ، والحق الذي لم يقولوه ، فجمعوا بين فعل الشر وقوله والفرح بذٰلك ، ومحبة أن يحمدوا علىٰ فعل الخير الذي ما فعلوه . ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي : بمحل نجوة منه وسلامة ، بل قد استحقوه وسيصيرون إليه ؛ ولهٰذا قال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، ويدخل في هٰذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم ، ولم ينقادوا للرسول ﷺ ، وزعموا : أنهم المحقون في حالهم ومقالهم ، وكذٰلك كل من ابتدع بدعة قوليه أو فعلية ، وفرح بها ، ودعا إليها وزعم »[٥] .

---

(١) تفسير أبي السعود (٢ / ١٢٦) .

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٤٤٦) .

(٣) أخرجة مسلم باب : غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١ / ١٠٤) ، برقم (١١٠) .

(٤) أخرجه البخاري باب : المتشبع بما لم ينل (٥ / ٢٠٠١) برقم (٤٩٢١) .

(٥) تفسير السعدي (١ / ١٦٦) .



الخاتمة والنتائج

وبعد . . . فلا يسعني إلا أن أحمد ربي ـ عز وجل ـ الذي وفقني لحمده ، والبحث في (موضوع حمده) لأحمده علىٰ ذلك وغيره حق حمده ، ثم ليعلم القارئ الكيفية التي يستحقها ربه في حمده ، علىٰ ما يحب ربنا ويرضىٰ ، وعلىٰ ما منَّ به من النعم التي ليس لها حصر .

وقد طوفت في رحلة علمية إيمانية ، عشت فيها مع كتاب ربنا ـ عز وجل ـ وسنة حبيبنا محمد ﷺ حيث حلقت في سماء هـٰذه الرحلة ، وعايشت فيها موضوعاً من مواضيعها الهامة ، وهو : (الحمد في القرآن والسنة) ، وقد كانت الثمرة لهـٰذه الرحلة عظيمة ، ومفيدة بتوفيق ٱلله . وأوجز خلاصة ذٰلك في النقاط التالية :

١ ـ معنىٰ الحمد لغة واصطلاحاً ، ثم ما يقابله ويرادفه من مصطلحات ، والعلاقة بينه وبين الشكر ، وذٰلك مما كتبه العلماء في هـٰذا المجال .

٢ ـ الكيفية التي حمد ربنا ـ عز وجل ـ نفسه بصورة عامة ، ثم ما خصها بالحمد علىٰ ألوهيته المستحقة للعبادة ، وربوبيته الواهبة لجميع النعم .

٣ ـ كيف حمد الخلق ربهم ، من ملائكة ، وأنبياء ، ومؤمنين ، وعلاقة النفس بالحمد ، وتزكيتها به .

٤ ـ الصيغ التي جاءت في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، عن الحمد ،

وحال كونها خبرية أو إنشائية ، ثم ما صيغ للحمد من شعر عذب في لغة العرب .

٥ - بيان الأزمنة والمواطن المكانية التي يتأكد فيها الحمد ، علما بأنه يقيد تارة ، ويطلق أخرىٰ ، ثم الأعداد التي حددتها السنة للحمد ، وكون الحمد بداية كل أمر ونهايته .

٦ - وأخيراً الآثار المترتبة علىٰ القيام بالحمد لله علىٰ الوجه المطلوب ، والآثار الوخيمة علىٰ من أهمل الحمد ، ولم يقم به ، ثم ما تتألف من علاقة بين الحامد والمحمود ، سواء بين العبد وربه أم بين الخلق جميعاً .

هٰذا ما جاد به الجهد ، ورسم به القلم ، فإن كان من صواب ؛ فمن ربي وحده - عز وجل - ، وإن كان من خطأ ؛ فمن محض نفسي والشيطان ، وٱلله ورسوله بريئان من ذٰلك .

فمن وجد صواباً فليخصني بدعوة في ظهر الغيب ، ومن وجد خطأً فكلي آذان صاغية لسماع نقده وتوجيهه ، والمسلم في كل أحواله يستر ولا يفضح ، وله مني جزيل الشكر والامتنان . وٱلله من وراء القصد . والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ خير المرسلين .





التوصيـات

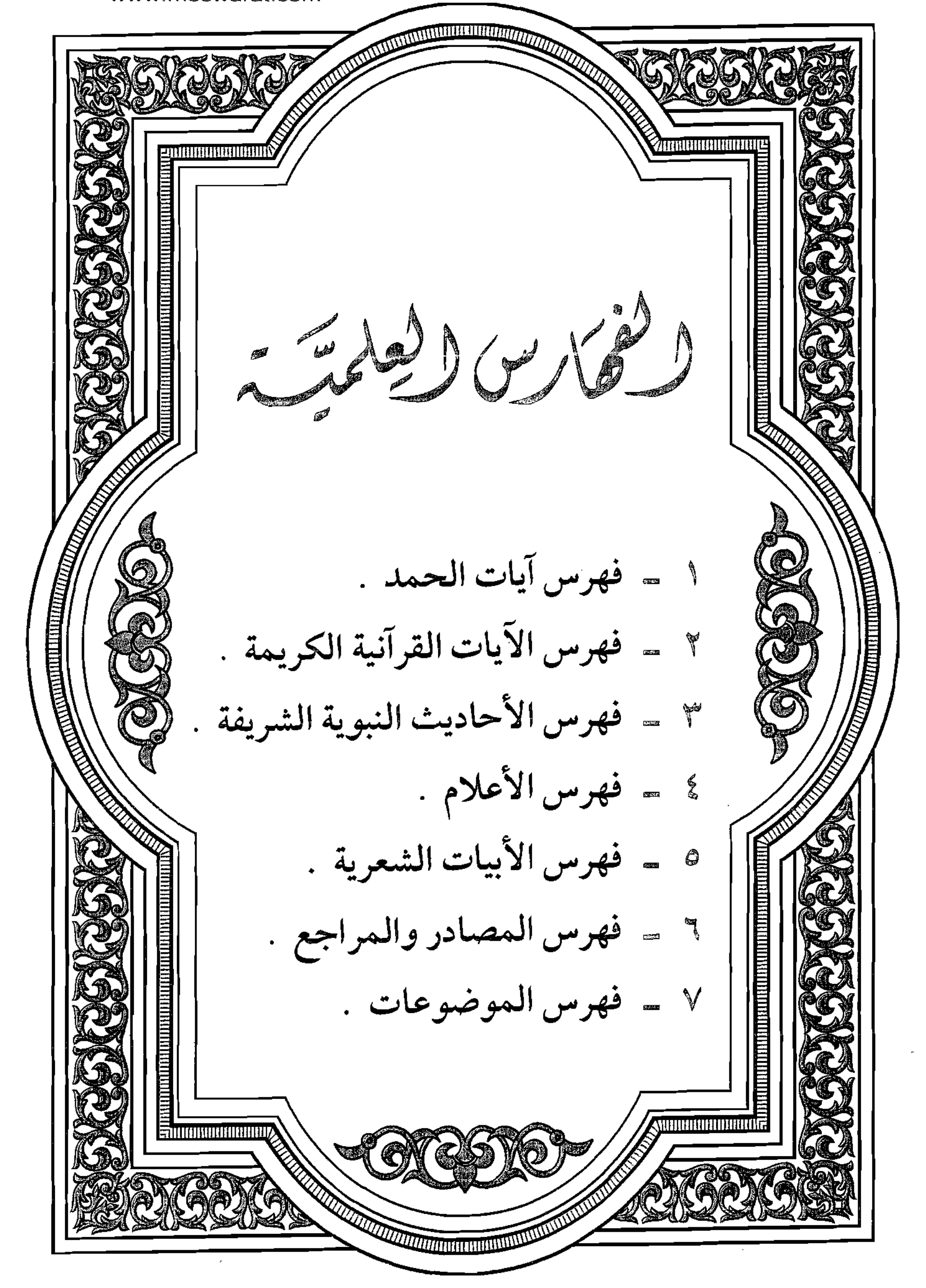
أولاً : أوصي نفسي ، وجميع المسلمين بتقوىٰ ٱلله في السر والعلن ، فبها الفوز في الدنيا والآخرة .

ثانياً : المداومة علىٰ ذكر ٱلله ـ عز وجل ـ عامة ، والحمد له خاصة ، لما ذكر من فضل له في طيات هٰذا البحث ، وما كتبه العلماء حوله في قديم وحديث .

ثالثاً : العناية الشديدة بدراسة مواضيع القرآن الكريم ، فيما يسمىٰ (بالتفسير الموضوعي) ، دراسةً متعمقة ، وذٰلك لما لمسته من أهمية بعد مطالعتي لموضوع (الحمد في القرآن والسنة) ، ولما له من فوائد للأمة عامة ، وطلبة العلم خاصة ؛ ليزدادوا معرفة بهدي هٰذا الكتاب الكريم ، وسنة النبي ﷺ .

رابعاً : أخصُّ القائمين علىٰ أمور المكتبات العامة والخاصة ، بتخصيص ركن يطلق عليه اسم (الموضوعات القرآنية) ، ويجمع فيه ـ قدر الإمكان ـ كل ما يتعلق بالتفسير الموضوعي ، من مؤلفات ، وبحوث ، ورسائل علمية ، وذٰلك ليسهل علىٰ طالب العلم التوصل له بأيسر الطرق ، وأن يفرد هٰذا الركن عن كتب التفسير العامة وعلوم القرآن ؛ ليكون مستقلاً بذاته ، وخاصاً بمواضيع القرآن التي بحثت ، ويضاف إليه كل جديد حول هٰذا الفن .

خامساً : أحث الأقسام ذات الصلة بالدرس القرآني ، أن تخصص مكتبة تتصل بالموضوعات القرآنية ؛ لتكون سبيل الطلاب للاطلاع علىٰ ما كتب في هٰذه الموضوعات .



الفهارس العلمية





الآية	السورة ورقمها

أولاً: آيات حمد الخالق لنفسه - عز وجل -

الآية	السورة ورقمها
١ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	[الفاتحة : ٢]
٢ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾	[الأنعام : ١]
٣ - ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	[الأنعام : ٤٥]
٤ - ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾	[النحل : ٧٥]
٥ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾	[الكهف : ١]
٦ - ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	[القصص : ٧٠]
٧ - ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾	[الروم : ١٨]
٨ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾	[سبأ : ١]
٩ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾	[فاطر : ١]
١٠ - ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	[الصافات : ١٨١ - ١٨٢]

الآية	السورة ورقمها
١١ - ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾	[الزمر : ٢٩]
١٢ - ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	[الزمر : ٧٥]
١٣ - ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	[غافر : ٦٥]
١٤ - ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	[الجاثية : ٣٦]
١٥ - ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾	[التغابن : ١]

ثانياً : آيات صفة الحميد

الآية	السورة ورقمها
١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾	[البقرة : ٢٦٧]
٢ - ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾	[النساء : ١٣١]
٣ - ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾	[هود : ٧٣]
٤ - ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾	[إبراهيم : ١]
٥ - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾	[إبراهيم : ٨]
٦ - ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾	[الحج : ٢٤]

الآية	السورة ورقمها
٧ - ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾	[الحج : ٦٤]
٨ - ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾	[لقمان : ١٢]
٩ - ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾	[لقمان : ٢٦]
١٠ - ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾	[سبأ : ٦]
١١ - ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾	[فاطر : ١٥]
١٢ - ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾	[فصلت : ٤٢]
١٣ - ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾	[الشورى : ٢٨]
١٤ - ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾	[الحديد : ٢٤]
١٥ - ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾	[الممتحنة : ٦]
١٦ - ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾	[التغابن : ٦]
١٧ - ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾	[البروج : ٨]

ثالثاً : آيات حمد الملائكة

الآية	السورة ورقمها
١ - ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾	[البقرة : ٣٠]

الآية	السورة ورقمها
٢ - ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾	[الرعد : ١٣]
٣ - ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	[الزمر : ٧٥]
٤ - ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾	[غافر : ٧]
٥ - ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾	[الشورى : ٥]

رابعاً : آيات حمد الأنبياء

الآية	السورة ورقمها
١ - ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾	[إبراهيم : ٣٩]
٢ - ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	[النمل : ١٥]

خامساً : آيات أمر الأنبياء بالحمد

الآية	السورة ورقمها
١ - ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾	[الحجر : ٩٨]
٢ - ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾	[الإسراء : ١١١]
٣ - ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾	[طه : ١٣٠]
٤ - ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	[المؤمنون : ٢٨]

الآية	السورة ورقمها
٥ - ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾	[الفرقان : ٥٨]
٦ - ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾	[النمل : ٥٩]
٧ - ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾	[النمل : ٩٣]
٨ - ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾	[العنكبوت : ٦٣]
٩ - ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	[لقمان : ٢٥]
١٠ - ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾	[غافر : ٥٥]
١١ - ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾	[قٓ : ٣٩]
١٢ - ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾	[الطور : ٤٨ ـ ٤٩]
١٣ - ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾	[النصر : ١ ـ ٣]

سادساً :آيات حمد العباد

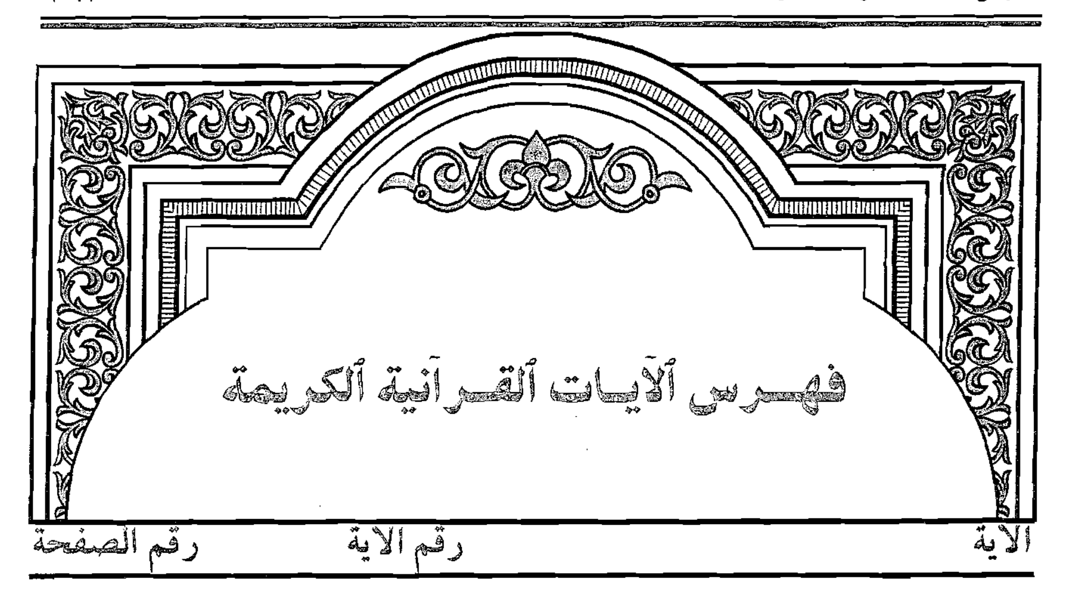
الآية	السورة ورقمها
١ - ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾	[الأعراف : ٤٣]

الآية	السورة ورقمها
٢ ـ ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَـٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	[التوبة : ١١٢]
٣ ـ ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾	[يونس : ١٠]
٤ ـ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾	[الإسراء : ٥٢]
٥ ـ ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾	[السجدة : ١٥]
٦ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾	[فاطر : ٣٤]
٧ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾	[الزمر : ٧٤]

سابعاً : آية حمد جميع الخلق

الآية	السورة ورقمها
١ ـ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾	[الإسراء : ٤٤]





فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة

سورة الصافات

سورة ق

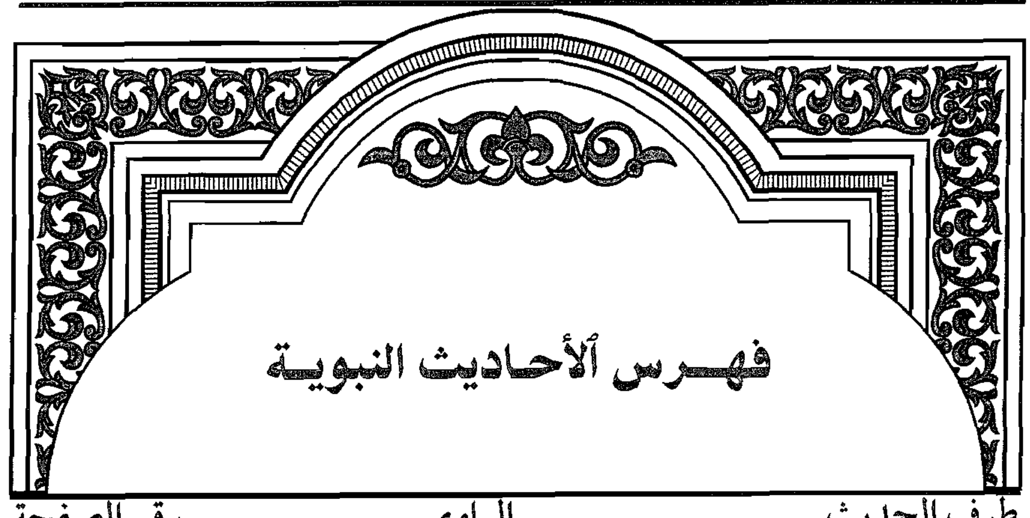
سورة الطور

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة

سورة العاديات

سورة النصر





فهرس الأحاديث النبوية





فهرس الأعلام

اسم العلم | رقم الصفحة





فهرس الأشعار





فهرس المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن ـ جلال الدين بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي ت٩١١ ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الأولىٰ .

٣ ـ الأحاديث المختارة ـ أبو عبد ٱلله محمد بن عبد الواحد المقدسي ت٦٤٣ ـ مكتبة النهضة الحديثة ـ الطبعة الأولىٰ .

٤ ـ أحكام القرآن ـ للقاضي أبي بكر محمد بن عبد ٱلله بن محمد الأندلسي ت٥٤٣ ـ دار الفكر للطباعة والنشر .

٥ ـ إحياء علوم الدين ـ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ت٥٠٥ ـ دار المعرفة .

٦ ـ الآداب الشرعية ـ أبو عبد ٱلله محمد بن مفلح المقدسي ت٧٦٣ ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية .

٧ ـ آداب الصحبة ـ لأبي عبد الرحمٰن السلمي ت٤١٢ ـ دار الصحابة للتراث ـ الطبعة الأولىٰ .

٨ ـ الأدب المفرد ـ لأبي عبد ٱلله محمد بن إسماعيل البخاري ت٢٥٦ ـ دار البشائر الإسلامية ـ الطبعة الثانية .

٩ ـ الأذكار ـ لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي ت٦٧٦ ـ دار الكتاب العربي .

١٠ ـ إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم ـ أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفىٰ الحنفي ت٩٨٢ ـ دار إحياء التراث العربي .

١١ ـ الأسماء الحسنىٰ ومناسبتها للآيات التي ختمت بها ـ عبد الودود مقبول حنيف ـ رسالة علمية ـ جامعة أم القرىٰ .

١٢ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، تأليف : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، دار النشر : دار الجيل ـ بيروت ـ ١٤١٢ ـ ١٩٩٢ م ، الطبعة الأولىٰ ، تحقيق : علي محمد البجاوي .

١٣ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ـ محمد الأمين بن محمد الشنقيطي ت١٣٩٣ ـ دار الفكر .

١٤ ـ الأعلام ـ لخير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الخامسة .

١٥ ـ الإقناع للشربيني ـ محمد الشربيني الخطيب ـ دار الفكر .

١٦ ـ اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، تأليف : أدورد فنديك ، دار النشر : دار صادر ـ بيروت ـ ١٨٩٦م .

١٧ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ ناصر الدين أبو الخير عبد ٱلله بن عمر بن محمد البيضاوي ت٦٩١ ـ دار إحياء التراث العربي .

١٨ ـ بحر العلوم ـ أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي ت٣٧٣ ـ دار الفكر .

١٩ ـ البحر المحيط ـ لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي ت٧٤٥ ـ دار الفكر ـ الطبعة الثانية .

٢٠ ـ البداية والنهاية ـ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ت٧٧٤ ـ مكتبة المعارف .

٢١ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ـ محمد بن علي الشوكاني ت١٢٥٠ ـ دار المعرفة .

٢٢ ـ بلغة السالك ـ أحمد الصاوي ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولىٰ .

٢٣ - التاريخ الكبير - أبو عبد ٱلله محمد بن إسماعيل البخاري ت٢٥٦ - دار الفكر .

٢٤ - تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي أحمد بن علي ت٤٦٣ - دار الكتب العلمية .

٢٥ - تاج العروس - محمد مرتضىٰ الحسيني الزبيدي - دار الهداية .

٢٦ - تاريخ مدينة دمشق - أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة ٱلله ت٥٧١ - دار الفكر .

٢٧ - التبيان في تفسير غريب القرآن - شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري ت٨١٥ - دار الصحابة للتراث - الطبعة الأولىٰ .

٢٨ - تفسير الجلالين - جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ت٩١١ - دار الحديث - الطبعة الأولىٰ .

٢٩ - التحرير والتنوير - لمحمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للطباعة والنشر .

٣٠ - تخريج الأحاديث والآثار - جمال الدين عبد ٱلله بن يوسف الزيلعي ت٧٦٢ - دار ابن خزيمة .

٣١ - تدريب الراوي - عبد الرحمـٰن بن أبي بكر السيوطي ت٩١١ - مكتبة الرياض الحديثة .

٣٢ - التسهيل لعلوم التنزيل - لمحمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي ت٧٤١ - دار الكتاب العربي - الطبعة الرابعة .

٣٣ - تصحيح الدعاء - بكر أبو زيد - دار العاصمة - الطبعة الأولىٰ .

٣٤ - التعاريف - محمد بن عبد الرؤوف المناوي ت١٠٣١ - دار الفكر المعاصر - الطبعة الأولىٰ .

٣٥ - التعديل والتجريح - سليمان بن خلف بن سعد الباجي ت٤٧٤ - دار اللواء للنشر والتوزيع - الطبعة الأولىٰ .

٣٦ ـ التعريفات ـ علي بن محمد بن علي الجرجاني ت٨١٦ ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الأولىٰ .

٣٧ ـ تفسير السمعاني ـ لأبي مظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ت٤٨٩ ـ دار الوطن ـ الطبعة الأولىٰ .

٣٨ ـ تفسير القرآن ـ لسلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلامي ت ٤٥٠ ـ الناشر عبد ٱلله بن إبراهيم الوهيبي ـ الطبعة الأولىٰ .

٣٩ ـ تفسير القرآن العظيم ـ للحافظ ابن أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ت٧٤٧ ـ دار المعرفة ـ الطبعة الأولىٰ .

٤٠ ـ تفسير القرآن الكريم ـ لمحمد بن صالح العثيمين ـ دار ابن الجوزي ـ الطبعة الأولىٰ .

٤١ ـ تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ، تأليف : محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد ٱلله بن فتوح بن حميد بن يصل الأزدي الحميدي ، دار النشر : مكتبة السنة ـ القاهرة ـ مصر ـ ١٤١٥ ـ ١٩٩٥ ، الطبعة الأولىٰ ، تحقيق : الدكتورة : زبيدة محمد سعيد عبد العزيز .

٤٢ ـ تفسير المنار ـ محمد رشيد رضا ـ دار الفكر ـ الطبعة الثانية .

٤٣ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ـ دكتور صلاح الخالدي ـ دار النفائس ـ الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ .

٤٤ ـ تقريب التهذيب ـ أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت٨٥٢ ـ دار الرشيد ـ الطبعة الأولىٰ .

٤٥ ـ التمهيد لمعاني الموطأ والأسانيد ـ أبو عمر يوسف بن عبد ٱلله بن عبد البر النمري ت٤٦٣ ـ وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية .

٤٦ ـ تهذيب التهذيب ـ أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت٨٥٢ ـ دار الفكر ـ الطبعة الأولىٰ .

٤٧ ـ تهذيب الكمال ـ يوسف بن الزكي عبد الرحمٰن المزي ت٧٤٢ ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولىٰ .

٤٨ ـ تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان ـ أبو عبد ٱلله عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ت ١٣٧٦ هـ ـ دار إحياء التراث العربي ـ الطبعة الثانية .

٤٩ ـ الثقات ـ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي ت٣٥٤ ـ دار الفكر ـ الطبعة الأولىٰ .

٥٠ ـ جامع البيان في تفسير القرآن ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت٣١٠ ـ دار المعرفة ـ الطبعة الثانية .

٥١ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ لأبي عبد ٱلله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ت٦٧١ ـ دار الكتب المصرية .

٥٢ ـ جامع الثناء علىٰ ٱلله تعالىٰ ـ يوسف بن إسماعيل النبهاني ـ طبع شركة مصطفىٰ البابي الحلبي .

٥٣ ـ الجامع الكبير لكتب التراث العربي ـ مركز التراث للبرمجيات ـ موسوعة إلكترونية .

٥٤ ـ الجرح والتعديل ـ عبد الرحمٰن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي ت٣٢٧ ـ دار إحياء التراث العربي ـ الطبعة الأولىٰ .

٥٥ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن ـ عبد الرحمٰن بن مخلوف الثعالبي ت٨٧٥ ـ المكتبة العصرية ـ الطبعة الأولىٰ .

٥٦ ـ حاشية الجمل شرح المنهج ـ سليمان الجمل ـ دار الفكر .

٥٧ ـ حاشية العدوي ـ علي الصعيدي العدوي المالكي ـ دار الفكر .

٥٨ ـ حاشية قليوبي ـ شهاب الدين أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي ت١٠٦٩ ـ دار الفكر ـ الطبعة الأولىٰ .

٥٩ ـ حقائق التفسير ـ أبو عبد الرحمٰن محمد بن الحسين بن موسىٰ السلمي ت٤١٢ ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولىٰ .

٦٠ ـ حلية الأولياء ـ أبو نعيم أحمد بن عبد ٱلله الأصبهاني ت٤٣٠ ـ دار الكتاب العربي ـ الطبعة الرابعة .

٦١ ـ الحماسة المغربية ـ أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي ـ دار الفكر المعاصر ـ الطبعة الأولىٰ .

٦٢ ـ درء التعارض ـ تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ت٧٢٨ ـ دار الكتب العلمية .

٦٣ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ـ للحافظ ابن حجر العسقلاني ت٨٥٢ ـ دار الكتب الحديثة .

٦٤ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ـ جلال الدين عبد الرحمـٰن بن أبي بكر السيوطي ت٩١١ ـ دار الفكر .

٦٥ ـ الدعاء ـ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت٣٦٠ ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولىٰ .

٦٦ ـ ديوان أبي فراس الحمداني .

٦٧ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ أبو الثناء شهاب الدين السيد محمد أفندي الآلوسي ت١٢٧٠ ـ دار إحياء التراث العربي .

٦٨ ـ زاد المسير في علم التفسير ـ عبد الرحمـٰن بن علي بن محمد الجوزي ت٥٩٧ ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثالثة .

٦٩ ـ سمط النجوم العوالي ـ عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العاصمي ت١١١١ ـ دار الكتب العلمية .

٧٠ ـ السلسلة الصحيحة ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتب المعارف ـ طبعة جديدة .

٧١ ـ سنن ابن ماجه ـ أبو عبد ٱلله محمد بن يزيد القزويني ت٢٧٥ ـ دار الفكر .

٧٢ ـ سنن أبي داود ـ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ت٢٧٥ ـ دار الفكر .

٧٣ ـ سنن البيهقي ـ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ت٤٥٨ ـ مكتبة الدار ـ الطبعة الأولىٰ .

٧٤ ـ سنن الترمذي ـ أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ الترمذي ت٢٧٩ ـ دار إحياء التراث العربي .

٧٥ ـ سنن الدارقطني ـ أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني ت٣٨٥ دار المعرفة .

٧٦ ـ سنن النسائي ـ أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي ت٣٠٣ ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولىٰ .

٧٧ ـ سير أعلام النبلاء ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت٧٤٨ ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة السابعة .

٧٨ ـ شأن الدعاء ـ حمد بن محمد الخطابي ت٣٨٨ .

٧٩ ـ شفاء العليل ـ أبو عبد ٱلله شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي ابن قيم الجوزية ت٧٥١ ـ دار الفكر .

٨٠ ـ صحيح ابن حبان ـ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي ت٣٥٤ ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية .

٨١ ـ صحيح البخاري ـ أبو عبد ٱلله محمد بن إسماعيل البخاري ت٢٥٦ ـ دار ابن كثير ـ الطبعة الثالثة .

٨٢ ـ صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ الطبعة الثالثة .

٨٣ ـ صحيح سنن أبي داود باختصار السند ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتب التربية العربي ـ الطبعة الأولىٰ .

٨٤ ـ صحيح سنن الترمذي باختصار السند ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتب التربية العربي ـ الطبعة الأولىٰ .

٨٥ ـ صحيح مسلم ـ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت٢٦١ ـ دار إحياء التراث العربي .

٨٦ ـ صحيح مسلم شرح النووي ـ لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي ت٦٧٦ ـ دار الريان للتراث .

٨٧ ـ صيغ الحمد ـ أبو عبد ٱلله محمد بن أبي بكر الزرعي ابن قيم الجوزية ت٧٥١ ـ دار العاصمة ـ الطبعة الأولىٰ .

٨٨ ـ طبقات الشافعية الكبرىٰ ـ تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ت٧١٧ ـ نشر عيسىٰ البابي الحلبي ـ الطبعة الأولىٰ .

٨٩ ـ طبقات المفسرين ، تأليف : عبد الرحمـٰن بن أبي بكر السيوطي ، دار النشر : مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ١٣٩٦ ، الطبعة الأولىٰ ، تحقيق : علي محمد عمر .

٩٠ ـ العقود الدرية ـ أبو عبد ٱلله محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي ت٧٤٤ ـ دار الكتاب العربي .

٩١ ـ علوم البلاغة ـ أحمد بن مصطفىٰ المراغي ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الرابعة .

٩٢ ـ غاية البيان شرح زبدة ابن رسلان ـ محمد بن أحمد الرملي الأنصاري ت١٠٠٤ ـ دار المعرفة .

٩٣ ـ غرر البلاغة ـ هلال بن المحسن الصابئ ت٤٤٨ ـ دار الكلمة ـ الطبعة الأولىٰ .

٩٤ ـ الغنية لطالبي طريق الحق ـ عبد القادر الجيلاني ت٥٦١ ـ مكتبة الشرق .

٩٥ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت٨٥٢ ـ دار الريان للتراث ـ الطبعة الأولىٰ .

٩٦ ـ فتح القدير ـ محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت١٢٥٠ ـ دار الفكر .

٩٧ ـ الفوائد ـ أبو عبد ٱلله محمد بن أبي بكر الزرعي ابن قيم الجوزية ت٧٥١ ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الثانية .

٩٨ ـ فيض القدير ـ محمد بن عبد الرؤوف المناوي ت١٠٣١ ـ المكتبة التجارية الكبرىٰ ـ الطبعة الأولىٰ .

٩٩ ـ القاموس المحيط ـ محمد بن يعقوب الفيروزأبادي ت٨١٧ ـ مؤسسة الرسالة .

١٠٠ ـ الكاشف ـ أبو عبد ٱلله حمد بن أحمد الذهبي الدمشقي ت٧٤٨ ـ دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ الطبعة الأولىٰ .

١٠١ ـ كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ـ محمد بن إسحاق بن خزيمة ت٣١١ ـ دار الرشد .

١٠٢ ـ كتاب الشكر ـ أبو عبد ٱلله محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي ت٢٨١ ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثالثة .

١٠٣ ـ كتب ورسائل وفتاوىٰ ابن تيمية في التفسير ـ أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ت٧٢٨ ـ مكتبة ابن تيمية ـ الطبعة الثانية .

١٠٤ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ت٥٣٨ ـ دار إحياء التراث العربي .

١٠٥ ـ كنز العمال ـ علاء الدين علي بن المتقي بن حسام الدين الهندي ت٩٧٥ ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولىٰ .

١٠٦ ـ لسان العرب ـ لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور ت٧١١ ـ دار صادر ـ الطبعة الأولىٰ .

١٠٧ ـ مباحث في التفسير الموضوعي ـ دكتور مصطفىٰ مسلم ـ دار القلم ـ الطبعة الثانية ١٤٢١هـ .

١٠٨ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ت٨٠٧ ـ دار الكتاب العربي .

١٠٩ ـ مجموعة الرسائل والمسائل ـ أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ت٧٢٨ .

١١٠ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ت٥٤٦ ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولىٰ .

١١١ ـ مختار الصحاح ـ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت٧٢١ ـ مكتبة لبنان .

١١٢ ـ مدارج السالكين ـ أبو عبد ٱلله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ت٧٥١ ـ المكتبة التوفيقية .

١١٣ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل ـ إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفي ت٢٩٥ .

١١٤ ـ المدخل ـ أبو عبد ٱلله محمد بن محمد بن محمد العبدري الشهير بابن الحاج ت٧٣٧ ـ دار الفكر .

١١٥ ـ المدخل إلىٰ التفسير الموضوعي ـ دكتور عبد الستار فتح ٱلله سعيد ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ الطبعة الثانية ١٤١١هـ .

١١٦ ـ مرقاة المفاتيح ـ علي بن سلطان محمد القاري ت١٠١٤ ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولىٰ .

١١٧ ـ المستدرك على الصحيحين ـ أبو عبد ٱلله محمد بن عبد ٱلله الحاكم النيسابوري ت٤٠٥ ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولىٰ .

١١٨ ـ مسند أحمد بن حنبل ـ أبو عبد ٱلله أحمد بن حنبل الشيباني ت٢٤١ ـ مؤسسة قرطبة .

١١٩ ـ مسند البزار ـ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار ت٢٩٢ ـ مؤسسة علوم القرآن ـ الطبعة الأولىٰ .

١٢٠ ـ مشارق الأنوار ـ القاضي أبو الفضل عياض بن موسىٰ بن عياض السبتي ت٥٤٤ ـ دار التراث .

١٢١ ـ مصباح الزجاجة ـ أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني ت٨٤٠ ـ دار الكتب العربية ـ الطبعة الثانية .

١٢٢ ـ مصنف ابن أبي شيبة ـ أبو بكر عبد ٱلله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ت٢٣٥ ـ مكتبة الرشد ـ الطبعة الأولىٰ .

١٢٣ ـ مصنف عبد الرزاق ـ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت٢١١ ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثانية .

١٢٤ ـ المطالب العالية ـ أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت٨٥٢ ـ دار العاصمة ـ الطبعة الأولىٰ .

١٢٥ ـ معالم التنزيل ـ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي ت٥١٠ ـ دار المعرفة .

١٢٦ ـ معجم الأدباء ـ ياقوت الحموي ت٦٢٦ ـ دار الفكر ـ الطبعة الثالثة .

١٢٧ ـ معجم الطبراني ـ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت٣٦٠ ـ دار الحرمين .

١٢٨ ـ مفاتيح الغيب ـ أبو عبد ٱلله محمد بن عمر بن الحسين البكري الرازي ـ ت٦٠٦ ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولىٰ .

١٢٩ ـ مفتاح دار السعادة ـ أبو عبد ٱلله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ت٧٥١ ـ دار الكتب العلمية .

١٣٠ ـ مقاييس اللغة ـ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت٣٩٥ ـ دار الجيل ـ الطبعة الثانية .

١٣١ ـ المكنون في مناقب ذي النون ـ عبد الرحمـٰن بن أبي بكر السيوطي ت٩١١ ـ مكتبة الأدباء ـ الطبعة الأولىٰ .

١٣٢ ـ المهذب ـ أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي ـ دار الفكر .

١٣٣ ـ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ـ محمد بن حسن بن عقيل موسىٰ الشريف ـ دار الأندلس ـ الطبعة الأولىٰ .

١٣٤ ـ نفح الطيب ـ أحمد بن محمد المقري التلمساني ـ دار العاصمة .

١٣٥ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ـ المبارك بن محمد الجزري ت٦٠٦ ـ المكتبة العلمية .

١٣٦ ـ نهاية المحتاج ـ شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة بن شهاب الدين الشهير بالشافعي الصغير ت١٠٠٤ ـ دار الفكر للطباعة .

١٣٧ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ت٦٨١ ـ دار الثقافة .





فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الباب الأول
الحمد بين اللغة والاصطلاح

الباب الثاني
حمد ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لذاته

الباب الثالث
حمد المخلوقين

الموضوع	رقم الصفحة

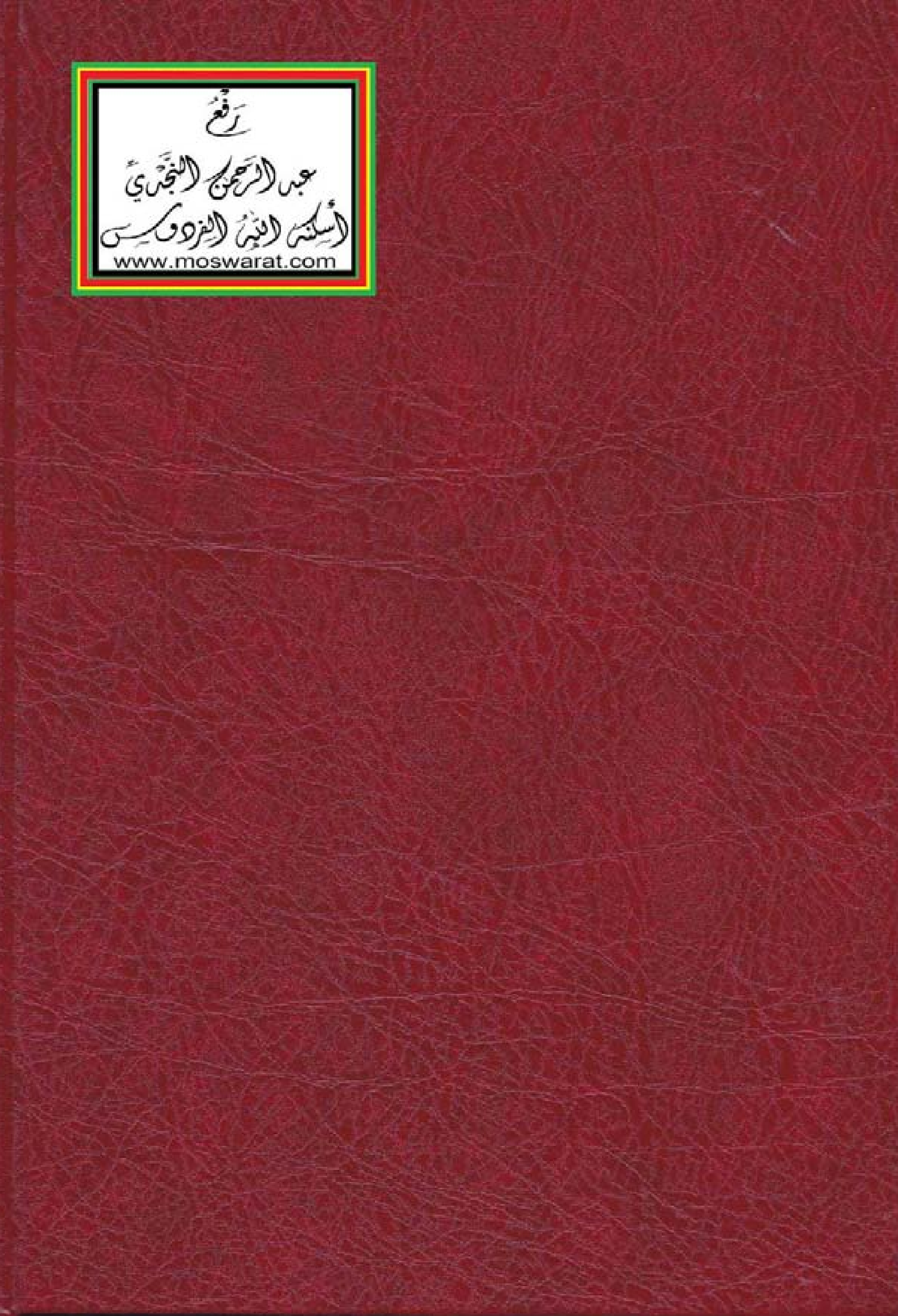
الباب الرابع

صيغ الحمد

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com